التدبر والبيان

في

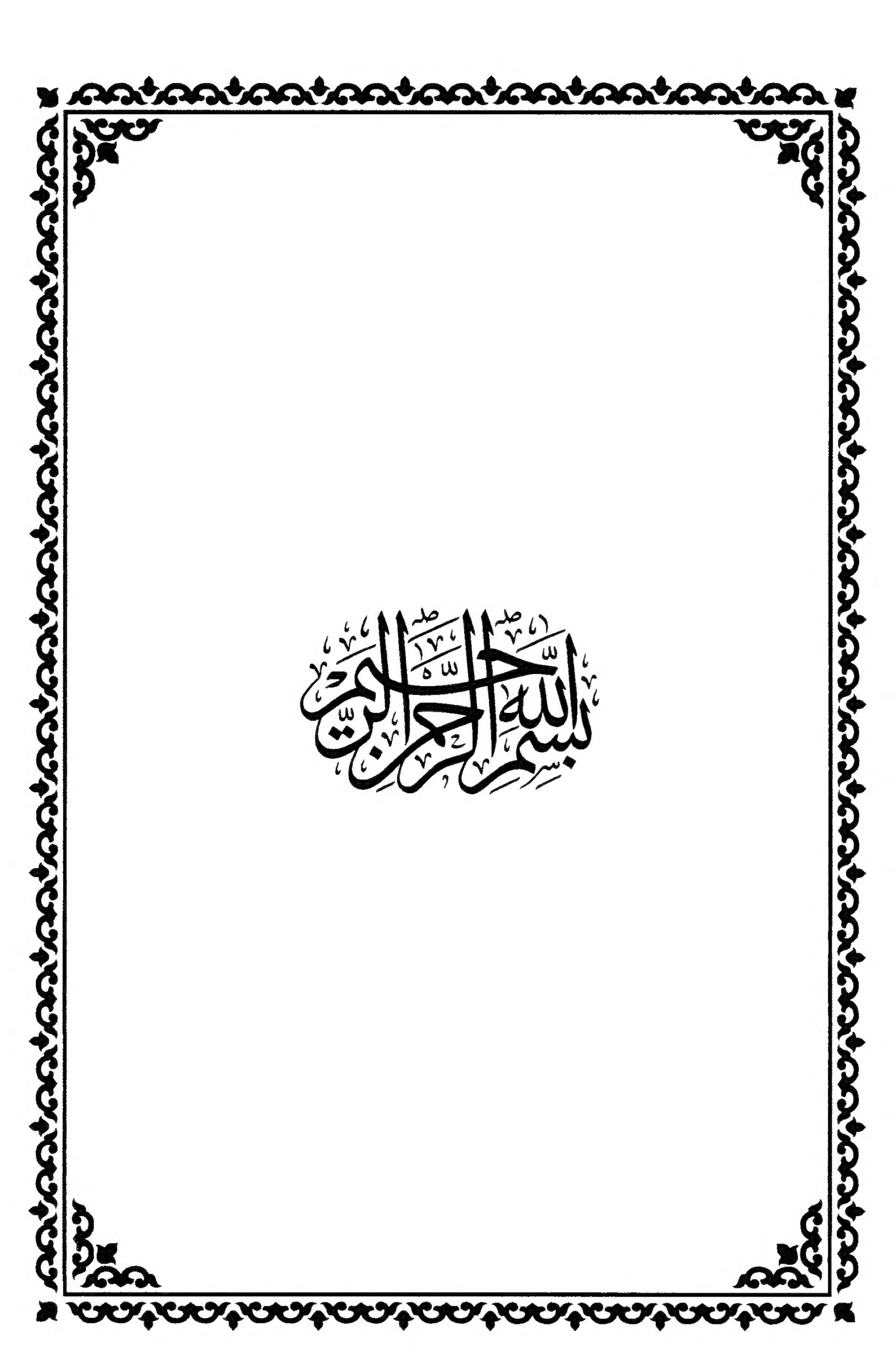
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثلاثون

فصلت - الزخرف


بسم الله الرحمن الرحيم

التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17×24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة فصلت

قال المراغي: «مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة:

وصف الكتاب الكريم.

إعراض المشركين عن تدبره.

جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين.

إقامة الأدلة على الوحدانية.

إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم.

شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها.

ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل اللّه.

ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن.

طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاما منهم.

ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب.

إعادة الأدلة على الوحدانية.

القرآن هداية ورحمة.

إحاطة علم اللّه وعظيم قدرته.

من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة.

آيات اللّه في الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته.

شك المشركين في البعث والنشور ثم الرد عليهم»[1].

---

(١) تفسير المراغي (٢٥/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ (كتاب): خبر مبتدإ محذوف أي: هذا كتاب، والكتاب: فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب. وإنما قيل له كتاب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوۡحٍ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾[1].

ومكتوب أيضًا في صحف عند الملائكة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[2].

وقال تعالى في قراءة النبي ﷺ، لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾[3].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: التفصيل ضد الإجمال؛ أي: فصل اللَّه آيات هذا القرآن، أي بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق، من أمور دينهم ودنياهم. والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن لا يكون إلا من اللَّه وحده.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موضحًا في آيات أخر، مبينًا فيها أن اللَّه فصله على علم منه، وأن الذي فصله حكيم خبير، وأنه

---

(١) البروج: الآيتان (٢١-٢٢).

(٢) عبس: الآيات (١١-١٦).

(٣) البينة: الآيتان (٢-٣).

فصله ليهدي به الناس ويرحمهم، وأن تفصيله شامل لكل شيء، وأنه لا شك أنه منزل من اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾[1] وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾[3] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[5] والآيات بمثل ذلك كثيرة»[6].

وقال أيضًا: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا لقوم يعلمون. وإنما خصهم بذلك؛ لأنهم هم المنتفعون بتفصيله، كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[7]، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا وجه تخصيص المنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[9]، وبينا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم في آية فاطر هذه، وفي قوله تعالى في يس: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[10] وقوله في النازعات: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾[11] وقوله في الأنعام: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[12] الآية. مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ

(١) الأعراف: الآية (٥٢).
(٢) هود: الآية (١).
(٣) يونس: الآية (٣٧).
(٤) يوسف: الآية (١١١).
(٥) الأنعام: الآية (١١٤).
(٦) أضواء البيان (٧/ ١٠٥-١٠٦).
(٧) يونس: الآية (٥).
(٨) الأنعام: الآيتان (٩٧-٩٨).
(٩) فاطر: الآية (١٨).
(١٠) يس: الآية (١١).
(١١) النازعات: الآية (٤٥).
(١٢) الأنعام: الآية (٥١).

﴿ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾[١].

وإنما خص المذكورين بالإنذار؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ لأن من لم ينتفع بالإنذار، ومن لم ينذر أصلًا سواء في عدم الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل، والقرآن الجميل، ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادر ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجُعل عربيًا. ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغَي من الرشاد.

وأما الجاهلون، الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالا ولا البيان إلا عَمًى، فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلقَّى بالقبول والإذعان، والإيمان به والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا تقوم عليهم به الحجة الشرعية»[٤].

قال ابن عاشور: «وإيثار الصفتين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من اللّٰه بعباده ليخرجهم من

---

(١) الفرقان: الآية (١).
(٢) البقرة: الآية (٦).
(٣) أضواء البيان (٧/ ١٠٦-١٠٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٧-٥٥٨).

الظلمات إلى النور كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[2] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

والجمع بين صفتي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للإيماء إلى أن الرحمة صفة ذاتيَّة لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة. وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾[4].

ومعنى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُينت، والتفصيل: التبيين والإخلاء من الالتباس. والمراد: أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، وقد تقدم في طالعة سورة هود.

ومن كمال تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، فكانت سالمة من التباس الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب، فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل. وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[5] ولهذا فرع عليه ذم الذين أعرضوا عنه بقوله هنا: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وقوله هنالك: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾[6].

والقرآن: الكلام المقروء المتلوّ. وكونه قُرآنًا من صفات كماله، وهو أنه سهْل الحفظ، سهْل التلاوة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾[7] ولذلك كان

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٧).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٥١).
(٤) فصلت: الآية (٤٤).
(٥) الشعراء: الآية (١٩٥).
(٦) الشعراء: الآيتان (٢٠٠-٢٠١).
(٧) القمر: الآية (٢٢).

شأن الرسول ﷺ حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شأن المسلمين الاقتداء به في ذلك على حسب الهمم والمَكْنَات، وكان النبي ﷺ يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن. وكان يوم أحد يقدم في لحد شهدائه مَن كان أكثرهم أخذًا للقرآن تنبيهًا على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ما لقيه النبي ﷺ من المشركين بمكة، ويلقاه الدعاة إلى التوحيد والسنة إلى يوم القيامة

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: «اجتمعت قريش للنبي ﷺ يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ما يرد عليه؟ قالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. قالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول اللَّه ﷺ، ثم قال: أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول اللَّه ﷺ. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا واللَّه ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، ففضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، واللَّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. يا أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا حتى تكون أغنى قريش رجلًا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا. فقال له رسول الله: «أفرغت؟» قال: نعم. فقال رسول اللَّه ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾[2] فقال عتبة: حسبك حسبك.. ! ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم، والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه قال:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣٠-٢٣١).
(٢) فصلت: الآيات (١-١٣)

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ قالوا: ويلك! يكلمك رجل بالعربية ولا تدري ما قال؟ قال: لا، والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة»[1].

★ **غريب الحديث:**

السخلة: ابن الغنم. وربما يعيرونه هنا برعي الغنم.

الباءة: النكاح.

طار فيهم: انتشر فيهم الخبر بسرعة.

الصاعقة: من الصعق، وهو أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه، وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيرًا، والصعقة: الواحدة منه.

نصبها بنية: أي: والذي بنى الكعبة.

★ **فوائد الحديث:**

قال الغزالي: «تخير رسول الله ﷺ هذه الآيات من الوحي المبارك ليعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول. إن محمدًا ﷺ يحمل كتابًا من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال، وينقذهم من خبال، وهو -قبل غيره- مكلف بتصديقه، والعمل به، والنزول عند أحكامه. فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه، فمحمد ﷺ ألهج الناس بالاستغفار، وألزمهم للاستقامة، وما يطلب ملكًا ولا مالًا ولا جاهًا، لقد أمكنه الله من هذا كله، فعفّ عنه وترفّع أن يمد يده إليه. وبسط العطاء مما سيق إليه من خيرات، فأنفق واديًا من المال في ساعة من نهار، وترك الحياة غير معقب لذريته درهمًا.

إن عتبة -باسم قريش- يريد أن يترك محمدًا -عليه الصلاة والسلام- الدعوة إلى الله، وإقامة العدالة بين الناس، ماذا تصير إليه الحياة لو أن صخرة من الأرض انخلعت عنها وصعدت إلى دارات الفلك تطلب من الشمس أو أي كوكب آخر أن

(١) أخرجه: أبو يعلى (٣/ ٣٤٩-٣٥١/ ١٨١٨) واللفظ له، قال الهيثمي (٦/ ٢٠): «رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات»، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٠-٣٣١/ ٣٦٥٦٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٣-٢٥٤) وصححه ووافقه الذهبي. وفي الباب عن محمد بن كعب القرظي وابن عمر ﷺ أجمعين.

يقف مسيره وإشعاعه ويحرم الوجود من ضيائه وحرارته، ألا ما أغرب هذا الطلب، وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكانته لا يعدوها، ولذلك عندما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقظ ما كان نائمًا في فكره، واستمع إلى الوعيد يهدر فيحرك ما كان هائجًا من عاطفته، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾[1] لقد وضع عتبة يده على جنبه، وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش يقترح عليهم أن يدعوا محمدًا وشأنه»[2].

«كان جواب رسول اللَّه ﷺ حاسما، إن اختياره لهذه الآيات لدليل على حكمته، وقد تناولت الآيات الكريمة قضايا رئيسة كان منها: أن هذا القرآن تنزيل من اللَّه، بيان موقف الكافرين وإعراضهم، بيان مهمة الرسول وأنه بشر، بيان أن الخالق واحد هو اللَّه، وأنه خالق السموات والأرض، تكذيب الأمم السابقة وما أصابها، وإنذار قريش صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»[3].

قلت: هذه قصة عجيبة تدل دلالة واضحة على مهمة البلاغ والنبوة، وأن المبلغ عن اللَّه ورسوله إذا كان معه علم وصدق وإخلاص لا يتلون ولا يحور، وبلاغه عن اللَّه ورسوله ودعوته إلى ذلك خير له من ملء الأرض ذهبًا، وخير له من أي مرغوب ومحبوب.

وبكل أسف فقد صار العلم كأنه سلعة في أسواق المزاد، والعالم غير الصادق وغير المخلص يسابق إلى مصالحه وأغراضه ويجعل العلم وسيلة إلى ذلك، فمن أعطاه أكثر دخل معه في حزبه، وتبعه فكان من جنده، ولا يهمه إلا المحافظة على منافعه، وليس له ميزان في حق أو باطل، فالميزان الحقيقي هو المصالح والمنافع، ولهذا جاء الوعيد في هذه الثلة الكاذبة في قوله ﷺ: **«من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه اللَّه لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة»**. أي: ريحها»[4] اهـ.

---

(١) فصلت: الآية (١٣). (٢) فقه السيرة (ص: ١١٣-١١٤).

(٣) معين السيرة للشامي نقلا عن أصح الكلام في سيرة خير الأنام للصلابي (١/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٤/ ٧١/ ٣٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٢)، وابن حبان (١/ ٢٧٩/ ٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾

★ غريب الآية:

أكنة: جمع كِنان، وهو الغطاء.

وقر: أي: صمم. وأصل الوَقْر، بالفتح: الثِّقَل. وبالكسر: الحمْل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الكفار صرحوا للنبي ﷺ بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به، فقالوا له: قلوبنا التي نعقل بها ونفهم في أكنة؛ أي: أغطية. والأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء، ويمنعه من الوصول إليه، ويعنون أن تلك الأغطية مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ، وقالوا: إن في آذانهم التي يسمعون بها وقرًا؛ أي: ثقلًا، وهو الصمم. وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبي ﷺ شيئًا، ومما يقول، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[1].

وأن من بينهم وبينه حجابًا، مانعًا لهم من الاتصال والاتفاق؛ لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر، ويحول بينهم وبين رؤية ما يبديه ﷺ من الحق.

واللَّه -جل وعلا- ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وجعل بينهم وبين رسوله حجابًا عند قراءته القرآن، قال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ

---

(١) فصلت: الآية (٢٦).

وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[١]. وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[٢] وقال تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[٣].

وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلًا ظاهر؛ لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلًا، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم. فيقال: فكيف يذمون على قول شيء هو حق في نفس الأمر؟.

والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مرارًا، من أن اللَّه إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر، وتكذيب الرسل طائعين مختارين، فجزاهم اللَّه على ذلك الذنب الأعظم طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاء وفاقًا.

فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها اللَّه عليهم مجازاة لكفرهم الأول. ومن جزاء السيئة تمادي صاحبها في الضلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك.

والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٤].

فقول اليهود في هذه الآية ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ كقول كفار مكة: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ لأن الغلف جمع أغلف، وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان، كلاهما بمعنى الغطاء الساتر.

---

(١) الإسراء: الآيتان (٤٥-٤٦).

(٢) الأنعام: الآية (٢٥).

(٣) الكهف: الآية (٥٧).

(٤) النساء: الآية (١٥٥).

وقد رد الله على اليهود دعواهم بـ ﴿بَل﴾ التي هي للإضراب الإبطالي، في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. فالباء في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببية، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد.

وكقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾[1]، والفاء في قوله: ﴿فَطُبِعَ﴾ سببية أي: ثم كفروا، فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر.

وقد قدمنا مرارًا أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي.

وكذلك الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فهي سببية أيضًا، أي فطبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون؛ أي: لا يفهمون من براهين الله وحججه شيئًا.

وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم؛ لأنه قال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وقال في الأكنة: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[2] أي: كراهة أن يفقهوه، أو لأجل ألا يفقهوه، كما قدمنا إيضاحه.

وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3] فبين أن زيغهم الأول، كان سببًا لإزاغة الله قلوبهم، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب.

وكقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[6] الآية.

وإيضاح هذا الجواب: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا

---

(١) المنافقون: الآية (٣).
(٢) الأنعام: الآية (٢٥).
(٣) الصف: الآية (٥).
(٤) البقرة: الآية (١٠).
(٥) الأنعام: الآية (١١٠).
(٦) التوبة: الآية (١٢٥).

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يقصدون بذلك إخباره ﷺ بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة، والذنب الذي كان سببًا في الأكنة والوقر والحجاب. فدعواهم كاذبة؛ لأن اللَّه جعل لهم قلوبًا يفهمون بها، وآذانًا يسمعون بها، خلافًا لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ. وهذا المعنى أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء المشركون المعرضون عن آيات اللَّه من مشركي قريش إذ دعاهم محمد نبيّ اللَّه إلى الإقرار بتوحيد اللَّه، وتصديق ما في هذا القرآن من أمر اللَّه ونهيه، وسائر ما أنزل فيه ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ يقول: في أغطية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ يا محمد ﴿إِلَيْهِ﴾ من توحيد اللَّه، وتصديقك فيما جئتنا به، لا نفقه ما تقول: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ وهو الثقل، لا نسمع ما تدعونا إليه استثقالا لما يدعو إليه وكراهة له.. وقوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يقولون: ومن بيننا وبينك يا محمد ساتر لا نجتمع من أجله نحن وأنت، فيرى بعضنا بعضا، وذلك الحجاب هو اختلافهم في الدين؛ لأن دينهم كان عبادة الأوثان، ودين محمد ﷺ عبادة اللَّه وحده لا شريك له، فذلك هو الحجاب الذي زعموا أنه بينهم وبين نبيّ اللَّه، وذلك هو خلاف بعضهم بعضا في الدين.

وقوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ يقول: قالوا له ﷺ: فاعمل يا محمد بدينك وما تقول إنه الحق إننا عاملون بديننا وما نقول إنه الحق، ودع دعاءنا إلى ما تدعونا إليه من دينك فإنا ندع دعاءك إلى ديننا.

وأدخلت «من» في قوله: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ والمعنى: وبيننا وبينكَ حِجابٌ، توكيدا للكلام»[3].

* * *

(١) النساء: الآية (١٥٥).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٠٨-١١١).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٩١-٩٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ، أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. والقصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ إضافي؛ أي: لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر. وقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ في الصفات البشرية، ولكن اللَّه فضلني بما أوحى إليَّ من توحيده. كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1] أي: كما من علينا بالوحي والرسالة.

وما ذكره اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة ذكره في آخر سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[2] الآية»[3].

قال السعدي: « ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني اللّه عليكم، وميَّزني وخصَّني بالوحي الذي أوحاه إليَّ، وأمرني باتباعه، ودعوتكم إليه.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى اللّه تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على

---

(١) إبراهيم: الآية (١١).

(٢) الكهف: الآية (١١٠).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١١٣).

ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى اللّه، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصًا صالحًا نافعًا، وبفواته يكون عمله باطلا.

ولما كان العبد، -ولو حرص على الاستقامة- لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا: إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ورجح بعضهم القول الأخير؛ لأن سورة فصلت هذه من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قدمناه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[1]. وعلى كل حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام، أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر، ويعذبون على المعاصي، جاء موضحا في آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقررا له: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٧﴾[2].

فصرح تعالى عنهم، مقررًا له أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر؛ أي: أدخلتهم النار، عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ

---

(١) الأنعام: الآية (١٤١).

(٢) المدثر: الآيات (٤٢-٤٧).

ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾[(١)] ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[(٢)] الآية إلى غير ذلك من الآيات»[(٣)].

قال ابن كثير: «﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا اللَّه. وكذا قال عكرمة. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[(٤)]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[(٦)] والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله في الطاعات. وقال السدي: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يَدِينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض اللَّه على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئًا فشيئًا، واللَّه أعلم»[(٧)].

وقد رجح القول الأول شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم[(٨)].

---

(١) الحاقة: الآيات (٣٠-٣٢).
(٢) الحاقة: الآيات (٣٣-٣٦).
(٣) أضواء البيان (٧/ ١١٤-١١٥).
(٤) الشمس: الآيتان (٩-١٠).
(٥) الأعلى: الآيتان (١٤-١٥).
(٦) النازعات: الآية (١٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٣).
(٨) انظر: الفتاوى (١٠/ ٩٧-٩٨)، وإغاثة اللهفان (١/ ٨١-٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ممنون: مقطوع، من مننت الحبْلَ: إذا قطعته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الأجر جزاء العمل، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هو نعيم الجنة وذلك الجزاء غير ممنون، أي غير مقطوع، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

لمعفر فهدٍ تنازع شِلْوَهُ غُبْسٌ كواسِبُ ما يمن طعامها

فقوله: ما يمن طعامها أي: ما يقطع، وقول ذي الأصبع:

إني لعمرك ما بابي بذي غلق على الصديق ولا خيري بمَمْنونِ.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أجرهم غير ممنون، نص اللَّه تعالى عليه في آيات أخر من كتابه، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾[1]. وقوله تعالى في سورة التين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾[2] وقوله تعالى في سورة هود: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[3]. فقوله: غير مجذوذ أي غير مقطوع، وبه تعلم أن غير مجذوذ وغير ممنون، معناهما واحد. وقوله تعالى في ص: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾[4] أي: ما له من انتهاء ولا انقطاع. وقوله في النحل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[5].

---

(١) الانشقاق: الآية (٢٥).
(٢) التين: الآية (٦).
(٣) هود: الآية (١٠٨).
(٤) ص: الآية (٥٤).
(٥) النحل: الآية (٩٦).

وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافًا لمن قال: إن معنى غير ممنون، غير ممنون عليهم به. وعليه فالمن في الآية من جنس المن المذكور في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[١].

ومن قال: إن معنى غير ممنون، غير منقوص، محتجًا بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص، قالوا: ومنه قول زهير:

فضل الجياد على الخيل البطاءِ فلا يعطي بذلك مَمْنونًا ولا نَزَقَا

فقوله ممنونًا أي منقوصًا. وهذا وإن صح لغة، فالأظهر أنه ليس معنى الآية؛ بل معناها هو ما قدمنا، والعلم عند اللَّه تعالى»[٢].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٦٤).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١١٥-١١٦).

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إنكار من اللّه على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم»[1].

قال صديق حسن خان: «إن واللام إما لتأكيد الإنكار، وقدمت الهمزة لاقتضائها الصدارة، وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد.

﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ المعنى لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم، وقدرته هذه القدرة الباهرة.. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: أضدادا وشركاء والجملة معطوفة على (تكفرون) داخلة تحت الاستفهام، ذكر عنهم شيئين منكرين، أحدهما الكفر باللّه، والثاني إثبات الشركاء له ﴿ذَٰلِكَ﴾ المتصف بما ذكر ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم، وهو ما سوى اللّه، وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون تغليبا للعقلاء من جملة العالمين ما تجعلونها أندادا لله، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته؟»[2].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، وكيف يعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أندادا له في العبودية والإلهية»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٤).

(٢) فتح البيان (١٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ١٠٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الشرك أعظم الذنوب

* عن عبد اللَّه قال: «سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: **ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**، قلت: ثم أي؟ قال: **ثم أن تزاني بحليلة جارك**»[١].

★ غريب الحديث:

ندًّا: أي: مثلًا ونظيرًا في دعائك وعبادتك. وقيل: النِدّ: المثل المزاحم الذي يضاده في أموره، من ندَّ نفر. وأما الضد فهو أحد متقابلين لا يمكن اجتماعهما[٢].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**أي الذنب أعظم؟**»: قال القاري: «الذنب ما يذم به الآتي به شرعًا، وهو أربعة أقسام: قسم لا يُغفر بلا توبة، وهو الكفر، وقسم يُرجى أن يُغفر بالاستغفار وسائر الحسنات، وهو الصغائر، وقسم يُغفر بالتوبة، وبدونها تحت المشيئة، وهو الكبائر من حق اللَّه تعالى، وقسم يحتاج إلى الترادّ، وهو حق الآدمي، والترادّ إما في الدنيا بالاستحلال أو رد العين أو بدله، وأما في الآخرة برد ثواب الظالم للمظلوم، أو إيقاع سيئة المظلوم على الظالم، أو أنه تعالى يرضّيه بفضله وكرمه»[٣].

وقال أيضًا: «وفيه إشارة إلى ما استحق به تعالى أن تتخذه ربًا وتعبده، فإنه خلقك، أو إلى ما به امتاز تعالى عن غيره في كونه إلهًا، أو إلى ضعف الند أي: أن تدعو له ندًا، وقد خلقك غيره، وهو لا يقدر على خلق شيء، والمراد أن أكبر الكبائر هو الشرك باللَّه، بل الكفر مطلقًا، وإنما خُصّ فإن الشرك لظلم عظيم»[٤].

قال الطيبي: «وأكبر الذنوب أن تدعو لله ندًا شريكًا، مع علمك بأنه لم يخلقك أحد غير اللَّه، ولم يقدر على أن يدفع السوء والمكاره غيره، بل لله عليك الإنعام

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٤)، والبخاري (١٣/ ٦٠٠/ ٧٥٢٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٢)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).
(٢) المرقاة (١/ ٢١٨).
(٣) المرقاة (١/ ٢١٨).
(٤) المرقاة (١/ ٢١٨).

مما لا تقدر على عدّه»[1].

وقد تقدم الحديث مع فوائده عدة مرات عبر هذا التفسير المبارك كسورة البقرة الآية (٢٢)، وسورة الأنعام الآية (١٥١)، وسورة يوسف الآية (١٠٦).

* * *

(١) شرح الطيبي (٢/ ٥٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

رواسي: جبال. مأخوذ من الرسو، وهو الثبوت. وسميت الجبال رواسي لثبوتها.

أقواتها: المراد: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم. واحدها: قُوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الظاهر أن معنى قوله هنا: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: تتمة أربعة أيام، وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تتمة أربعة أيام.

ثم قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1] فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال؛ لأن اللَّه تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كقوله في الفرقان: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾[2]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[3] الآية. وقوله تعالى في ق. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[4] وقوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ

(١) فصلت: الآية (١٢). (٢) الفرقان: الآية (٥٩).
(٣) السجدة: الآية (٤).
(٤) ق: الآية (٣٨).

﴿وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بأن معناه في تتمة أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ إذا فسر بأنها أربعة كاملة، ثم جمعت مع اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، واليومين اللذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ لكان المجموع ثمانية أيام. وذلك لم يقل به أحد من المسلمين. والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا، وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ قد قدمنا الكلام على أمثاله من الآيات، في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: أكثر فيها البركات، والبركة الخير، وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾. التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد. والأقوات جمع قوت، والمراد بالأقوات أرزاق أهل الأرض ومعايشهم وما يصلحهم»[3].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى عند قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[4] الآية. هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظة (ثم) التي هي للترتيب والانفصال، وكذلك آية حم السجدة، تدل أيضًا على خلق الأرض قبل خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ الآية. مع أن آية النازعات تدل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾[5]. ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[6]، واعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين

---

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) النحل: الآية (١٥).
(٣) أضواء البيان (٧/ ١١٦-١١٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٩).
(٥) النازعات: الآية (٢٧).
(٦) النازعات: الآية (٣٠).

آية السجدة وآية النازعات فأجاب بأن اللَّه تعالى خلق الأرض أولا قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك، فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السماء، ويدل لهذا أنه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[1] ولم يقل: خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾[2] الآية. وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه، مفهوم من ظاهر القرآن العظيم، إلا أنه يَرِد عليه إشكال من آية البقرة هذه، وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء، وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية. وقد مكثت زمنا طويلا أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني اللَّه إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم، وإيضاحه أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين: كل منهما تدل عليه آية من القرآن: الأول أن المراد بخلق ما في الأرض جميعًا قبل خلق السماء، الخلق اللغوي الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقا، ومنه قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير أنه تعالى نصّ على ذلك في سورة فصلت حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآية.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل ما فيها، كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلا، والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع وإن لم يكن موجودا بالفعل. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[3] الآية. فقوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ ؛ أي: بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم. وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، أي مع ذلك، فلفظة (بعد) بمعنى مع ونظيره قوله

---

(١) النازعات: الآية (٣٠). (٢) النازعات: الآية (٣١). (٣) الأعراف: الآية (١١).

تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾[١] وعليه فلا إشكال في الآية، ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد: (الأرض مع ذلك دحاها)، وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة؛ لأنها مبنية على أن خلق السماء قبل الأرض، وهو خلاف التحقيق، منها: أن (ثم) بمعنى الواو. ومنها أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢]»[٣].

قال الرازي: «لما أخبر عن كونه خالقًا للأرض في يومين، أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك، فالأول: قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ والمراد منها: الجبال، وقد تقدم تفسير كونها: ﴿رَوَٰسِىَ﴾ في سورة النحل، فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ ولم لم يقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾[٤] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾[٥] قلنا: لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا اللَّه سبحانه وتعالى.

والنوع الثاني: مما أخبر اللَّه تعالى في هذه الآية قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ والبركة كثرة الخير، والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان، وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد شق الأنهار، وخلق الجبال، وخلق الأشجار والثمار، وخلق أصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات.

والنوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وفيه أقوال: الأول: أن المعنى: وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، قال محمد بن كعب: قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان. والقول الثاني: قال مجاهد: وقدر فيها

(١) القلم: الآية (١٣).
(٢) البلد: الآية (١٧).
(٣) دفع إيهام الاضطراب (١٤-١٧).
(٤) المرسلات: الآية (٢٧).
(٥) الأنبياء: الآية (٣١).

أقواتها من المطر، وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان، والمعنى: أن اللَّه تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر. والقول الثالث: أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض، وحادثة فيها؛ لأن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة، وإلى محله أخرى، فقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدنًا لنوع آخر من الأشياء المطلوبة، حتى إن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس، فصار هذا المعنى سببًا لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة؛ لأن اللَّه تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبها من الأرض متعينا»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعل في الأرض التي خلق في يومين جبالا رواسي، وهي الثوابت في الأرض من فوقها؛ يعني: من فوق الأرض على ظهرها، وقوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ يقول: وبارك في الأرض فجعلها دائمة الخير لأهلها. . إن اللَّه تعالى أخبر أنه قدّر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش، ولم يخصص -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أنه قَدّر فيها قوتا دون قوت، بل عم الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات، ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتصرّف في البلاد لما خصّ به بعضا دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المآكل والحليّ، ولا قول في ذلك أصح مما قال -جل ثناؤه-: قدّر في الأرض أقوات أهلها، لما وصفنا من العلة»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقدر فيها أقواتها سواء للسائلين على ما بهم إليه الحاجة وما يصلحهم»[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٠٣-١٠٤).

(٢) جامع البيان (٢٤/ ٩٥-٩٧).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ٩٨).

قال شيخ الإسلام: «اللَّه تعالى بسط الأرض للأنام، وأرساها بالجبال لئلا تميد، كما ترسى السفينة بالأجسام الثقيلة إذا كثرت أمواج البحر وإلا مادت، واللَّه تعالى: ﴿يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1] والمخلوقات العلوية والسفلية يمسكها اللَّه بقدرته سبحانه، وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيئته سبحانه»[2].

* * *

---

(١) فاطر: الآية (٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٩٦).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: فقال الله للسماء والأرض: جيئا بما خلقت فيكما، أما أنت يا سماء فأطلعي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم، وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات، وتشقَّقي عن الأنهار ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ جئنا بما أحدثت فينا من خلقك، مستجيبين لأمرك، لا نعصي أمرك»[١].

قال شيخ الإسلام في معرض رده على الطلمنكي: «واختار هو ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه: أقبل على خلق العرش، وعمد إلى خلقه، قال: ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: عمد إلى خلق السماء، وهذا الوجه من أضعف الوجوه، فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: **«كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»**[٢]، ثم خلق السموات والأرض، فإذا كان العرش مخلوقا قبل خلق السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له، لو كان هذا يعرف في اللغة أن استوى على كذا بمعنى أنه عمد إلى فعله، وهذا لا يعرف قط في اللغة لا حقيقة ولا مجازا، لا في نظم، ولا في نثر، ومن قال: استوى بمعنى: عمد، ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ لأنه عُدِّيَ بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا، ولا قصدت

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢)، والبخاري (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٩١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠)، وأخرجه الترمذي مختصرا دون موضع الشاهد (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١).

عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضًا، ولا هو قول أحد من مفسري السلف؛ بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك. وإنما هذا القول وأمثاله ابتدع في الإسلام لما ظهر إنكار أفعال الرب التي تقوم به، ويفعلها بقدرته ومشيئته واختياره، فحينئذ صار يفسر القرآن من يفسره بما ينافي ذلك، كما يفسر سائر أهل البدع القرآن على ما يوافق أقاويلهم، وإما أن ينقل هذا التفسير عن أحد من السلف فلا؛ بل أقوال السلف الثابتة عنهم متفقة في هذا الباب، لا يعرف لهم فيه قولان، كما قد يختلفون أحيانا في بعض الآيات وإن اختلفت عباراتهم فمقصودهم واحد، وهو إثبات علو الله على العرش.

فإن قيل: إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات كما تقدم، فكيف يقال ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان، أو يقال: ثم علا على العرش، قيل: هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد، وروي: ثم يعرج، وهو سبحانه لم يزل فوق العرش، فإن صعوده من جنس نزوله، وإذا كان في نزوله لم يصر شيء من المخلوقات فوقه، فهو سبحانه يصعد وإن لم يكن منها شيء فوقه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنما فسروه بأنه ارتفع؛ لأنه قال قبل هذا: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وهذه نزلت في سورة حم بمكة، ثم أنزل الله في المدينة سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[(١)] فلما ذكر أن استواءه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها تضمن معنى الصعود؛ لأن السماء فوق الأرض، فالاستواء إليها ارتفاع إليها.

فإن قيل: فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام، فقبل ذلك لم يكن على العرش. قيل: الاستواء علو خاص، فكل مستو

---

(١) البقرة: الآيتان (٢٨-٢٩).

على شيء عال عليه، وليس كل عال على شيء مستو عليه. ولهذا لا يقال لكل ما كان عاليا على غيره أنه مستو عليه، واستوى عليه، ولكن كل ما قيل فيه أنه استوى على غيره، فإنه عال عليه، والذي أخبر اللَّه أنه كان بعد خلق السموات والأرض الاستواء لا مطلق العلو، مع أنه يجوز أنه كان مستويًا عليه قبل خلق السموات والأرض لما كان عرشه على الماء، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا عليه، ولم يكن مستويًا عليه، فلما خلق هذا العالم استوى عليه، فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له، كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر، وأما علوه على المخلوقات فهو عند أئمة أهل الإثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع، وهذا اختيار أبى محمد بن كلاب وغيره، وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى، وقول جماهير أهل السنة والحديث ونظار المثبتة.

وهذا الباب ونحوه إنما اشتبه على كثير من الناس لأنهم صاروا يظنون أن ما وصف اللَّه ﷻ به من جنس ما توصف به أجسامهم، فيرون ذلك يستلزم الجمع بين الضدين، فإن كونه فوق العرش مع نزوله يمتنع في مثل أجسامهم، لكن مما يسهل عليهم معرفة إمكان هذا معرفة أرواحهم وصفاتها وأفعالها، وأن الروح قد تعرج من النائم إلى السماء وهى لم تفارق البدن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[١]. . »[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفصيل خلق السماوات والأرض

* وقال طاوس، عن ابن عباس: «﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: أعطيا. ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: أعطينا»[٣].

---

(١) الزمر: الآية (٤٢). (٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٠-٥٢٣).

(٣) علقه البخاري (٨/ ٧١٣) بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير (٢٤/ ٩٨٠٩٩) وعزاه ابن حجر لابن أبي حاتم أيضا وقال (٨/ ٧١٥): «إسناده على شرط البخاري في الصحة».

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وقال عياض: ليس أتى هنا بمعنى أعطى، وإنما هو من الإتيان وهو المجيء بمعنى الانفعال للوجود، بدليل الآية نفسها. وبهذا فسره المفسرون أن معناه جيئا بما خلقت فيكما وأظهراه، قالتا: أجبنا. وروي ذلك عن ابن عباس قال: وقد روي عن سعيد بن جبير نحو ما ذكره المصنف، ولكنه يخرج على تقريب المعنى أنهما لما أمرتا بإخراج ما فيهما من شمس وقمر ونهر ونبات وغير ذلك وأجابتا إلى ذلك كان كالإعطاء، فعبر بالإعطاء عن المجيء بما أودعتاه. قلت: فإذا كان موجهًا وثبتت به الرواية فأي معنى لإنكاره عن ابن عباس، وكأنه لما رأى عن ابن عباس أنه فسر بمعنى المجيء نفى أن يثبت عنه أنه فسره بالمعنى الآخر، وهذا عجيب، فما المانع أن يكون له في الشيء قولان بل أكثر، وقد روى الطبري من طريق مجاهد عن ابن عباس ﷺ قال: قال الله ﷻ للسموات: أطلعي الشمس والقمر والنجوم، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك، قالتا: أتينا طائعين. وقال ابن التين: لعل ابن عباس قرأها: (آتينا) بالمد ففسرها على ذلك. قلت: وقد صرح أهل العلم بالقراءات أنها قراءته، وبها قرأ صاحباه مجاهد وسعيد بن جبير. وقال السهيلي في أماليه: قيل: إن البخاري وقع له في آي من القرآن وهم، فإن كان هذا منها وإلا فهي قراءة بلغته، وجهه أعطيا الطاعة كما يقال: فلان يعطي الطاعة لفلان، قال: وقد قرئ: (ثم سئلوا الفتنة لآتوها) بالمد والقصر، والفتنة ضد الطاعة. وإذا جاز في إحداهما جاز في الأخرى، انتهى. وجوز بعض المفسرين أن آتينا بالمد بمعنى الموافقة، وبه جزم الزمخشري. فعلى هذا يكون المحذوف مفعولًا واحدًا والتقدير: لتوافق كل منكما الأخرى، قالتا: توافقنا. وعلى الأول يكون قد حذف مفعولان والتقدير: أعطيا من أمركما الطاعة من أنفسكما قالتا: أعطيناه الطاعة. وهو أرجح لثبوته صريحًا عن ترجمان القرآن»[١].

* وقال المنهال، عن سعيد قال: «قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي؟ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

(١) فتح الباري (٨/ ٧١٥).
(٢) المؤمنون: الآية (١٠١).

عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[١]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٢]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣]: فقد كتموا في هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾[٤]: فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى ﴿طَآئِعِينَ﴾[٥]: فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء؟ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٦] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٧] ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٨]: فكأنه كان ثم مضى. فقال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٩]: فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾. وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ﴾: فإن اللَّه يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن اللَّه لا يكتم حديثًا، وعنده: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١٠] الآية. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي لم يزل كذلك، فإن اللَّه لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلًّا من عند الله».

قال أبو عبد الله: حدثنيه يوسف بن عدي: حدثنا عبيداللَّه بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بهذا[١١].

---

(١) الصافات: الآية (٢٧).

(٢) النساء: الآية (٤٢).

(٣) الأنعام: الآية (٢٣).

(٤) النازعات: الآيات (٢٧-٣٠).

(٥) فصلت: الآيات (٩-١١).

(٦) النساء: الآية (٩٦).

(٧) النساء: الآية (٥٦).

(٨) النساء: الآية (٥٨).

(٩) الزمر: الآية (٦٨).

(١٠) النساء: الآية (٤٢).

(١١) أخرجه: البخاري (٨/ ٧١٣-٧١٤) تعليقا، قال الحافظ في الفتح (٨/ ٧١٦): وهذا التعليق قد وصله المصنف بعد فراغه من سياق الحديث».

★ **غريب الحديث:**

قال رجل لابن عباس: كأن هذا الرجل هو نافع بن الأزرق الذي صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج، وكان يجالس ابن عباس بمكة، ويسأله ويعارضه.

أشياء تختلف علي: أي: تشكل وتضطرب؛ لأن بين ظواهرها تدافعًا.

يختم: من الختم، وهو بمعنى الطبع، وهو من التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء.

الأكام: جمع أكمة وهو الموضع المرتفع من الأرض كالتل والرابية.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل ما وقع السؤال في حديث الباب أربعة مواضع: الأول نفي المساءلة يوم القيامة وإثباتها، الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه، الثالث: خلق السموات والأرض أيهما تقدم، الرابع: الإتيان بحرف (كان) الدال على الماضي مع أن الصفة لازمة، وحاصل جواب ابن عباس عن الأول أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد ذلك، وعن الثاني أنهم يكتمون بألسنتهم فتنطق أيديهم وجوارحهم، وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة ثم خلق السماء فسواها في يومين ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين فتلك أربعة أيام للأرض، فهذا الذي جمع به ابن عباس بين قوله تعالى في هذه الآية وبين قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾[1] هو المعتمد.. وعن الرابع: بأن (كان) وإن كانت للماضي لكنها لا تستلزم الانقطاع؛ بل المراد أنه لم يزل كذلك»[2].

قال ابن كثير: «هذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3] ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختُصّ بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولًا؛ لأنها كالأساس، والأصل أن يُبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما

---

(١) النازعات: الآية (٣٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧١٦-٧١٧).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[١] الآية، فأما قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[٢] ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحي هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم -عليه السلام- بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[٤].

★ غريب الحديث:

التربة: يعني: الأرض، والتُّرْبُ والتراب والتربة واحد، لكنهم يطلقون التربة على التأنيث.

السبت: قال الحرالي: أصل السبت: القطع للعمل ونحوه[٥]. قال ابن القيم: «وأما يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومنه السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش، والنعال السبتية التي قُطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق»[٦].

المكروه: أي ما يُكره مما يهلك أو يؤلم كالسموم والخشاش والحيوانات المضرة.

---

(١) البقرة: الآية (٢٩).
(٢) النازعات: الآيات (٢٧-٣٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥٤).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٧)، مسلم (٤/ ٢١٤٩-٢١٥٠/ ٢٧٨٩) واللفظ له، والبخاري -معلقًا- في «التاريخ الكبير» (١/ ٤١٣-٤١٤) وقال: وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣/ ١١٠١٠).
(٥) فيض القدير (٣/ ٤٤٧).
(٦) بدائع الفوائد (١/ ٨٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «فيه رد زعم اليهود أن اللَّه ابتدأ في خلق العالم يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، واستراح السبت، قالوا: ونحن نستريح فيه كما استراح فيه الرب، وهذا من جملة غباوتهم وجهلهم؛ إذ التعب لا يتصور إلا على حادث، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]»[2].

قال القرطبي: «قوله: «والنور يوم الأربعاء» كذا الرواية الصحيحة المشهورة، وقد وقع في بعض نسخ مسلم: (النون) -بالنون-، يعني به الحوت، وكذا جاء في كتاب ثابت في الأم، وفي رواية أخرى: البحور مكان النور، قلت: وهذه الرواية ليست بشيء؛ لأن الأرض خلقت بعد الماء، وعلى الماء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[3] أي: قبل خلق السموات والأرض. إلا إن أراد بالبحور الأنهار التي خلق اللَّه تعالى في الأرض، فله وجه، والصحيح رواية «النور» ويعني به الأجسام النيرة كالشمس والقمر والكواكب، ويتضمن هذا أنه تعالى خلق السموات يوم الأربعاء لأن هذه الكواكب في السموات، ونورها: ضوءها الذي بين السماء والأرض، واللَّه تعالى أعلم. وتحقيق هذا أنه لم يذكر في هذا الحديث نصًا على خلق السموات، مع أنه ذكر فيه أيام الأسبوع كلها، وذكر ما خلق اللَّه تعالى فيها، فلو خلق السموات في يوم زائد على أيام الأسبوع، لكان خلق السموات والأرض في ثمانية أيام، وذلك خلاف المنصوص عليه في القرآن، ولا صائر إليه، وقد روي هذا الحديث في غير كتاب مسلم، بروايات مختلفة مضطربة، وفي بعضها: «**أنه خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، والجبال يوم الثلاثاء، والشجر والأنهار والعمران يوم الأربعاء، والسموات والشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة**». فهذه أخبار آحاد مضطربة فيما لا يقتضي عملًا، فلا يُعتمد على ما تضمنته من ترتيب المخلوقات في تلك الأيام، والذي يعتمد عليه في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ

---

(١) يس: الآية (٨٢).

(٢) فيض القدير (٣/ ٤٤٧).

(٣) هود: الآية (٧).

لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾[١] الآيات فلينظر فيها من أراد تحقيق ذلك»[٢].

قلت: ولهذا ذهب جمع من الأئمة إلى تضعيف هذا الحديث، واعتباره من كلام كعب الأحبار، لا من كلام رسول اللَّه ﷺ؛ قال الإمام البخاري: «وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه، بخلاف مسلم بن الحجاج، فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها، وكان الصواب فيها مع من نازعه، كما روى. . مسلم: «**خلق اللَّه التربة يوم السبت**»، ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين والبخاري وغيرهما، فبينوا أن هذا غلط، ليس هذا من كلام النبي ﷺ، والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن اللَّه تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة، وقد روى إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد»[٤].

وقال ابن القيم وهو يتحدث عن يوم السبت: «ولم يكن يومًا من أيام تخليق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد، وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة، على أن أيام تخليق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة، وأما حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه: «**خلق اللَّه التربة يوم السبت**». فقد ذكر البخاري في تاريخه أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب، وهو كما ذكر؛ لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده»[٥].

قال ابن كثير: «وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني، والبخاري، وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقي»[٦].

---

(١) فصلت: الآية (٩).
(٢) المفهم (٧/ ٣٤٣-٣٤٤).
(٣) التاريخ الكبير (١/ ٣١٣-٣١٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥٦-٢٥٧).
(٥) بدائع الفوائد (١/ ٨٥).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٩٩).

قال المعلمي: «وقد استنكر بعض أهل الحديث هذا الخبر، ويمكن تفصيل سبب الاستنكار بأوجه:

الأول: أنه لم يذكر خلق السماء، وجعل خلق الأرض في ستة أيام.

الثاني: أنه جعل الخلق في سبعة أيام والقرآن يبين أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام أربعة منها للأرض، ويومان للسماء.

الثالث: أنه مخالف للآثار القائلة أن أول الستة يوم الأحد، وهو الذي تدل عليه أسماء الأيام: الأحد الإثنين الثلاثاء الأربعاء - الخميس.

فلهذا حاولوا إعلاله فأعله ابن المديني بأن إبراهيم بن أبي يحيى قد رواه عن أيوب، قال ابن المديني: «وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا عن إبراهيم بن أبي يحيى. . يعني وإبراهيم مرمي بالكذب فلا يثبت الخبر عن أيوب ولا من فوقه.

ويرد على هذا أن إسماعيل بن أمية ثقة عندهم غير مدلس، فلهذا والله أعلم لم يرتض البخاري قول شيخه ابن المديني، وأعل الخبر بأمر آخر فإنه ذكر طرفه في ترجمة أيوب من التاريخ. . ثم قال: «وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح» ومؤدى صنيعه أنه يحدس أن أيوب أخطأ، وهذا الحدس مبني على ثلاثة أمور: الأول: استنكار الخبر لما مر. الثاني: أن أيوب ليس بالقوي وهو مقل لم يخرج له مسلم إلا هذا الحديث لما يعلم من الجمع بين رجال الصحيحين، وتكلم فيه الأزدي ولم ينقل توثيقه عن أحد من الأئمة إلا أن ابن حبان ذكره في ثقاته، وشرط ابن حبان في التوثيق فيه تسامح معروف. الثالث: الرواية التي أشار إليها بقوله: «وقال بعضهم»، وليته ذكر سندها ومتنها، فقد تكون ضعيفة في نفسها، وإنما قويت عنده للأمرين الآخرين.

ويدل على ضعفها أن المحفوظ عن كعب وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه ومن يأخذ عنهم أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول أهل الكتاب المذكور في كتبهم وعليه بنوا قولهم في السبت. . في «الدر المنثور» أخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال: بدأ الله بخلق السموات والأرض يوم الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وجعل كل يوم ألف سنة. . فهذا يدفع أن يكون ما في الحديث من قول كعب.

وأيوب لا بأس به، وصنيع ابن المديني يدل على قوته عنده، وقد أخرج له مسلم في صحيحه كما علمت، وإن لم يكن حده أن يحتج به في الصحيح، فمدار الشك على الاستنكار وقد يجاب عنه بما يأتي:

أما الوجه الأول: فيجاب عنه بأن الحديث وإن لم ينص على خلق السماء فقد أشار إليه بذكره في يوم الخامس النور وفي السادس الدواب وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية. والذي فيه أن خلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام كما في القرآن، والقرآن إذا ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، لم يذكر ما يدل أن من جملة ذلك خلق النور والدواب، وإذا ذكر خلق السماء في يومين لم يذكر ما يدل أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئًا، والمعقول أنها بعد تمام خلقها أخذت في التطور بما أودعه اللَّه تعالى فيها، واللَّه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن.

ويجاب عن الوجه الثاني بأنه ليس في هذا الحديث أنه خلق في اليوم السابع غير آدم، وليس في القرآن ما يدل أن خلق آدم كان في ستة أيام ولا في القرآن ولا السنة ولا المعقول أن خالقية اللَّه ﷻ وقفت بعد الأيام الستة بل هذا معلوم البطلان..

فتدبر الآيات والحديث على ضوء هذا البيان، يتضح لك إن شاء اللَّه أن دعوى مخالفة هذا الحديث لظاهر القرآن قد اندفعت ولله الحمد.

وأما الوجه الثالث: فالآثار القائلة أن ابتداء الخلق يوم الأحد ما كان منها مرفوعًا فهو أضعف من هذا الحديث بكثير، وأما غير المرفوع فعامته من قول عبد اللَّه بن سلام وكعب ووهب ومن يأخذ عن الإسرائيليات.

وتسمية الأيام كانت قبل الإسلام تقليدًا لأهل الكتاب، فجاء الإسلام وقد اشتهرت وانتشرت فلم ير ضرورة إلى تغييرها؛ لأن إقرار الأسماء التي قد عرفت واشتهرت وانتشرت لا يعد اعترافًا بمناسبتها لما أخذت منه أو بنيت عليه، إذ قد أصبحت لا تدل على ذلك، وإنما تدل على مسمياتها فحسب، ولأن القضية ليست مما يجب اعتقاده أو يتعلق به نفسه حكم شرعي، فلم تستحق أن يحتاط لها بتغيير ما اشتهر وانتشر من تسمية الأيام»[1].

---

(١) الأنوار الكاشفة (ص: ١٨٨-١٩١).

قال ابن جرير: «إن اللَّه تعالى أخبر عباده في غير موضع من محكم تنزيله أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾[1] وقال -تعالى ذكره-: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ ولا خلاف بين جميع أهل العلم أن اليومين اللذين ذكرهما اللَّه -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ داخلان في الأيام الستة اللاتي ذكرهن قبل ذلك، فمعلوم إذ كان اللَّه ﷻ إنما خلق السموات والأرضين، وما فيهن في ستة أيام، وكانت الأخبار مع ذلك متظاهرة عن رسول اللَّه ﷺ، بأن آخر ما خلق اللَّه من خلقه آدم، وأن خلقه إياه كان في يوم الجمعة، أن يوم الجمعة الذي فرغ فيه من خلق خلقه، داخل في الأيام الستة التي أخبر اللَّه -تعالى ذكره- أنه خلق خلقه فيهن؛ لأن ذلك لو لم يكن داخلًا في الأيام الستة، كان إنما خلق خلقه في سبعة أيام لا في ستة، وذلك خلاف ما جاء به التنزيل، فتبين إذا إذ كان الأمر كالذي وصفنا في ذلك أن أول الأيام التي ابتدأ اللَّه فيها خلق السموات والأرض وما فيهن من خلقه، يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة، وذلك ستة أيام كما قال ربنا ﷻ»[2].

قال الشيخ الألباني: «لا مطعن في إسناده البتة وليس هو بمخالف للقرآن بوجه من الوجوه، خلافا لما توهمه بعضهم فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها، وأن ذلك كان في سبعة أيام، ونص القرآن على أن خلق السموات والأرض كان في ستة أيام، والأرض في يومين لا يعارض ذلك، لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في هذا الحديث وأنه أعني الحديث تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على وجه الأرض حتى صارت صالحة للسكنى ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند اللَّه كألف سنة وبعضها مقداره خمسون

---

(١) السجدة: الآية (٤).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٣٥-٣٦).

ألف سنة، فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل والأيام السبعة من أيامنا هذه كما هو صريح الحديث، وحينئذ فلا تعارض بينه وبين القرآن»[١].

* * *

(١) التعليق على المشكاة (٣/ ١٥٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قضاهن: صنعهن وأحكمهن. قال أبو ذؤيب:

وعَلَيْهِمَا مسرودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ أو صَنَعَ السَّوَابِغَ تُبَّعُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين؛ أي: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة. ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتب مقررا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم»(١).

قال السعدي: «﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فَتَمَّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة اللّه ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة..

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هي النجوم يستنار بها ويهتدى، وتكون زينة وجمالا للسماء ظاهرًا، ﴿وَحِفْظًا﴾ لها باطنًا، بجعلها رجومًا للشياطين لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأرض وما فيها، والسماء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٦).

وما فيها: ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، الغائب والشاهد.

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره، ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أندادًا يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم، أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٢-٥٦٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند اللَّه، فإني أنذركم حلول نقمة اللَّه بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين، ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما»[1].

قال الرازي: «اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ واحتج عليه بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية؟ ولما تمم تلك الحجة قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ وبيان ذلك؛ لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذٍ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم، فلهذا السبب قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ بمعنى إن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التي ذكرناها، وأصروا على الجهل والتقليد ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ والإنذار هو: التخويف، قال المبرد: والصاعقة الثائرة المهلكة لأي شيء كان»[2].

قلت: هذا الكلام الذي قاله المفسر الرازي في قيام الحجة على المشركين، ووصف الأصنام بأنها أجسام خسيسة؛ في غاية الجودة والإفادة. ولا شك أن الذي يترك من بيده مقاليد السموات والأرض وبيده الحياة والممات، ويتجه إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادات؛ فلا شك في سخافته وذهاب عقله ومسخ فطرته؛ فإن الميت الذي أصبح جسمه رميمًا فماذا يغني عن المستغيث به؟! ومتى يجيب من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١١١).

دعاه؟! فلا حمق أكبر من ذلك. ومع وضوح هذه الأدلة التي أشبع المفسرون الكلام عليها؛ تجد كثيرًا من المسلمين يتجهون إلى الأموات والنصب والمغارات يستغيثون بها، ويطلبون منها الحاجات، والله المستعان.

قال ابن عاشور: «بعد أن قَرَعتهم الحجة التي لا تترك للشك مسربًا إلى النفوس بعدها في أن الله منفرد بالإلهية لأنه منفرد بإيجاد العوالم كلها. وكان ثبوت الوحدانية من شأنه أن يزيل الريبة في أن القرآن منزَّل من عند الله؛ لأنهم ما كفروا به إلا لأجل إعلانه بنفي الشريك عن الله تعالى، فلما استبان ذلك كان الشأن أن يفيئوا إلى تصديق الرسول والإيمانِ بالقرآن، وأن يقلعوا عن إعراضهم المحكي عنهم بقوله في أول السورة: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الخ، فلذلك جعل استمرارهم على الإعراض بعد تلك الحجج أمرًا مفروضًا كما يُفْرَض المُحال، فجيء في جانبه بحرف (إنْ) الذي الأصل فيه أن يقع في الموقع الذي لا جزم فيه بحصول الشرط.. فمعنى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ إن استمروا على إعراضهم بعد ما هديتهم بالدلائل البينة وكابروا فيها، فالفعل مستعمل في معنى الاستمرار كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[١].

والإنذار: التخويف، وهو هنا تخويف بتوقع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشيةَ أن يحلّ بهم ما حل بأولئك، بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سَنن واحد، وليس هو وعيدًا لأن قريشًا لم تصبهم صاعقة مثلُ صاعقة عاد وثمود، وإن كانوا قد ساوَوْهما في التكذيب والإعراض عن الرسل وفي التعللات التي تعللوا بها من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾[٢] وأمهل الله قريشًا حتى آمن كثير منهم واستأصل كفارهم بعذاب خاص»[٣].

* * *

(١) النساء: الآية (١٣٦).

(٢) فصلت: الآية (١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٢-٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾[1] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث اللَّه إليهم الرسل يأمرون بعبادة اللَّه وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل اللَّه بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا؛ بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أرسل اللَّه رسلا لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا»[2].

قال الرازي: «﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وفيه وجهان: الأول: المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى اللَّه تعالى عن الشيطان قوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[3] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة، ويقول الرجل: استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتي فيه.

الوجه الثاني: المعنى: أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم، فإن قيل: الرسل الذين جاؤوا من قبلهم ومن بعدهم، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤوهم؟ قلنا: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤوهم.

---

(١) الأحقاف: الآية (٢١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٧-١٥٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٧).

ثم قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني: أن الرسل الذي جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك.. ثم حكى اللّه تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل، وقالوا الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة؛ لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معناه: فإذًا أنتم بشر ولستم بملائكة، فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم، وهو المراد من قوله: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.. وقوله: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلا، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين من الأمم وهي من أوهى الشُّبَهِ، فإنه ليس من شرط الإرسال، أن يكون المرسل مَلَكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فَلْيَقْدَحُوا إن استطاعوا بصدقهم، بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا»[3].

* * *

(١) الشعراء: الآية (٢٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١١١-١١٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء، وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسوله»[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى: فأما عاد فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم. والاستكبار: المبالغة في الكبر؛ أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة، مثل: استجاب، والتعريف في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد، أي أرضهم المعهودة. وإنما ذُكر من مساويهم الاستكبار؛ لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم، وعن توقع عقاب اللّه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه؛ لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تُبلغ الإنسان مبلغ الخلوّ عن النقص، وليس للضعيف الناقص حق في الكبر، ولذلك كان الكبر من خصائص اللّه تعالى. وهم قد اغترُّوا بقوة أجسامهم، وعزة أمتهم، وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى

---

(١) الذاريات: الآية (٤٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٨).

قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم. فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثهم على الكفر وكان قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ دليلًا عليه خصّ بالذكر»[١].

وقال أيضًا: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ والمعنى: إنكار عدم علمهم بأن اللَّه أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربهم، وعن إنذاره إياهم إعراضَ من لا يكترث بعظمة اللَّه تعالى؛ لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابَه فَلأَقْبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم. وإجراءُ وصف ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ على اسم الجلالة لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن اللَّه أقوى منهم، فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيًا في الدلالة على أنه أشدّ منهم قوة، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه، فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم. وضمير ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ ضمير فصل، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محققًا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع، وعذرهم في جهله منتفيا.. وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يحتمل أن المراد بالآيات معجزات رسولهم هود، فلم يؤمنوا بها وأصروا على العناد، ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنه أنذرهم عذابًا يأتيهم من السماء، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾[٢] فذلك من تكذيبهم بأوائل الآيات.

ويحتمل أن المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم وتذكيرُهم بنعم اللَّه عليهم كقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾[٣]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) الأحقاف: الآية (٢٤). (٣) الأعراف: الآية (٦٩).

(٤) الشعراء: الآيات (١٣٢-١٣٤).

ودل فعل ﴿كَانُوا﴾ على أن التكذيب بالآيات متأصل فيهم. ودلت صيغة المضارع في قوله: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أن الجحد متكرر فيهم متجدد»[1].

قال الرازي: «وهذا الاستكبار فيه وجهان: الأول: إظهار النخوة والكبر، وعدم الالتفات إلى الغير. والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهيه»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١١٢-١١٣).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صرصرًا: أي: شديدة البرودة. من الصَّرِّ: وهو البرد. قال الحطيئة:

المطعمون إذا هبت بِصَرْصَرَةٍ والحَامِلُونَ إذا اسْتُودُوا على النّاسِ

وقيل: من الشديدة الصوت والهبوب. من صَرَّ البابُ: إذا صَوَّتَ.

نحسات: مشؤومات نكدات. والنحس: ضد السعد. قال الشاعر:

فَسِيرُوا بقلب العقربِ اليوْمَ إنه سواءٌ عليكم بالنحوسِ وبِالسَّعْدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[1]؛ أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صرصرا لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[3]؛ أي: ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) الحاقة: الآية (٦).
(٢) الحاقة: الآية (٧).
(٣) القمر: الآية (١٩).

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال»[1].

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- من إهلاكه عادًا بهذه الريح الصرصر، في تلك الأيام النحسات؛ أي: المشؤومات النكدات؛ لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم، جاء موضحًا في آيات من كتاب الله.

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[5] الآية.

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾[6] الآية»[7].

وقال رحمه الله: «ويزعم بعض أهل العلم، أنها من آخر شوال، وأن أولها يوم الأربعاء، وآخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك. وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقًا، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيرًا من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر، حتى إنهم لا يقدمون على السفر والتزوج ونحو ذلك فيه، ظانين أنه يوم نحس وشؤم، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه من عنده علم؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٥٨).
(٢) الحاقة: الآيات (٦-٨).
(٣) الذاريات: الآيتان (٤١-٤٢).
(٤) القمر: الآيتان (١٩-٢٠).
(٥) الأحقاف: الآيتان (٢٤-٢٥).
(٦) فصلت: الآية (١٣).
(٧) أضواء البيان (٧/ ١٢٢).

لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط، الذين أهلكهم اللَّه فيه، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمرًا عليهم استمرارًا لا انقطاع له.

أما غير عاد فليس مؤاخذًا بذنب عاد؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها من ظن استمرار نحس ذلك اليوم؛ لنبين أنها لا معول عليها». . ثم ذكر عدة أحاديث نقلا عن الدر المنثور ثم قال: «فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر باللَّه ولم يعصه؛ لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها، فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة، الذين أهلكهم اللَّه فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم. فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشؤه وسببه الكفر والمعاصي. أما من كان متقيًا لله مطيعًا له في يوم الأربعاء المذكور فلا نحس ولا شؤم فيه عليه. فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد، والبلاء والشقاء على الحقيقة، فليتحقق أن ذلك كله في معصية اللَّه وعدم امتثال أمره، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال ابن القيم: «لا ريب أن الأيام التي أوقع اللَّه سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياما نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين، فهي نحس على المكذبين، سعد المؤمنين، وهذا كيوم القيامة، فإنه عسير على الكافرين، يوم نحس لهم، يسير على المؤمنين، يوم سعد لهم، قال مجاهد: أيام نحسات مشائيم، وقال الضحاك: معناه شديد أي: شديد البرد حتى كان البرد عذابا لهم، قال أبو علي: وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد:

كأن سلافة عرضت بنحس ... يحيل شفيفها الماء الزلالا

وقال ابن عباس: نحسات متتابعات، وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ وكان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم؛ أي: لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها؛ بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين

(١) أضواء البيان (٧/ ١٢٣-١٢٥).

للرسل، و﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة للنحس لا لليوم، ومن ظن أنه صفة لليوم، وأنه كان يوم أربعاء آخر الشهر، وأن هذا اليوم نحس أبدا فقد غلط وأخطأ فهم القرآن، فإن اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه، وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم، وإن كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه، كما يقع ذلك في غيره من الأيام، فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل، واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة، ونحس لطائفة، كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين، ويوم نحس على الكافرين، فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك، ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحسا على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة فهذا هو المحال»[1].

قال ابن عاشور: «وصف عقابهم بأن اللَّه أرسل عليهم ريحًا فأشارت الفاء إلى أن عقابهم كان مسببًا على حالة كفرهم بصفتها، فإن باعث كفرهم كان اغترارهم بقوتهم، فأهلكهم اللَّه بما لا يترقب الناس الهلاك به، فإن الناس يقولون للشيء الذي لا يُؤبه به: هو ريح؛ ليريهم أن اللَّه شديد القوة، وأنه يضع القوة في الشيء الهيّن مثل الريح؛ ليكون عذابًا وخزيًا، أي تحقيرًا، كما قال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وأي خزي أشد من أن تتراماهم الريح في الجوّ كالريش، وأن تلقِيَهم هلكَى على التراب عن بكرة أبيهم، فيشاهدهم المارّون بديارهم جثثًا صرعى قد تقلصت جلودهم، وبليت أجسامهم كأنهم أعجاز نخل خاوية»[2].

وقال: «ووُصفت تلك الأيام بأنها ﴿نَّحِسَاتٍ﴾؛ لأنها لم يحدث فيها إلا السوء لهم، من إصابة آلام الهَشْم المحققِ إفضاؤه إلى الموت، ومشاهدة الأموات من ذويهم، وموت أنعامهم، واقتلاع نخيلهم.

وقد اخترع أهل القصص تسمية أيام ثمانية نصفُها آخر شهر (شُباط) ونصفها شهر (آذار) تكثر فيها الرياح غالبًا دَعَوها: أيام الحسوم ثم ركبوا على ذلك أنها

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٤-١٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٨-٢٥٩).

الموصوفة بحسوم في قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فزعموا أنها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عادًا، ثم ركَّبوا على ذلك أنها أيام نحس من كل عام، وكَذَبوا على بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك، وذلك ضغْث على إبالة، وتفنن في أوهام الضلالة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء. والدليل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾؛ لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروه عليه، وتعوضوه منه. وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾[1] فقوله في آية التوبة هذه: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ موافق في المعنى لقوله هنا: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2] الآية. فلفظة استحب في القرآن كثيرًا ما تتعدى بعلى؛ لأنها في معنى اختار وآثر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام، الذي هو البيان والدلالة والإرشاد، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع على الهدى الخاص الذي هو التوفيق والاصطفاء، كقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[3] فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر ونهيناهم

(١) التوبة: الآية (٢٣).

(٢) إبراهيم: الآية (٣).

(٣) الأنعام: الآية (٩٠).

عن سلوكها على لسان نبينا صالح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم.

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾[١] بدليل قوله بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢]؛ لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[٣]. وقوله: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾[٤]. وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني: هو أنه تعالى أثبت الهدى لنبينا ﷺ في آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٥] ونفاه عنه في آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾[٦].

فيعلم مما ذكرنا: أن الهدى المثبت له ﷺ، هو الهدى العام الذي هو البيان والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك ﷺ فبين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

والهدى المنفي عنه في آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق؛ لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾[٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وكذلك قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[٩] الآية، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية. وخصوص المتقين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾[١٠]؛ لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام، والهدى الخاص بالمتقين، هو الهدى الخاص كما لا يخفى..

---

(١) الإنسان: الآية (٣).
(٢) الإنسان: الآية (٣).
(٣) محمد: الآية (١٧).
(٤) الكهف: الآية (١٧).
(٥) الشورى: الآية (٥٢).
(٦) القصص: الآية (٥٦).
(٧) المائدة: الآية (٤١).
(٨) النحل: الآية (٣٧).
(٩) البقرة: الآية (١٨٥).
(١٠) البقرة: الآية (٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الآية. الفاء في قوله: فأخذتهم، سببية؛ أي: فاستحبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك أخذتهم صاعقة العذاب الهون. واعلم أن اللَّه -جل وعلا- عبر عن الهلاك الذي أهلك به ثمود بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1]. وعبر عنه أيضًا بالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]. وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في سورة هود في إهلاكه ثمود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾[3] وقوله تعالى في الحجر: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾[4] وقوله تعالى في القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾[5]. وقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[6] يعني به ثمودا المذكورين في قوله قبله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾[7] الآية.

وعبر عنه بالرجفة، في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾[8] الآية. وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾[9] وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾[10]. وعبر عنه بالدمدمة في الشمس في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾[11]. وعبر عنه بالعذاب في سورة الشعراء، في قوله تعالى:

---

(١) فصلت: الآية (١٣).
(٢) الذاريات: الآيتان (٤٣-٤٤).
(٣) هود: الآيتان (٦٧-٦٨).
(٤) الحجر: الآيتان (٨٢-٨٣).
(٥) القمر: الآية (٣١).
(٦) العنكبوت: الآية (٤٠).
(٧) العنكبوت: الآية (٣٨).
(٨) الأعراف: الآيتان (٧٧-٧٨).
(٩) النمل: الآية (٥١).
(١٠) الحاقة: الآية (٥).
(١١) الشمس: الآية (١٤).

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ۝١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾[1] الآية.

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن اللّه أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك.

والصاعقة تطلق أيضًا على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معًا، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميرًا واضح. وقيل لها طاغية؛ لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك. والطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾[2] الآية. أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة. واعلم أن التحقيق أن المراد بالطاغية في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾[3] أنها الصيحة التي أهلكهم اللّه بها، كما يوضحه قوله بعده: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾[4].

خلافًا لمن زعم أن الطاغية مصدر كالعاقبة والعافية، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم؛ أي: بكفرهم وتكذيبهم نبيهم، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١﴾[5]. وخلافًا لمن زعم أن الطاغية هي أشقاهم الذي انبعث فعقر الناقة، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة، وكل هذا خلاف التحقيق.

والصواب إن شاء اللّه هو ما ذكرنا، والسياق يدل عليه، واختاره غير واحد. وأما قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾[6] فإنه لا يخالف ما ذكرنا؛ لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم، أي أطلق عليهم العذاب، وألبسهم إياه بسبب ذنبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة، إذا ألبسها الشحم.

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد»[7].

---

(١) الشعراء: الآيتان (١٥٧-١٥٨).
(٢) الحاقة: الآية (١١).
(٣) الحاقة: الآية (٥).
(٤) الحاقة: الآية (٦).
(٥) الشمس: الآية (١١).
(٦) الشمس: الآية (١٤).
(٧) الأضواء (٧/ ١٢٥-١٢٩).

قال السعدي: «وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة آية عظيمة لها شرب، ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا، ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان؛ لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى. ولكنهم -من ظلمهم وشرهم- استحبوا العمى -الذي هو الكفر والضلال- على الهدى -الذي هو العلم والإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لا ظلمًا من الله لهم»[1].

قال ابن القيم نقلًا عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى: «أما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال، فإذا كان عذاب هؤلاء -وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم- فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذابا، ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكان يتقون»[2].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أهلك ثمود بالصاعقة، ونجى من ذلك الإهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبينًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[1] الآية، وقوله تعالى في النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ إلى قوله تعالى في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾[2] أي: وهم صالح ومن آمن معه»[3].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقول: ونجينا الذين آمنوا من العذاب الذي أخذهم بكفرهم بالله، الذين وحدوا الله، وصدقوا رسله. ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يقول: وكانوا يخافون الله أن يحل بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا ما حل بالذين هلكوا منهم، فآمنوا اتقاء الله وخوف وعيده، وصدقوا رسله، وخلعوا الآلهة والأنداد»[4].

* * *

(١) هود: الآيتان (٦٦-٦٧).

(٢) النمل: الآيات (٤٥-٥٣).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٣٠-١٣١).

(٤) جامع البيان (٢٤/ ١٠٥-١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾

★ غريب الآية:

يوزعون: يدفعون ويساقون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما دلت عليه هذه الآية، من أن لله أعداء، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار. جاء مذكورًا في آيات أخر، فبين في بعضها أن له أعداء، وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين، وأن جزاءهم النار كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[٥] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يرد أولهم إلى آخرهم، ويلحق آخرهم بأولهم، حتى يجتمعوا جميعًا، ثم يدفعون في النار، وهو من قول العرب: وزعت الجيش، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع. وأصل الوزع الكف، تقول العرب وزعه يزعه وزعًا، فهو وازع له، إذا كفه عن الأمر، ومنه قول نابغة ذبيان:

على حينَ عاتَبْتُ المشيبَ على الصِّبا ... فقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

وقول الآخر:

---

(١) البقرة: الآية (٩٨).
(٢) الأنفال: الآية (٦٠).
(٣) الممتحنة: الآية (١).
(٤) طه: الآية (٣٩).
(٥) فصلت: الآية (٢٨).

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى　　　　من الناس إلا وافر العقل كامله

وبما ذكرنا تعلم أن أصل معنى يوزعون. أي يكف أولهم عن التقدم، وآخرهم عن التأخر، حتى يجتمعوا جميعًا. وذلك يدل على أنهم يساقون سوقًا عنيفًا، يجمع به أولهم مع آخرهم. وقد بين تعالى أنهم يساقون إلى النار في حال كونهم عطاشًا في قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾[1]، ولعل الوزع المذكور في الآية يكون في الزمرة الواحدة من زمر أهل النار؛ لأنهم يساقون إلى النار زمرًا زمرًا كما قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[2] الآية»[3].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون؛ أي: يجمعون. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون»[4].

* * *

---

(١) مريم: الآية (٨٦).

(٢) الزمر: الآية (٧١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٣١-١٣٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ عموم بعد خصوص. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: يشهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة؛ لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها، أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوها، ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ ونحن ندافع عنكن؟ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي شيء عن مشيئته.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضًا صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن»[1].

قال ابن عاشور: «وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم: شهادة تكذيب وافتضاح لأن كون ذلك شهادة يقتضي أنهم لما رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعًا في تخفيف العذاب، وإلا فقد علم الله ما كانوا يصنعون، وشهدت به الحفظة، وقرئ عليهم كتابُهم، وما أُحضروا للنار إلا وقد تحققت إدانتهم، فما

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيرًا وتنديمًا على سوء اعتقادهم في سعة علم اللَّه.

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح لأن للسمع اختصاصًا بتلقي دعوة النبي ﷺ وتلقي آيات القرآن، فسمعهم يشهد عليهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك كما حكى اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾[1]، ولأن للأبصار اختصاصًا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد اللَّه تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها، فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد، دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر. ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح، وبهذا يظهر وجه الاقتصار على شهادة السمع والأبصار والجلود هنا بخلاف آية سورة النور ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]؛ لأن آية النور تصف الذين يرمون المحصنات وهم الذين اختلقوا تهمة الإفك ومشَوا في المجامع يُشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكًا.

وإنما قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ دون أن يقولوه لسمعهم وأبصارهم؛ لأن الجلود مواجهة لهم يتوجهون إليها بالملامة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في شهادة الجوارح على أصحابها يوم القيامة

* عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول اللَّه ﷺ فضحك فقال: **هل تدرون مم أضحك؟** قال: قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: **من مخاطبة العبد ربه. يقول: يا رب! ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي**

---

(١) فصلت: الآية (٥).

(٢) النور: الآية (٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٦-٢٦٧).

إلا شاهدًا مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا، فعنكنّ كنت أناضل»[1].

★ غريب الحديث:

فيقال لأركانه: أي: لجوارحه.

كنت أناضل: أي: أدافع وأجادل.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «"فيختم على فيه" أي: يمنع من الكلام المكتسب له، وينطق لسانه وسائر أركانه بكلام ضروري لا كسب له فيه، ولا قدرة على منعه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، فإذا شهدت عليه أركانه بعلمه، خُلّي بينه وبين الكلام المقدور له، فيلوم جوارحه الشاهدة عليه بقوله: ويلكنّ! فعنكن كنت أناضل؛ أي: أدافع وأحتج»[3].

وقال أيضًا: «قوله: "ألم تجرني من الظلم؟" أي: ليبالغ في عذر نفسه الذي يظن أنه ينجيه، يقال: أعذر الرجل في الأمر؛ أي: بالغ فيه»[4].

وقد تقدمت فوائد الحديث في سورة النور الآية (٢٤)، ويس الآية (٦٥)، وانظر سورة النساء الآية (٤٢).

* عن جابر قال: «لما رجعت إلى رسول اللّه ﷺ مهاجرة البحر، قال: **ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية منهم: بلى يا رسول الله! بينا نحن جلوس، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء. فمرت بفتى منهم. فجعل إحدى يديه على كتفيها، ثم دفعها، فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر! إذا**

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٢٨٠-٢٢٨١/ ٢٩٦٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٨/ ١١٦٥٣).
(٢) النور: الآية (٢٤).
(٣) المفهم (٧/ ١٩٨).
(٤) المفهم (٧/ ١٩٩).

وضع اللَّه الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا.

قال: يقول رسول اللَّه ﷺ: **صدقت، صدقت. كيف يقدس اللَّه أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير: «ذكر أن هذه الجوارح تشهد على أهلها عند استشهاد اللَّه إياها عليهم إذا هم أنكروا الأفعال التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخط اللَّه، وبذلك جاء الخبر عن رسول اللَّه ﷺ»[٢].

* * *

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٢٩/ ٤٠١٠) واللفظ له، وأبو يعلى (٤/ ٧-٨/ ٢٠٠٣) وصححه ابن حبان (١١/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٥٠٥٨) وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده حسن، وسعيد بن سويد مختلف فيه». قال عنه الذهبي في العلو (ص: ٨٥) إسناده صالح»، وانظر «مختصر العلو» للشيخ الألباني (١٠٦-١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معنى ذلك: وما كنتم تَستَخْفُون، فتتركوا ركوب محارم الله في الدنيا حذرا أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم.. فإن قال قائل: وكيف يستخفي الإنسان عن نفسه مما يأتي؟ قيل: قد بيَّنا أن معنى ذلك إنما هو الأماني، وفي تركه إتيانه إخفاؤه عن نفسه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولكن حسبتم حين ركبتم في الدنيا من معاصي الله أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون من أعمالكم الخبيثة، فلذلك لم تستتروا أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم، فتتركوا ركوب ما حرّم الله عليكم»[1].

قال ابن كثير: «أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم»[2].

قال صديق حسن خان: «هذا تقريع لهم وتوبيخ من جهة الله سبحانه أو من كلام الجلود؛ أي: ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحجب، حذرا من شهادة الجوارح عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا وهو قول أكثر العلماء. ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية، وقيل: معنى الاستتار الاتقاء أي: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٠٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٦١).

الآخرة، فتتركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة، ومعنى أن تشهد لأجل أن تشهد، ومخافة أن تشهد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات السمع لله تعالى

* عن ابن مسعود: «﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ الآية: كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف، أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم لبعض: أترون أن اللَّه يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ الآية»[٢].

★ غريب الحديث:

ختن: الخَتَن: الصهر، زوج فتاة القوم، ومن كان من قبله من رجل أو امرأة، فهم كلهم أختان لأهل المرأة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «وفي هذا الحديث إثبات السمع للباري سبحانه، فإن ابن مسعود أخبر النبي ﷺ بما سمع، فلم ينكر عليهم أن الباري لا يسمع، وذلك لما كان من الحجة في قول الواحد إن كان يسمع إذا جهرنا أنه يسمع إذا أخفينا، ونزلت الآية التي تقتضي أن الجلود من الأبدان والآذان والأعين تشهد عليه بما يعلمها اللَّه له، فكيف يعلم ما لم يُعلم، وقد ورد ذكر السمع في الحديث من طرق صحيحة»[٣].

قال ابن بطال: «غرضه في هذا الباب إثبات السمع لله تعالى والعلم بنيات الكلام له في هذه الآية ومن سائر الآيات في الأبواب المتقدمة، وإذا ثبت أنه سميع فواجب كونه سامعا بسمع، كما أنه لما ثبت كونه عالمًا وجب كونه عالمًا بعلم،

---

(١) فتح البيان (١٢/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١-٤٢٦-٤٤٢)، والبخاري (٨/ ٧٢١-٧٢٢/ ٤٨١٦-٤٨١٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٤١/ ٢٧٧٥)، والترمذي (٥/ ٣٥٠-٣٥١/ ٣٢٤٨و٣٢٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥١/ ١١٤٦٨).

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٢٧-١٢٨).

خلافًا لمن أنكر صفات اللَّه من المعتزلة، وقالوا: معنى وصفه بأنه سامع للمسموعات: بمعنى وصفه بأنه عالم بالمعلومات، ولا سمع له، ولا هو سامع حقيقة، وهذه شناعة ورد لظواهر كتاب اللَّه وسنن رسوله، وموجب كون المخلوق أكمل أوصافًا من الخالق؛ لأن السامع منا يسمع الشيء ويعلمه حقيقة، وكذلك البصير يرى الشيء ويعلمه حقيقة، فلو كان الباري سامعًا لما يسمعه، ويعلمه بمعنى أنه عالم فقط، لكنا أكمل وصفًا منه تعالى من حيث أدركنا الشيء من جهة السمع والعلم، وأدركه هو من جهة العلم فقط، ومن أدرك الشيء من وجهين أولى بصفة الكمال من مدركه من وجه واحد، وهذا يوجب عليهم أن يكون خالقهم بصفة الأصم الذي يعلم الشيء ولا يسمعه، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا»[١].

قال ابن العربي: «وأنكرت القدرية والمعتزلة إثبات السمع والبصر للباري وردت ذلك إلى العلم لاعتقادها أن الرؤية باتصال الأشعة والسمع باصتكاك الصوت وبدليل العقل لا تختص الرؤية بالألوان، ولا السمع بالأصوات إلا عادة، وكل موجود يجوز أن يسمع ويرى، وبنته على أصولها الفاسدة لتبني على ذلك نفي صفات الباري ورؤيته سبحانه عن قولهم»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «**لئن كان يسمع بعضه لقد سمع كله**» أي: لأن نسبة جميع المسموعات إليه واحدة فالتخصيص تحكم، وهذا يشعر بأن قائل ذلك كان أفطن أصحابه، وأخلق به أن يكون الأخنس بن شريق؛ لأنه أسلم بعد ذلك، وكذا صفوان بن أمية»[٣].

قال ابن بطال: «وفي حديث الثقفي والقرشيين من الفقه: إثبات القياس الصحيح، وإبطال القياس الفاسد، ألا ترى أن الذي قال: «**يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا**» قد أخطأ في قياسه؛ لأنه شبّه اللَّه تعالى بخلقه الذين يسمعون الجهر ولا يسمعون السر، والذي قال: إن كان يسمع إن جهرنا، فإنه يسمع إن أخفينا، أصاب في قياسه حين لم يشبه اللَّه بالمخلوقين، ونزهه عن مماثلتهم»[٤].

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٢٣).

(٢) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٢٨-١٢٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٢٣).

(٤) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٢٣-٥٢٤).

* عن حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: «**إني حلفت هكذا - ونشر أصابع يديه- حتى تخبرني ما الذي بعثك اللَّه -تبارك وتعالى- به. قال: بعثني اللَّه -تبارك وتعالى- بالإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، أخوان نصيران لا يقبل اللَّه جل وعز من أحد توبة أشرك بعد إسلامه. قال: قلت: يا رسول الله! ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال: تطعمها إذا أكلت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت. ثم قال: ههنا تحشرون، ههنا تحشرون ههنا تحشرون -ثلاثًا- ركبانًا ومشاة وعلى وجوهكم، توفون يوم القيامة سبعين أمة، أنتم آخر الأمم، وأكرمها على اللَّه -تبارك وتعالى-، تأتون يوم القيامة وعلى أفواهكم الفدام، أول ما يعرب عن أحدكم فخذه. قال ابن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام فقال: إلى ههنا تحشرون**»(١).

★ **غريب الحديث:**

الفدام: ككتاب وسحاب، هو ما يربط به الفم؛ أي: يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم.

تقبح: إما بتقبيح الصورة بضرب الوجه، أو لا تنسب شيئًا من أفعالها وأقوالها إلى القبح، أو لا تقل: قبحك اللَّه أو قبح وجهك من غير حق.

★ **فوائد الحديث:**

في قوله: «**أول ما يعرب عن أحدكم فخذه**» دليل على أن اللَّه سبحانه وتعالى ينطق الجوارح يوم القيامة، وتشهد على صاحبها، وأن اللَّه سبحانه يختم على الأفواه، وهذا محمول على الحقيقة لإمكانه وعدم استحالته، خلافًا لمن زعم أن المراد بذلك ظهور الأمر فلا يسع الإنسان الإنكار.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﷺ: «**فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه**» يحتمل

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٤٦-٤٤٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥١/ ١١٤٦٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٣٧٦-٣٧٧/ ١٦٠) والحاكم (٤/ ٦٠٠) وصححه ووافقه الذهبي.

وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[1] لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش، ويخلو قلبه عندها من ذكر اللَّه تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفًا مشفقًا، فيجزيه اللَّه بمجاهرته، والإشاعة بفحشه على رؤوس الأشهاد. والوجه الآخر: أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ولا يعرف بما ينطق به، بل يجحد فيختم اللَّه على فيه عند ذلك، وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا، فتشهد عليه سيئاته، وهذا أظهر الوجهين، يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم؛ أي: لفروجهم -في قول زيد بن أسلم-: لم شهدتم علينا؟ فتمردوا في الجحود، فاستحقوا من اللَّه الفضح والإخزاء، نعوذ باللَّه منهما»[2].

* * *

(١) الجاثية: الآية (٢٩).

(٢) التذكرة (ص: ٢٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أرداكم: أهلككم من الردى، وهو الهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الكلام: هذا الظنّ الذي ظننتم بربكم من أنه لا يعلم كثيرًا مما تعملون هو الذي أهلككم؛ لأنكم من أجل هذا الظنّ اجترأتم على محارم اللَّه فقدمتم عليها، وركبتم ما نهاكم اللَّه عنه، فأهلككم ذلك وأرداكم. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يقول: فأصبحتم اليوم من الهالكين، قد غبنتم ببيعكم منازلكم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار»[١].

قال ابن عاشور: «والمعنى: أنه نُعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسُهم الغائبَ على الشاهد، تلك الأصولُ التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن اللَّه، ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا، وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

واعلم أن أسباب الضلال في العقائد كلها إنما تأتي على الناس من فساد التأمل، وسرعة الإيقان، وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة، وكل ذلك يفضي إلى الوهَم المعبر عنه بالظن السيئ، أو الباطل. وقد ذكر اللَّه مثله في المنافقين، وأن ظنهم هو ظن أهل الجاهلية فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[٢]، فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام، فيبُوءُوا ببعض ما

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٠).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٤).

نُعي على عبدة الأصنام»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حسن الظن بالله تعالى عند الاحتضار

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الجوزي: «اعلم أن الخوف كالسوط يسوق النفس لتسعى في العمل، فإذا نزل الموت كان كغلال البعير فيكون الرجاء أولى؛ لأن المسوق قد كلَّ فلا فائدة في ضربه بسوط الخوف»(٣).

قال القاضي عياض: «هذا تحذير من القنوط المهلك وحض على الرجاء عند الخاتمة؛ لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ، فيخشى غلبة اليأس والقنوط فيهلك، وعبادة الله إنما هي من أصلين: الخوف والرجاء، فيستحب غلبة الخوف ما دام الإنسان في خيرية العمل، فإذا دنا الأجل وذهب المهل، وانقطع العمل، استحب حينئذ غلبة الرجاء؛ ليلقى الله تعالى على حالة هي أحب الأحوال إليه جل اسمه؛ إذ هو الرحمن الرحيم، ويحب الرجاء وأثنى على نبيه - عليه السلام - بذلك»(٤).

قال الطيبي: «قال الأشرف: قيل: الخوف والرجاء كالجناحين للسائرين إلى الله تعالى، ولا يمكن السير بأحد الجناحين، بل بهما، لكن يغلب أحدهما الآخر، فينبغي أن يغلب الخوف على الرجاء في الصحة؛ ليتدرج به فيها إلى تكثير الأعمال الصالحة، فإذا جاء الموت وانقطع العمل فينبغي أن يغلب الرجاء، وحسن الظن بالله؛ لأن الوفادة حينئذ إلى ملك كريم، ورب رؤوف رحيم»(٥).

قال النووي: «إن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٥/ ٢٨٧٧) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٣١١٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥/ ٤١٦٧).

(٣) كشف المشكل (٣/ ١٠٣).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ٤٠٩).

(٥) شرح الطيبي (٤/ ١٣٦٥).

فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى اللَّه تعالى والإذعان له»[١].

قال محمود محمد خطاب السبكي: «فالنفي هنا بمعنى النهي، وهو وإن كان في الظاهر نهي عن الموت لكنه في الحقيقة نهي عن سوء الظن باللَّه في الحالة التي ينقطع عندها الرجاء»[٢].

وقال النووي: «ومعنى: يحسن الظن باللَّه تعالى: أن يظن أن اللَّه تعالى يرحمه، ويرجو ذلك، ويتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم اللَّه سبحانه وتعالى، وعفوه ورحمته وما وعد به أهل التوحيد، وما ينشره من الرحمة لهم يوم القيامة، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[٣]، هذا هو الصواب في معنى الحديث، وهو الذي قاله جمهور العلماء»[٤].

قال القرطبي: «أي: استصحبوا الأعمال الصالحة والآداب الحسنة التي يرتجي العامل لها قبولها، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها، فإن رحمة اللَّه قريب من المحسنين، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين، وقد قلنا: إن حسن الظن بغير عمل غِرَّة، كما قال ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»[٥]، وهذا إنما يكون في حالة الصحة والقوة على العمل. وأما في حال حضور الموت، فليس ذلك الوقت وقتًا يقدر فيه على استئناف غير الفكر في سعة رحمة اللَّه تعالى، وعظيم فضله، وأنه لا يتعاظمه ذنب يغفره، وأنه الكريم الحليم، الغفور الشكور، المنعم الرحيم. ويُذكر بآيات الرخص وأحاديثها، لعل ذلك يقع بقلبه، فيحب اللَّه تعالى، فيُختم عليه بذلك، فيلقى اللَّه تعالى وهو محب لله تعالى، فيحشر في زمرة المحبين بعد أن كان في زمرة الخطائين»[٦].

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٧٢).
(٢) المنهل (٨/ ٢٤٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥)، والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦/ ٣٨٢٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) المجموع (٥/ ٩٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٤/ ٥٥٠/ ٢٤٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٦٠). وضعفه الشيخ الألباني، انظر «السلسلة الضعيفة» (٥٣١٩). من حديث شداد بن أوس ﷺ.
(٦) المفهم (٧/ ١٤٢-١٤٣).

وللخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ قول آخر في معنى الحديث قال فيه: «قلت: إنما يحسن باللَّه الظن من حسن عمله، فكأنه قال: أحسنوا أعمالكم بحسن ظنكم باللَّه، فإن من ساء عمله ساء ظنه، وقد يكون أيضًا حسن الظن باللَّه من ناحية الرجاء وتأميل العفو واللَّه جواد كريم، لا واخذنا اللَّه بسوء أفعالنا، ولا وكلنا إلى حسن أعمالنا برحمته»(١).

ومثل هذا القول قاله الطيبي، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «نهى عن أن يموتوا على غير حالة حسن الظن، وذلك ليس بمقدورهم، بل المراد الأمر بتحسين الأعمال؛ أي: أحسنوا أعمالكم الآن حتى يحسن باللَّه ظنكم عند الموت، فمن ساء عمله قبل الموت يسوء ظنه عند الموت»(٢).

وتعقب النووي هذا القول فقال: «وشذ الخطابي، وذكر معه تأويلًا آخر أن معناه: أحسنوا أعمالكم حتى يحسن ظنكم بربكم فمن حسن عمله حسن ظنه، ومن ساء عمله ساء ظنه، وهذا تأويل باطل نبهت عليه لئلا يغتر به»(٣).

قال محمود محمد خطاب السبكي: «وفي تخطئة الخطابي نظر، فإن الحديث لا يأبى ما قاله، فإن كثرة الأعمال الصالحة تزيد في إيمان الشخص وتنير قلبه وتضعف كيد الشيطان وعندئذ يحسن الظن بربه عند الموت، فيحب لقاء الله»(٤).

قال الشيخ ابن عثيمين: «متى يكون العبد محسنا الظن باللَّه عَزَّ وَجَلَّ؟ يكون كذلك إذا فعل ما يوجب فضل اللَّه ورحمته، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن اللَّه تعالى يقبله، وأما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على اللَّه، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على اللَّه الأماني فهو عاجز.

حسن الظن باللَّه بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن باللَّه عَزَّ وَجَلَّ، فمثلا أحسن الظن باللَّه بأن اللَّه يقبلها منك إذا صمت، فكذلك إذا تصدقت، فكذلك إذا عملت عملا صالحا أحسن الظن بأن اللَّه تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن باللَّه مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مال يرجعون إليه»(٥).

---

(١) معالم السنن (١/ ٢٦٢).
(٢) شرح الطيبي (٤/ ١٣٦٥).
(٣) المجموع (٥/ ٩٧).
(٤) المنهل (٨/ ٢٤٩).
(٥) شرح رياض الصالحين (٥/ ٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾

★ **غريب الآية:**

مثوى: مقام.

يستعتبوا: يبدوا أعذارا ويسألوا الرضا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإن يصبر هؤلاء الذين يحشرون إلى النار على النار، فالنار مسكن لهم ومنزل. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يقول: وإن يسألوا العُتبى، وهي الرجعة لهم إلى الذي يحبون بتخفيف العذاب عنهم. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ يقول: فليسوا بالقوم الذين يرجع بهم إلى الجنة، فيخفف عنهم ما هم فيه من العذاب، وذلك كقوله -جل ثناؤه- مخبرا عنهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.. إلى قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1] وكقولهم لخزنة جهنم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.. إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[4].

---

(١) المؤمنون: الآيات (١٠٦-١٠٨).

(٢) غافر: الآيتان (٤٩-٥٠).

(٣) جامع البيان (٢٤/ ١١٠).

(٤) المؤمنون: الآية (١٠٨).

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، فيرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل. ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم كذب منهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «وأما استعتبت فللطلب؛ أي: طلب الإعتاب، فهو لطلب مصدر الرباعي الذي هو أعتب؛ أي: أزال عتبه، لا لطلب الثلاثي الذي هو العتب، فقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: إن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم، ويقال عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده؛ أي: طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده أي: أزال عتبه بطاعته، ويقال: استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده أي: فأزال عتب نفسه عنه، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم.

وقوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[3] أي: لا يطلب منهم إعتابنا، وإعتابه تعالى إزالة عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله. وكذلك قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾[4] وقول النبي في دعاء الطائف: «لك العتبى»[5] هو اسم من الإعتاب لا من العتب؛ أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك علي أن أعتبك وأرضيك بطاعتك، فأفعل ما ترضى به عني، وما يزول به عتبك علي، فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده، فههنا أربعة أمور:

الأول: العتب، وهو من الله تعالى، فإن العبد لا يعتب على ربه، فإنه المحسن العادل، فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم، ومن ظن من المفسرين

---

(١) الأنعام: الآية (٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٦٩-٥٧٠).

(٣) النحل: الآية (٨٤). (٤) الروم: الآية (٥٧).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (قطعة من الجزء ١٣/ ٧٣/ ١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات»، وانظر الضعيفة رقم (٢٩٣٣) من حديث عبد الله بن جعفر.

خلاف ذلك غلط أقبح غلط .

الثاني: الإعتاب، وهو من اللَّه ومن العبد باعتبارين، فإعتاب اللَّه عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب اللَّه عليه، والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب اللَّه تعالى عليه .

الثالث: الاستعتاب، وهو من اللَّه أيضًا ومن العبد بالاعتبارين، فاللَّه تعالى يستعتب عباده؛ أي: يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: (إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه)، والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه .

الرابع: العتبى، وهي اسم الإعتاب، فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبيط كثير من المفسرين لهذه المواضع. ومنه قول النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإما محسن فلعله أن يزداد، وإما مسيء فلعله أن يستعتب**»[1] أي: يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فيزول عتبه عليه. والاستعتاب نظير الاسترضاء، وهو طلب الرضى، وفي الأثر: (إن العبد ليسترضى ربه فيرضى عنه، وإن اللَّه ليسترضى فيرضى) لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب، فإنه طلب رضوان اللَّه تعالى، والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه، وهما متلازمان»[2] .

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩)، والبخاري (١٠/ ١٥٧/ ٥٦٧٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥/ ٢٦٨٢)، والنسائي (٤/ ٣٠٠/ ١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «للعلماء التفسير في تفسير قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ عبارات يرجع بعضها في المعنى إلى بعض. كقول بعضهم: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي: جئناهم بهم: وأتحناهم لهم. وكقول بعضهم: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: هيأنا. وقول بعضهم: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: سلطنا. وقول بعضهم: أي: بعثنا ووكلنا. وقول بعضهم: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: سببنا. وقول بعضهم: قدرنا، ونحو ذلك من العبارات، فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شيء واحد، وهو أن اللَّه -تبارك وتعالى- هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى، ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم. والقرناء: جمع قرين، وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق.

وقوله: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من أمر الدنيا حتى آثروه على الأخرة: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين، يضلونهم عن الهدى، بينه في مواضع أخر من كتابه. وزاد في بعضها سبب تقييضهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم، يظنون أنهم مهتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم، وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾[1]. فترتيبه قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾، على قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ

---

(١) الزخرف: الآيات (٣٦-٣٨).

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ، ترتيب الجزاء على الشرط، يدل على أن سبب تقييضه له، هو غفلته عن ذكر الرحمن. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾[1]؛ لأن الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس، من قولهم: خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر. فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة، ودل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾[2] لأن الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، غافلون عن ذكر الرحمن، وبسبب ذلك قيضه الله لهم فأضلهم.

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣﴾[3]. . ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[4] أي: استكثرتم من إضلال الإنس في دار الدنيا، وقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾[5]. ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾[6] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دل قوله في آية الزخرف: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت وآية الزخرف وغيرهما، جديرين بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[8] لأن قوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ بمعنى ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾؛ لأن كلا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله:

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا ... من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

---

(١) الناس: الآية (٤).
(٢) النحل: الآيتان (٩٩-١٠٠).
(٣) مريم: الآية (٨٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٥) الأعراف: الآية (٢٠٢).
(٦) يس: الآية (٦٠).
(٧) يس: الآية (٦٢).
(٨) النساء: الآية (٣٨).

واعلم أن اللّٰه تعالى بين أن الكفار الذين أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3].

وقوله تعالى في آية الزخرف: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾[4] من قولهم عشا بالفتح عن الشيء، يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه؛ لأن الكافر أعمى القلب، فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن، وبسبب ذلك يقيض اللّٰه له قرناء الشياطين»[5].

قال السعدي: «﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَاءَ﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾[6] أي: تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي اللّٰه، وسلكوا ما شاءوا من محاربة اللّٰه ورسله، والآخرة بَعّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها، فترحَّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من اللّٰه للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر اللّٰه وآياته، وجحودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[7].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب»[8].

---

(١) الزخرف: الآية (٣٧).
(٢) الأعراف: الآية (٣٠).
(٣) الكهف: الآيتان (١٠٣-١٠٤).
(٤) الزخرف: الآية (٣٦).
(٥) أضواء البيان (٧/ ١٣٣-١٣٦).
(٦) مريم: الآية (٨٣).
(٧) الزخرف: الآيتان (٣٦-٣٧).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٠-٥٧١).

قال ابن القيم: «ومعنى الآية: إن اللَّه قيض للمشركين؛ أي: سبب لهم قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا، وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة، وقال الحسن: ما بين أيديهم: هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع، وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق، ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها، والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج، فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين، وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم»[1].

* * *

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤١٩-٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله من مشركي قريش: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: قالوا للذين يطيعونهم من أوليائهم من المشركين: لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به.. وقوله: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: الغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه كَيْما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه.. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ يقول: لعلكم بفعلكم ذلك تصدون من أراد استماعه عن استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه، فتغلبون بذلك من فعلكم محمدا.

قال الله -جل ثناؤه-: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله من مشركي قريش الذين قالوا هذا القول عذابا شديدا في الآخرة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ولنثيبنهم على فعلهم ذلك وغيره من أفعالهم بأقبح جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه عارضوه، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه؛ بل فيه المضرة، ولا تمكنوا -مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن،

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٢).

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ وهذه شهادة من الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه؛ بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة إنما هو على عمل الشرك ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «هذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية، بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أَساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أيمة الكفر يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام، شريفَ معانٍ، وبلاغةَ تراكيبَ، وفصاحةَ ألفاظٍ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتُداخل نفسَه جزالةُ ألفاظه وسُمُوُّ أغراضه، قضى له فهمُه أنه حق اتباعُه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيرًا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن تَرِقَّ قلوبهم عند سماع القرآن، فصرفوهم عن سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكُمُّوا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يَدعوا الناس يتجادلون بالحجة، ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهَضُ، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها، ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحِيَل، ورأوا بوارق الحق تخفق، خَشُوا أن يعُمَّ نورُها الناسَ الذين فيهم بقية من خير ورشد، عدلوا إلى لغو الكلام، ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة، لعلهم

---

(١) الكهف: الآية (٤٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧١-٥٧٢).

يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء»[١].

قلت: هذا الكلام من هذا المفسر كلام بليغ، وكلام خبير بواقع الدعوة إلى الله؛ فإن دعوة الحق إذا ظهرت يحاول أعداؤها أن يشاغبوا عليها ويشوشوا عليها بأساليب مختلفة؛ كإلصاقها بشخص معين، أو دولة معينة، أو اتهامها بأنها تمول من الخارج، أو تخالف منهاج البلد؛ كالقبورية، أو مشايخ التصوف الدجاجلة، أو البدعة المحدثة، كالموالد والمواسم وما يجري في كثير من المساجد من بدع محدثة، أو مخالفة علم الكلام الذي يسمى عند أصحابه بالعقيدة الأشعرية أو الماتريدية. وهكذا كل من حاول مواجهة الباطل يشوش عليه بأنواع التشويشات ولا بد. فليصبر وليحتسب، وليمض في طريقه؛ يشرحُ الحق ويوضحه، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة؛ فإن أعداء الحق كثيرون ولا سيما في زمن الغربة، والله المستعان.

قال محمد مكي الناصري: «جاء كتاب الله بنموذج حي يوضح طريقة دعاة الباطل وقرناء السوء الملازمين لهم، ونوع الدعوات الضالة التي يقومون بها، وينشرونها بين الناس فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فهاهم أولاء يدعون الناس لأن يقفلوا آذانهم عن سماع القرآن؛ أي: يدعونهم لمقابلته بالإعراض والإهمال، والعناد وعدم الانقياد، إذ من شأن الإنسان متى أصغى إلى الحق، واستمع إليه بانتباه وروية، أن يتمعن ويتدبر ويتأثر، فإذا لم يستمع إليه كان بنجوة من تأثير الدعوة، وفي مأمن من مفعولها المنتظر في أغلب الأحيان.

ثم هاهم أولاء يدعون الناس إذا اخترق القرآن أسماعهم، ونفذ إليها بالرغم عنهم أن يلغوا فيه، ومعنى اللغو فيه: افتعال الضجيج والصفير والمكاء والتخليط، ومواجهته بالتعييب والتشكيك، ومقابلته بالجحود والإنكار.

ولقد كانت هذه الطريقة التي كشف كتاب الله عنها الستار، ولا تزال هي الطريقة التقليدية التي يتبعها دعاة الباطل وقرناؤهم لمحاربة أهل الحق، ومقاومة دعوتهم في كل زمان ومكان، فهم يأمرون أتباعهم المضللين بالابتعاد عن دعاة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

الحق، وبتفادي الاحتكاك بهم، وعدم غشيان مجالسهم، فإذا أخذت دعوة أهل الحق في الانتشار رغما عنهم، تصدوا لها بالنقض والتشكيك والمهاترات، وعملوا بكل الوسائل على خنقها وإغراقها في بحر لجي من أمواج الباطل المتراكمة، لعلهم يغلبون الحق عن طريق الباطل، لكن الحق سبحانه وتعالى يتولى دعاة الباطل وقرناءهم من الكفار فمن دونهم، بما هم أهل له من الخذلان والعقاب والعذاب، وذلك قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أنه تعالى سيجزيهم بشر أفعالهم وسيئ أعمالهم»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٢٣-٤٢٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الجزاء الذي يجزى به هؤلاء الذين كفروا من مشركي قريش جزاء أعداء الله؛ ثم ابتدأ -جل ثناؤه- الخبر عن صفة ذلك الجزاء، وما هو فقال: هو النار، فالنار بيان عن الجزاء، وترجمة عنه، وهي مرفوعة بالردّ عليه، ثم قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني لهؤلاء المشركين باللَّه في النار دار الخلد؛ يعني: دار المكث واللبث، إلى غير نهاية ولا أمد؛ والدار التي أخبر -جل ثناؤه- أنها لهم في النار هي النار، وحسن ذلك لاختلاف اللفظين، كما يقال: لك من بلدتك دار صالحة، ومن الكوفة دار كريمة، والدار: هي الكوفة والبلدة، فيحسن ذلك لاختلاف الألفاظ، وقد ذكر لنا أنها في قراءة ابن مسعود: «ذَلكَ جَزَاءُ أعْدَاء اللهِ النَّارُ دَارُ الخُلْدِ» ففي ذلك تصحيح ما قلنا من التأويل في ذلك، وذلك أنه ترجم بالدار عن النار.

وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يقول: فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء من مجازاتنا إياهم النار على فعلهم، جزاء منا بجحودهم في الدنيا بآياتنا التي احتججنا بها عليهم»[1].

قال السعدي: «﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين حاربوه، وحاربوا أولياءه، جزاؤهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ بالكفر والتكذيب، والمجادلة والمجالدة. ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها، والكفر بها»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٢-٥٧٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الذين كفروا بالله ورسوله يوم القيامة بعد ما أدخلوا جهنم: يا ربنا أرنا اللذين أضلانا من خلقك من جنهم وإنسهم. وقيل: إن الذي هو من الجنّ إبليس، والذي هو من الإنس ابن آدم الذي قتل أخاه.. وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ يقول: نجعل هذين اللذين أضلانا تحت أقدامنا؛ لأن أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض، وكل ما سفل منها فهو أشد على أهله، وعذاب أهله أغلظ، ولذلك سأل هؤلاء الكفار ربهم أن يريهم اللذين أضلاهم ليجعلوهما أسفل منهم؛ ليكونا في أشد العذاب في الدرك الأسفل من النار»(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾(٢) أي: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾(٣)»(٤).

قال ابن عاشور: «أي: ويقولون في جهنم، فعدل عن صيغة الاستقبال إلى صيغة المضيّ للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول وهو في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾(٥)، فالقائلون:

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٣-١١٤).
(٢) الأعراف: الآية (٣٨).
(٣) النحل: الآية (٨٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٦٤).
(٥) الأعراف: الآية (٣٨).

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ : هم عامّةُ المشركين، كما يدل عليه قوله : ﴿ٱلَّذِينَ﴾ .

ومعنى ﴿أَرِنَا﴾ عيّن لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جُزم ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾ في جواب الطلب على تقدير : إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا .

والجعل تحت الأقدام : الوطء بالأقدام والرفسُ، أي نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم . وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان، قال ابن وَعْلَة الجَرمي :

ووَطِئْنَا وَطْأً على حَنَق وَطْأَ المُقَيَّد نابتَ الهَرْم

وإنما طلبوا أن يُرَوْهُما لأن المضلين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم، فلذلك لم يعرفوا أين هم .

والتعليل ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ توطئة لاستجابة اللَّه تعالى لهم أن يريَهُمُوهُما لأنهم علموا من غضب اللَّه عليهم أنه أشد غضبًا على الفريقين المضلين، فتوسلوا بعزمهم على الانتقام منهم إلى تيسير تمكينهم من الانتقام منهم . والأسفلون : الذين هم أشد حَقارة من حقارة هؤلاء الذين كفروا ؛ أي : ليكونوا أحقر منا جزاء لهم، فالسفالة مستعارة للإهانة والحقارة»[1] .

قال محمد مكي الناصري : «يشير كتاب اللَّه إلى الحيرة والحسرة التي يكون عليها دعاة الباطل، من الكفر فما دونه في دار العذاب، إذ يتساءلون في جهنم عن قرنائهم الذين أعانوهم على الضلال، ضارعين إلى اللَّه أن يريهم مكانهم في جهنم، متمنين على اللَّه أن يكون أولئك القرناء أشد منهم عذابا، بل تحت أقدامهم في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم زينوا لهم أعمالهم وأضلوهم ولم ينصحوهم»[2] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عقوبة رؤوس الضلال

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : **«لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل»**[3] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨٠-٢٨١). (٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) أخرجه : أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاري (٦/ ٤٤٨/ ٣٣٣٥)، ومسلم (٣/ ١٣٠٣-١٣٠٤/ ١٦٧٧)، والترمذي (٥/ ٤١/ ٢٦٧٣)، والنسائي (٧/ ٩٤/ ٣٩٩٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٦).

★ **غريب الحديث:**

كفل من دمها: الكفل، بكسر أوله وسكون الفاء: النصيب. وأكثر ما يطلق على الأجر والإثم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[(١)]»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «فيه أن من سن شيئًا كتب له أو عليه، وهو أصل في أن المعونة على ما لا يحل حرام»[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة، فصار شريكًا في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[(٤)].

ويشبه هذا أنه من كذب رسولًا معينًا كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[(٥)] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[(٦)] ونحو ذلك. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[(٧)] فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئًا، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار له جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة وفعل المقدور منه»[(٨)].

وقد تقدمت فوائد أخرى للحديث في سورة المائدة الآية (٣٠)، وفي سورة النحل الآية (٢٥).

* * *

---

(١) النساء: الآية (٨٥).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٢٣٨).
(٣) نفس المصدر (١٢/ ٢٣٨).
(٤) المائدة: الآية (٣٢).
(٥) الشعراء: الآية (١٠٥).
(٦) الشعراء: الآية (١٢٣).
(٧) العنكبوت: الآيتان (١٢و١٣).
(٨) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

نزلًا: ضيافة وعطاء وإنعاما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية اللَّه تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملا فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام؛ أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ على ما يستقبل من أمركم، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد اللَّه مفعولا، ويقولون لهم أيضًا -مثبتين لهم، ومبشرين-: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون اللَّه لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[1] ويقولون لهم أيضًا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ قد أعد

(١) الرعد: الآية (٢٤).

وهيئ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نزلا وضيافة ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رَّحِيمٍ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم. فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم؛ أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر اللَّه، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، أي كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف، حيث غفر وستر، ورحم ولطف»[2].

قال الرازي: «في الاستقامة قولان: أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة. الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة، أما على القول الأول ففيه عبارات: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: لم يتلفتوا إلى إله غيره، قال ابن عباس في بعض الروايات: هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه، فكان هو الذي قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وبقي مستقيمًا عليه لم يتغير بسبب من الأسباب، وأقول: يمكن فيه وجوه أخرى، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهًا بقيت له مقامات أخرى فأولها: أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٣-٥٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٦٦).

ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وأيضًا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم، فهذا هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ . وأما على القول الثاني: وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، قالوا: وهذا أولى حتى يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ متناولًا للقول والاعتقاد، ويكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ متناولًا للأعمال الصالحة»[1] .

قال ابن القيم: «فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند اللَّه، فهو أنيسه في الوحدة، ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر اللَّه بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه»[2] .

قال محمد تقي الدين الهلالي: «فائدة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم الذين حققوا معنى لا إله إلا اللَّه، وعبدوا اللَّه وحده ولم يتخذوا ربا سواه، ومعنى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: حققوا معنى محمد رسول اللَّه، فاتبعوا الرسول ﷺ، ولم يحيدوا عن سنته مثقال ذرة، ولم يبتدعوا في دين اللَّه، ولا حكموا بغير ما شرع اللَّه، وأحبوا في اللَّه وأبغضوا في دين اللَّه، ووالوا في اللَّه وعادوا في اللَّه، تتنزل الملائكة عند موتهم ملائكة الرحمة كأن على وجوههم الشمس فتبشرهم وتتولى قبض أرواحهم من ملك الموت، فتصعد بها إلى اللَّه تعالى حتى تسمع أن اللَّه قد رضي عنها كما جاء في الحديث»[3] .

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) روضة المحبين (ص: ٢٦٠).
(٣) سبيل الرشاد (٢/ ١٨٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بشارة الملائكة لأهل الاستقامة

* عن سفيان بن عبد اللَّه الثقفي قال: «قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك -وفي حديث أبي أسامة: غيرك-. قال: قل: آمنت باللَّه، فاستقم»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: هذا من جوامع كلمه ﷺ وهو مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أي: وحّدوا اللَّه وآمنوا به ثم استقاموا فلم يحيدوا عن توحيدهم ولا أشركوا به غيره والتزموا طاعته إلى أن توفوا على ذلك، وعلى ما قلناه أكثر المفسرين من الصحابة فمن بعدهم، وهو معنى الحديث إن شاء الله»[٢].

وقد تقدمت فوائد أخرى للحديث في سورة آل عمران الآية (٥١).

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه، قلنا: يا رسول الله! كلنا نكره الموت. قال: ليس ذاك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من اللَّه ﷻ بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي اللَّه ﷻ فأحب اللَّه لقاءه، وأن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء اللَّه وكره اللَّه لقاءه»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا الحديث يفسر آخره أوله، ويبين المراد بباقي الأحاديث

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١٣) (٤/ ٣٨٤و٣٨٥)، ومسلم (١/ ٦٥/ ٣٨) واللفظ له، الترمذي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥/ ٢٤١٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٨/ ١١٤٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤/ ٣٩٧٢).

(٢) الإكمال (١/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧) واللفظ له، البزار (كشف الأستار ١/ ٣٧٠/ ٧٨٠)، وأبو يعلى (٦/ ٤٦٩-٤٧٠/ ٣٨٧٧)، قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٢٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح». قال ابن كثير رحمه اللَّه في تفسيره (٤/ ١٠٢): «وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه».

المطلقة «من أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله»، ومعنى الحديث أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها؛ فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه وما أُعدّ له، فيكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعد لهم، ويحب الله لقاءهم؛ أي: فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه، لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم؛ أي: فيبعدهم عن رحمته وكرامته»[١].

قال القرطبي: «وفي هذا الحديث ما يدل على أنه لا يخرج أحد من هذه الدار حتى يعلم ما له عند الله تعالى من خير أو شر، وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٢] وهذه الكراهة للموت هي الكراهة الطبيعية التي هي راجعة إلى النفرة عن المكروه والضرر واستصعاب ذلك على النفوس، ولا شك في وجدانها لكل أحد، غير أن من رزقه الله تعالى حظًا من محبته.. غلب عليه ما يجده من خالص محبته، فقال عند أزوف رحلته مخاطبًا للموت وسكرته كما قال معاذ ﷺ: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم»»[٣].

قال الشيخ العثيمين: «أخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وذلك أن المؤمن يؤمن بما أعد الله للمؤمنين في الجنة من الثواب الجزيل، والعطاء العميم الواسع، فيحب ذلك وترخص عليه الدنيا ولا يهتم بها؛ لأنه سوف ينتقل إلى خير منها، فحينئذ يحب لقاء الله ولا سيما عند الموت إذا بشر بالرضوان والرحمة فإنه يحب لقاء الله ﷻ ويتشوق إليه فيحب الله لقاءه.

أما الكافر والعياذ بالله فإنه إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، فكره الله لقاءه، ولهذا جاء في حديث المحتضر:[٤] «إن نفس الكافر إذا بشر بالغضب والسخط تفرقت في جسده وأبت أن تخرج، ولهذا تنزع النفس -روح الكافر- من جسده كما

(١) شرح مسلم (١٧/ ٩).
(٢) يونس: الآية (٦٤).
(٣) المفهم (٢/ ٦٤٤) بتصرف يسير.
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤-١١٦/ ٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧-٤٠) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. ورواه مختصرا دون ذكر موضع الشاهد: النسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٨) وغيرهما، وانظر أحكام الجنائز (ص: ١٩٨-٢٠٢).

ينزع الشعر من السفود المبلول[١] بمعنى: أنه يكره على أن تخرج روحه، وذلك لأنه يبشر -والعياذ بالله- بالشر ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[٢]، فهم شحيحون بأنفسهم والعياذ باللَّه لا يريدون أن تخرج، ولكن الملائكة تقول: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ فإذا بشرت تفرقت في الجسد فينتزعها الملائكة كما ينتزع السفود من الصوف المبلول والعياذ باللَّه حتى تخرج.

المهم أن المؤمن يحب لقاء الله؛ لأنه يحب اللَّه ﷻ، يحب ثوابه، يحب جنته، يحب النعيم، فهو يحب لقاء اللَّه، ولا سيما عند الموت فيحب اللَّه لقاءه، اللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا رب العالمين، وأحسن لنا الختام إنك على كل شيء قدير»[٣].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال الله: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «وهذا الحديث معناه عند أهل العلم فيما يعاينه المرء عند حضور أجله، فإذا رأى ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ولا لقاء اللَّه لسوء ما عاين مما يصير إليه، وإذا رأى ما يحب أحب لقاء اللَّه والإسراع إلى رحمته، لحسن ما عاين وبُشّر به، وليس حب الموت وكراهيته -والمرء في صحته- من هذا المعنى في شيء، واللَّه أعلم. قال أبو عبيد[٥] في معنى قوله ﷺ: «**من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه**»، قال: ليس وجهه عندي أن يكون يكره علز[٦] الموت وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد، نبي ولا غيره، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا والركون

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب واللَّه أعلم: السفود من الشعر المبلل.
(٢) الأنعام: الآية (٩٣).
(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٨)، والبخاري (١٣/ ٤٦٦/ ٧٥٠٤) واللفظ له، والنسائي (٤/ ٣٠٧/ ١٤٣٨)، وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٦/ ٢٦٨٦) وليس فيه «قال اللَّه تعالى ..».
(٥) انظر غريب الحديث (٣/ ١-٢).
(٦) علز: أي: قلق وفزع.

إليها والكراهية أن يصير إلى اللَّه والدار الآخرة، ويؤثر المقام في الدنيا، قال: ومما يبين ذلك أن اللَّه قد عاب قومًا في كتابه بحب الحياة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾[1] وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[3] قال: فهذا يدل على أن الكراهية للقاء اللَّه ليست بكراهية الموت، وإنما هو الكراهية للنقلة من الدنيا إلى الآخرة»[4].

قال الحافظ: «وفيه أن المجازاة من جنس العمل؛ فإنه قابل المحبة بالمحبة، والكراهة بالكراهة.. وفيه أن المحتضر إذا ظهرت عليه علامات السرور كان ذلك دليلًا على أنه بُشّر بالخير، وكذا بالعكس. وفيه أن محبة لقاء اللَّه لا تدخل في النهي عن تمني الموت؛ لأنها ممكنة مع عدم تمني الموت، كأن تكون المحبة حاصلة لا يفترق حاله فيها بحصول الموت ولا بتأخره، وأن النهي عن تمني الموت محمول على حالة الحياة المستمرة، وأما عند الاحتضار والمعاينة فلا تدخل تحت النهي، بل هي مستحبة، وفيه أن في كراهة الموت في حالة الصحة تفصيلًا، فمن كرهه إيثارًا للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذمومًا، ومن كرهه خشية أن يُفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصرًا في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر اللَّه كما يجب، فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذا حضره الموت لا يكرهه، بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء اللَّه تعالى»[5].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة،**

---

(١) يونس: الآية (٧).
(٢) البقرة: الآية (٩٦).
(٣) الجمعة: الآية (٧).
(٤) فتح البر (٦/ ٣٦٠).
(٥) فتح الباري (١١/ ٤٣٨-٤٣٩).

وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها اللَّه ﷻ.

وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء، فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول»[1].

★ غريب الحديث:

بروح وريحان: نظيره في اللفظ والسياق قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2] بروح أي: استراحة، والريحان: الرزق، ولو روي بالضم كان بمعنى الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم، وقيل: البقاء؛ أي: هذان له معًا، وهو الخلود مع الرزق»[3].

حميم: هو الماء الحار غاية الحرارة.

غساق: الغساق بالتخفيف والتشديد: ما يغسق من صديد أهل النار. يقال: غسقت العين: إذا سال دمعها، وقال الحسن: الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله[4].

★ فوائد الحديث:

فيه بيان حسن مخرج النفس الطيبة عند الموت وحلاوة تلقيها من الملائكة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٤-٣٦٥)، ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣-١٤٢٤/ ٢٤٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣-٤٤٤/ ١١٤٤٢)، وابن خزيمة (١/ ٢٧٦-٢٧٧/ ١٧٦)، وبنحوه أخرجه النسائي في «المجتبى» (٤/ ٣٠٦-٣٠٧/ ١٨٣٢)، وصححه ابن حبان الإحسان (٧/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٣٥٣-٣٥٤) وقال بعد أن ذكر متابعات له: «وهذه أسانيد كلها صحيحة»، ووافقه الذهبي.

(٢) الواقعة: الآية (٨٩).

(٣) شرح الطيبي (٤/ ١٣٧٦).

(٤) شرح الطيبي (٤/ ١٣٣٧).

الكرام بالبشرى والتكريم والترحيب والقبول[١].

قال الأشقر: «وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تتنزل عليه وتبشره وتثبته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾»[٢].

* * *

---

(١) إعداد الديباجة (٥/ ٥٨٢).

(٢) عالم الملائكة (ص: ٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا عباد اللَّه إليه، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق -تبارك وتعالى-. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول اللَّه ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء»[1].

قال السعدي رحمه اللَّه مبينًا معنى الآية: «هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر أي: لا أحد أحسن قولًا أي: كلامًا وطريقة ممن دعا إلى اللَّه، بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة اللَّه، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى اللَّه عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه. خصوصًا من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الدعوة إلى اللَّه تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله ونعوت جلاله، ومن الدعوة إلى اللَّه الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب اللَّه وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٦٧-١٦٨).

والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين، ومن ذلك الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفراده، بما تشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر. ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل. كما أن شر الناس قولًا من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله. وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1]»[2].

قال الرازي: «قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، فيكون هذا الرجل موصوفًا بخصال أربعة، أحدها: الإقرار باللسان، والثاني: الأعمال الصالحة بالجوارح. والثالث: الاعتقاد الحق بالقلب. والرابع: الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ»[3].

قال القرطبي: «هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولا من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته،

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٥-٥٧٦).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢٧).

ودعا الناس إلى ما أجاب إليه. وقالت عائشة ﵂ وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المؤذنين. قال فضيل بن رفيدة: كنت مؤذنا لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أذنت فقلت: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقل وأنا من المسلمين، ثم قرأ هذه الآية، قال ابن العربي: والأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدني، وإنما يدخل فيها بالمعنى، لا أنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصديق حين قال في النبي ﷺ وقد خنقه الملعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1] وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان.

قلت: وقول ثالث وهو أحسنها، قال الحسن: هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة، قال: صل ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ صلى وصام. وقال الكلبي: أدى الفرائض. قلت: وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب. والله أعلم»[2].

قال صديق حسن خان: «والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ، ويدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله وعمل عملا صالحا، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه.

وكان من المسلمين دينا لا من غيرهم، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثوابا من عمله، قيل: وللدعوة إلى الله مراتب: الأولى دعوة الأنبياء إلى الله بالمعجزات، وبالحجج والبراهين، وبالسيف، وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء. المرتبة الثانية: دعوة العلماء إلى الله بالحجج والبراهين فقط، والعلماء أقسام: علماء بالله، وعلماء بصفات الله، وعلماء بأحكام الله. المرتبة الثالثة: دعوة المجاهدين إلى الله بالسيف والسنان، فهم يجاهدون الكفار حتى

---

(١) غافر: الآية (٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٣٤-٢٣٥).

يدخلوا في دين اللَّه وطاعته. المرتبة الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة فهم أيضًا دعاة إلى اللَّه وإلى طاعته»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الأذان

* عن معاوية ﵁ سمعت النبي ﷺ يقول: «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ العثيمين: «إذا بعث الناس فإن المؤذنين يكون لهم ميزة ليست لغيرهم، وهي أنهم يكونون أطول الناس أعناقا، فيعرفون بذلك تنويها لفضلهم وإظهارا لشرفهم؛ لأنهم يؤذنون ويعلنون بتكبير اللَّه ﷻ، وتوحيده والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة، والدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح، يعلنونها من الأماكن العالية، ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل أن تعلو رؤوسهم، وأن تعلوَ وجوههم، وذلك بإطالة أعناقهم يوم القيامة، وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون مؤذنا حتى لو كان في نزهة هو وأصحابه، فإنه ينبغي أن يبادر إلى ذلك، وقد سبق أن النبي ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**»[٣]»[٤].

قال الشوكاني: «ظاهره الطول الحقيقي، فلا يجوز المصير إلى التفسير بغيره إلا لملجئ، والحديث يدل على فضيلة الأذان، وأن صاحبه يوم القيامة يمتاز عن غيره، ولكن إذا كان فاعله غير متخذ أجرا عليه، وإلا كان فعله لذلك من طلب الدنيا والسعي للمعاش، وليس من أعمال الآخرة»[٥].

قال المازري: «وقد احتج بهذا الحديث من رأى أن فضيلة الأذان أكثر من

---

(١) فتح البيان (١٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٥)، ومسلم (١/ ٢٩٠/ ٣٨٧) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٢٤٠/ ٧٢٥).

(٣) سيأتي تخريجه قريبا.

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٤٢).

(٥) نيل الأوطار (٢/ ٣٣).

فضيلة الإمامة، وفي ذلك اختلاف بين أهل العلم أيهما أفضل المؤذن أم الإمام؟ واحتج من قال: إن الإمامة أفضل، بأنه ﷺ كان يؤمّ ولم يكن يؤذّن، وما كان ﷺ ليقتصر على الأدنى ويترك الأعلى. واعتذر عن ذلك بأنه ﷺ ترك الأذان لما يشتمل عليه من الشهادة له بالرسالة والتعظيم لشأنه، فترك ذلك إلى غيره، وقيل: إنما ترك ذلك لأن فيه الحيعلة، وهي الأمر بالإتيان إلى الصلاة، فلو أمر في كل صلاة بإتيانها لما استخَفَّ أحد ممن سمعه التأخير وإن دعته الضرورة إليه، وذلك مما يشق، وقيل أيضًا لأنه كان ﷺ في شغل عنه، وقد قال عمر: «لو أطقت الأذان مع الخليفى لأذنت»[١]، والخِلِّيفى: الخلافة»[٢].

وقد رجح القرطبي رحمه اللَّه كونه ﷺ مشغولًا عنه بأمور المسلمين فقال: «وهذا هو الصحيح، وقد صرح بذلك عمر فقال: لولا الخليفى؛ أي: الخلافة، لأذّنت»[٣].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس، وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة، ويكفر عنه ما بينهما**»[٤].

★ غريب الحديث:

مدى: مدى الشيء: غايته.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قال ابن العربي: المؤذنون أفضل جماعة دعت إلى اللَّه عن أمر اللَّه ورسوله»[٥].

قال الطيبي: «وفيه حث على استفراغ الجهد في رفع الصوت بالأذان، قال

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٢٠٤/ ٢٣٤٥).
(٢) المعلم (١/ ٢٦١).
(٣) المفهم (٢/ ١٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٦)، وأبو داود (١/ ٣٥٣-٣٥٤/ ٥١٥) واللفظ له، والنسائي (٢/ ٣٤٠/ ٦٤٤)، ابن ماجه (١/ ٢٤٠/ ٧٢٤)، ابن خزيمة (١/ ٢٠٤/ ٣٩٠)، وابن حبان (الإحسان ٤/ ٥٥١/ ١٦٦٦) وصححاه.
(٥) فيض القدير (٦/ ٢٤٩).

القاضي: في قوله: «مدى صوته» غاية الصوت يكون أخفى لا محالة، فإذا شهد له من بعد عنه ووصل إليه صوته، فلأن يشهد له من هو أدنى منه وسمع منادى صوته أولى.. وقال التوربشتي: المراد من شهادة الشاهدين له وكفى بالله شهيدًا اشتهاره يوم القيامة فيما بينهم بالفضل وعلو الدرجة. وكما أن اللَّه تعالى يهين قومًا ويفضحهم بشهادة الشاهدين، فكذلك يكرم قومًا تكميلًا لسرورهم وتطييبًا لقلوبهم»[1].

قال السيوطي: «قال أبو البقاء: الجيد عند أهل اللغة مدى صوته وهو ظرف مكان، وأما مد صوته فله وجه وهو يحتمل شيئين، أحدهما: أن يكون تقديره مسافة صوته، والثاني: أن يكون المصدر بمعنى المكان أي: ممتد صوته، وفي المعنى على هذا وجهان: أحدهما معناه: لو كانت ذنوبه تملأ هذا المكان لغفرت له، وهو نظير قول الرسول ﷺ إخبارًا عن اللَّه تعالى: «لو جئتني بقراب الأرض خطايا»[2] أي: بملئها من الذنوب، والثاني: يغفر له من الذنوب ما فعله في زمان مقدر بهذه المسافة»[3].

قال الحافظ ابن رجب: «وقوله: «كل رطب ويابس» يدل على أن الجمادات سواء كانت رطبة أو يابسة فإن لها سماعًا في الدنيا وشهادة في الآخرة، فدل ذلك على صحة أشياء مختلف في بعضها، منها: إدراك الجمادات ونطقها، وقد أثبت ذلك جمهور السلف، سواء كانت رطبة أو يابسة، كما دل عليه قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[4] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[5] وخص الحسن التسبيح بما كان رطبًا قبل أن ييبس، والجمهور على خلافه. وأما من قال: تسبيحها دلالتها على صانعها بلسان الحال، فقول ضعيف جدًّا والأدلة الكثيرة تبطله، ومنها أن الجمادات (تشهد) عنه يوم القيامة»[6].

---

(١) شرح الطيبي (٣/ ٩١١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٧و١٥٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٨/ ٢٦٨٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥/ ٢٨٢١)، من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) حاشية السيوطي على النسائي (١/ ٣٤٠).

(٤) سبأ: الآية (١٠). (٥) الإسراء: الآية (٤٤).

(٦) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٢٢٧).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»**(١).

★ غريب الحديث:

التهجير: التبكير إلى الصلاة مطلقا، وقيل: الإتيان إلى صلاة الظهر في أول الوقت؛ لأن التهجير من الهاجرة.

العتمة: العشاء.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النداء هو الأذان، والاستهام الاقتراع، ومعناه: أنهم لو علموا فضيلة الأذان وقدرها وعظيم جزائه ثم لم يجدوا طريقًا يحصلونه به لضيق الوقت عن أذان بعد أذان أو لكونه لا يؤذن للمسجد إلا واحد، لاقترعوا في تحصيله»(٢).

قال القاضي عياض: «نحا الداودي إلى أن هذا في أذان الجمعة؛ أي: لو علموا ما فيه لتسابقوا إليه، ولم يبق من يقم مع الإمام الجمعة، ولهذا قال عمر: «لولا الخليفى لأذنت»، والأمير لا يكون فيها مؤذنًا؛ لأن الأذان بين يديه، وظاهر الكلام أن الاستهام في الصف والأذان جميعًا، وعليه حمله الباجي وغيره، قالوا: وقد اختصم قوم بالقادسية فأسهم بينهم سعد بن أبي وقاص. قيل: وهذا يكون إذا استووا في معرفة الوقت، والتقدمة للاقتداء، فيقع الاستهام بينهم إذا تشاحوا في الابتداء، فأما سائر من يؤذن بعد فلا، وكذلك لو كان مقدم لمراعاة الوقت كان أحق من غيره بولايته، وإن ساواه في معرفته، كما أن السابق إلى الصف أحق به، وإنما يصح الاستهام إذا قدرناه إذا كان وصولهم إليه في حالة وهو لا يسع جميعهم،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (٢/ ١٢٢/ ٦١٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٢٥/ ٤٣٧)، والترمذي (١/ ٤٣٧/ ٢٢٥-٢٢٦)، النسائي (١/ ٢٩٠-٢٩١/ ٥٣٩)، وأخرجه ابن ماجه (١/ ٣١٩/ ٩٩٨)، مختصرا دون موضع الشاهد.

(٢) شرح مسلم (٤/ ١٣٢).

وهم متساوون في حالهم، ومنهم أهل العلم والأحلام والنهى، فهم أحق بالقرب من الإمام بمن سبق إليه منهم دون استهام»[١].

قال ابن رجب: «قال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي عن مسجد فيه رجلان ورعان أيهما أحق بالمسجد هذا يؤذن فيه وهذا يؤذن فيه؟ فقال: إذا استووا في الصلاح والورع أقرع بينهما، وكذلك فعل سعد، فإن كان أحدهما أصلح في بدنه فينبغي لهم أن لا يختصموا، فقلت: فإن كان أحدهم أسن وأقدم في هذا المسجد ينفق عليه ويحوطه ويتعاهده؟ قال: هذا أحق به، ومعنى هذا أنه إذا تشاح في الأذان اثنان، فإن امتاز أحدهما بمزيد فضل في نفسه فإنه يُقدَّم، وهو مراد أحمد بقوله: إن كان أحدهما أصلح في بدنه فينبغي لهم أن لا يختصموا؛ يعني: أن الأصلح أحق فلا ينازع، فإن استووا في الفضل في نفسهم وامتاز أحدهم بخدمة المسجد وعمارته قدم بذلك، وقال أصحابنا: إنه يقدم أحد المتنازعين باختصاصه بصفات الأذان المستحبة فيه، مثل أن يكون أحدهما أندى صوتًا وأعلم بالمواقيت ونحو ذلك، فإن استوفوا في الفضائل كلها أُقرع بينهم حينئذ كما فعل سعد، والظاهر أن مراد أحمد التنازع في طلب الأذان ابتداءً، فأما من ثبت له حق الأذان في المسجد وهو مؤذن راتب فيه، فليس لأحد منازعته، ويقدم على كل من نازعه»[٢].

قال أبو عمر: «يحضهم -أي: النبي ﷺ- على ذلك لئلا يزهدوا في الأذان، فتبطل السنة فيه بالتواكل وقلة الرغبة»[٣].

قال الحافظ ابن رجب: «وفي الحديث دليل على شرف الأذان وفضله، واستحباب المنافسة فيه، لأكابر الناس وأعيانهم، وأنه لا يوكل إلى أسقاط الناس وسفلتهم، وقد كان الأكابر يتنافسون فيه»[٤].

«وفي قوله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه» دليل على أن الأذان لا يشرع إعادته مرة بعد مرة إلا في

---

(١) الإكمال (٢/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٢) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٢٧٦-٢٧٧).
(٣) التمهيد (٣/ ٢٨).
(٤) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٢٩٣).

أذان الفجر كما جاءت السنة به، وإلا فلو شرعت إعادته لما استهموا ولأذن واحد بعد واحد، وقد صرح بمثل ذلك بعض أصحابنا، وقال: مع التزاحم يؤذن واحد بعد واحد، وهو مخالف للسنة»[١].

قال أبو عمر: «إنما الاستهام على الصف الأول لا على الأذان، وعليه رجع الضمير في «**عليه**»»[٢].

قال القرطبي: «وقيل: إنه يعود على معنى الكلام المتقدم، فإنه مذكور ومقول، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[٣] أي: ومن يفعل المذكور، وقيل: هذا أولى من الأول؛ لأنه إن رجع إلى الصف بقي النداء ضائعًا لا فائدة له»[٤].

قال ابن رجب: «والأظهر أنه يعود إلى النداء والصف الأول كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٥]»[٦].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، فأرشد اللَّه الأئمة وغفر للمؤذنين**»[٧].

★ غريب الحديث:

ضامن: الضامن في كلام العرب معناه: الراعي. والضمان معناه: الرعاية، قال الشاعر:

رعاك ضمان اللَّه يا أم مالك ... ولله أن يشقيك أغنى وأوسع

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «والمؤذن أمين في الأوقات يعتمد الناس على صوته في الصلاة والصيام وسائر الوظائف المؤقتة، وقوله: «**أرشد اللَّه الأئمة وغفر للمؤذنين**» دعاء

---

(١) نفس المصدر (٥/ ٢٨٩).
(٢) فتح البر (٣/ ٢٨).
(٣) الفرقان: الآية (٦٨).
(٤) المفهم (٢/ ٦٥).
(٥) التوبة: الآية (٦٢).
(٦) فتح الباري لابن جب (٥/ ٢٨٦-٢٨٧).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٤)، أبو داود (١/ ٣٥٦/ ٥١٧)، الترمذي (١/ ٤٠٢/ ٢٠٧)، ابن حبان (الإحسان ٤/ ٥٦٠/ ١٦٧٢) واللفظ له، ابن خزيمة (٣/ ١٦/ ١٥٣١) وصححاه.

أخرجه في صورة الخبر تأكيدًا، وإشعارًا بأنه من الدعوات التي تتلقى بالمسارعة إلى إجابتها، وعبر بصيغة الماضي ثقة بالاستجابة، فكأنه أجيب سؤاله وهو يخبر عنه موجودًا، والمعنى: أرشد اللهم الأئمة للعلم بما تكلفوه والقيام به والخروج من عهدته، واغفر للمؤذنين ما عسى يكون منهم من تفريط في الأمانة التي حملوها»[١].

قال محمود محمد خطاب السبكي: «دل الحديث على أن المؤذن أمين، فيطلب أن يكون مسلمًا عاقلًا عدلًا، فلا يصح من كافر ولا مجنون»[٢].

قال الطيبي نقلًا عن الخطابي: «وفي الحديث دلالة على استحباب تولي الأذان»[٣].

قال القاري: «قال ابن الملك: والمؤذنون أمناء لأن الناس يعتمدون عليهم في الصلاة ونحوها، أو لأنهم يرتقون في أمكنة عالية، فينبغي أن لا يشرفوا على بيوت الناس لكونهم أمناء»[٤].

قال الحافظ ابن رجب: «قال الجوزجاني: لا بد أن يكون المؤذن خيارًا، وأن يكون مؤتمنًا متبعًا للسنة، فإن المبتدع غير مؤتمن، فإن اجتمع هذه الخلال في عدة من أهل المسجد فإن أحقهم بالأذان أنداهم صوتًا»[٥].

* عن عبد اللَّه بن مغفل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بين كل أذانين صلاة، بين كل أذانين صلاة -ثم قال في الثالثة-: لمن شاء**»[٦].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «قلت: أراد بالأذانين الأذان والإقامة، حمل أحد الاسمين على الآخر، والعرب تفعل ذلك كقولهم: الأسودين للتمر والماء، وإنما الأسود أحدهما، وكقولهم: سيرة العمرين، يريدون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وإنما فعلوا ذلك لأنه أخف على اللسان من أن يثبتوا كل اسم منهما على حدته، ويذكروه بخاص

---

(١) شرح الطيبي (٣/ ٩١٥).
(٢) المنهل (٤/ ١٧٨).
(٣) شرح الطيبي (٣/ ٩١٥).
(٤) المرقاة (٢/ ٣٥٧).
(٥) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٢٧٨).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٦)، البخاري (٢/ ١٤٠/ ٦٢٧)، مسلم (١/ ٥٧٣/ ٨٣٨)، أبو داود (٢/ ٥٩-٦٠/ ١٢٨٣)، الترمذي (١/ ٣٥١/ ١٨٥)، النسائي (٢/ ٣٥٧/ ٦٨٠)، ابن ماجه (١/ ٣٦٨/ ١١٦٢).

صفته، وقد يحتمل أن يكون ذلك في الأذانين حقيقة الاسم لكل واحد منهما؛ لأن الأذان في اللغة معناه الإعلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[١]، فالنداء بالصلاة أذان بحضور الوقت، والإقامة أذان بفعل الصلاة»[٢].

قال الحافظ ابن رجب: «لا اختلاف أن المراد بالأذانين في الحديث الأذان والإقامة، وليس المراد الأذانين المتواليين وإن كانا مشروعين، كأذان الفجر إذ يكرر مرتين»[٣].

قال ابن الجوزي: «فإن قيل: فلم خص التطوع بهذا الوقت وقد علم أنه يجوز في غيره؟ فالجواب أنه قد يجوز أن يُتوهم أن الأذان للصلاة يمنع أن يُفعل سوى الصلاة التي أُذّن لها، فبين جواز التطوع»[٤].

قال السنوسي: «قيل: إنما حرض رسول اللَّه ﷺ أمته على صلاة النفل بين الأذانين لأن الدعاء لا يرد بينهما؛ لشرف ذلك الوقت، وإذا كان الوقت أشرف كان ثواب العبادة أكثر، ولما كانت الصلاة أفضل العبادات وأجمعها لأنواع الخير وأعمها لظاهر المكلف وباطنه كانت أولى ما تعمر به الأوقات الفاضلة، وباللَّه التوفيق»[٥].

قال شيخ الإسلام: «فهذا يبين أن الصلاة قبل العصر والمغرب والعشاء حسنة وليست بسنة، فمن أحب أن يصلي قبل العصر كما يصلي قبل المغرب والعشاء على هذا الوجه فحسن، وأما أن يعتقد أن ذلك سنة راتبة كان يصليها النبي ﷺ كما يصلي قبل الظهر وبعدها وبعد المغرب فهذا خطأ»[٦].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»**[٧].

---

(١) التوبة: الآية (٣).
(٢) معالم السنن (١/ ٢٤٠).
(٣) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٣٥٥).
(٤) كشف المشكل (١/ ٤٩١).
(٥) مكمل إكمال المعلم (٣/ ١٩٠).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٢٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٩)، أبو داود (١/ ٣٥٨-٣٥٩/ ٥٢١)، الترمذي (١/ ٤١٥-٤١٦/ ٢١٢) وقال: «حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٢٢/ ٩٨٩٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال خطاب السبكي: «دل الحديث على الترغيب في الدعاء بين الأذان والإقامة، وعلى أفضلية الدعاء في هذا الوقت»[1].

قال ابن القيم: «ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعف في نفسه، بأن يكون دعاءً لا يحبه الله، لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها»[2].

قال أبو عمر: «فضائل الأذان كثيرة، وقد روي عن عائشة أنها قالت في قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾: نزلت في المؤذنين»[3].

وقد تقدم تفصيل أحكام الأذان في تفسير سورة (المائدة) عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية (٥٨).

* * *

(١) المنهل (٤/ ١٨٨).

(٢) الداء والدواء (ص: ٩).

(٣) فتح البر (٤/ ٢٦٢).

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

حميم : قريب .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «قوله : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ يقول -تعالى ذكره- : ولا تستوي حسنة الذين قالوا ربنا اللَّه ثم استقاموا ، فأحسنوا في قولهم ، وإجابتهم ربهم إلى ما دعاهم إليه من طاعته ، ودعوا عباد اللَّه إلى مثل الذي أجابوا ربهم إليه ، وسيئة الذين قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] فكذلك لا تستوي عند اللَّه أحوالهم ومنازلهم ، ولكنها تختلف كما وصف -جل ثناؤه- أنه خالف بينهما ، وقال -جل ثناؤه- : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فكرر (لا) والمعنى : لا تستوي الحسنة والسيئة ؛ لأن كلّ ما كان غير مساو شيئًا ، فالشيء الذي هو له غير مساو غير مساويه ، كما أن كل ما كان مساويا لشيء فالآخر الذي هو له مساو مساو له ، فيقال : فلان مساو فلانا ، وفلان له مساو ، فكذلك فلان ليس مساويا لفلان ، ولا فلان مساويا له ، فلذلك كررت لا مع السيئة ولو لم تكن مكررة معها كان الكلام صحيحا . . وإنما عنى بقوله : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ ولا يستوي الإيمان باللَّه والعمل بطاعته والشرك به والعمل بمعصيته . وقوله : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ : ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك ، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء ، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم ، ويلقاك من قِبلهم . . وقال آخرون : معنى ذلك : ادفع بالسلام على من أساء إليك إساءته . . وقوله : ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره- : افعل هذا الذي أمرتك به يا محمد من دفع سيئة المسيء إليك بإحسانك الذي أمرتك به إليه ، فيصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه من ملاطفته

(١) فصلت: الآية (٢٦).

إياك، وبرّه لك، وليّ لك من بني أعمامك، قريب النسب بك، والحميم: هو القريب»(١).

قال السعدي: «أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا اللَّه تعالى، وفعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾(٢) ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا فلا تقابله؛ بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك وترك خطابك فَطَيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شفيق»(٣).

قال الرازي: «والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق، والصبر على جهالة الكفار، وترك الانتقام، وترك الالتفات إليهم، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾(٤) وما ذكروه في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فكأنه قال: يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبًا للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة، وهم بالضد من ذلك، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعًا لك من الاشتغال بهذه الحسنة. ثم قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب، ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش، استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١١٨-١١٩).

(٢) الرحمن: الآية (٦٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٧).

(٤) فصلت: الآية (٥).

القبيحة.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني: إذا قابلت إساءتهم بالإحسان، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة، تركوا أفعالهم القبيحة، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة، ومن البغضة إلى المودة»[١].

قال ابن القيم في الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد: «السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من اللَّه، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي، والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا، ازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[٢] وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾[٣]..

اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين اللَّه تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؛ ليعاملك اللَّه هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل اللَّه معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقا، فانتقم بعد ذلك أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك، فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى ما أساء إليه، هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر اللَّه ومعيته الخاصة، كما قال النبي للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه، فقال: «لا يزال معك من

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢٨).

(٢) فصلت: الآيات (٣٤-٣٦).

(٣) القصص: الآية (٥٤).

اللَّه ظهير ما دمت على ذلك»[١] هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر اللَّه عليه عباده، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعا ولا خيرا، هذا مع أنه لا بد له مع عدوه، وحاسده من إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له ويذل له، ويبقى من أحب الناس إليه، وإما أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة، واللَّه هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه»[٢].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٠)، البخاري في الأدب المفرد (٥٢)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

يلقاها: يؤتاها، ويعطاها.

حظ عظيم: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه اللّه، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟.

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع للّه رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذًا مستحليًا له.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق»[1].

قال ابن عاشور: «وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوة عزم وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنها تلازمها خصلة الصبر وهي في ذاتها خصلة حميدة، وثوابها جزيل، كما علم من عدة آيات في القرآن، وحسبك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٧-٥٧٨).
(٢) العصر: الآيتان (٢-٣).

فالصابر مرتاض بتحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، فيهون عليه ترك الانتقام.

و﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يُجعل لاَقِيًا لها؛ أي: كقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[1]، وهو مستعار للسعي لتحصيلها؛ لأن التحصيل على الشيء بعد المعالجة والتخلق يشبه السعي لملاقاة أحد فيلقاه. وجيء في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالمضارع في الموضعين باعتبار أن المأمور بالدفع بالتي هي أحسن مأمور بتحصيل هذا الخلق في المستقبل، وجيء في الصلة وهي: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بالماضي للدلالة على أن الصبر خلُق سابق فيهم هو العون على معاملة المسيء بالحسنى، ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: إلا الصابرون، لنكتة كون الصبر سجية فيهم متأصلة. ثم زيد في التنويه بها بأنها ما تَحْصُل إلا لِذي حظ عظيم إن التخلق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنه ليس وحده شرطًا فيها؛ بل وراءه شروط أُخر يجمعها قوله: ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: من الأخلاق الفاضلة، والصبرُ من جملة الحظ العظيم؛ لأن الحظ العظيم أعمّ من الصبر، وإنما خص الصبر بالذكر لأنه أصلها ورأس أمرها وعمودُها»[2].

قال محمد مكي الناصري: «معنى قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ما يلقى هذه الخصلة ويقوم بحقها، أو ما يمتثل هذه الوصية ويعمل بها، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان، إلا من تعود على الصبر في معاناة الخلق، على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[3] ومعنى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ما يلقاها إلا ذو نصيب وافر من الخير والتوفيق»[4].

* * *

(١) الإنسان: الآية (١١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٩٤-٢٩٥).
(٣) الشورى: الآية (٤٣).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ينزغنك: يوسوس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإما يلقين الشيطان يا محمد في نفسك وسوسة من حديث النفس إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ودعائك إلى مساءته، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك ومما يذهب ذلك من قلبك، وغير ذلك من أمورك وأمور خلقه»[1].

قال ابن كثير: «أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**»[2].

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥)، والترمذي (٢/ ٩-١٠/ ٢٤٢)، والنسائي (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨-٨٩٩)، وصححه أحمد شاكر. وانظر أصل صفة الصلاة للشيخ الألباني (١/ ٢٥٢-٢٥٨).

بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[1]، وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[2]»[3].

وقال السعدي: «لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله، والاحتماء من شره فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان؛ أي: من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾ أي: اسأله مفتقرًا إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في فضل الاستعاذة وبيان أثرها في دفع نزغ الشيطان

* عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: **إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد**، فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بي جنون؟»[5].

★ غريب الحديث:

أوداجه: جمع وَدَج، بفتحتين، وهو عرق في الحلق في المذبح، وانتفاخ الأوداج كناية عن شدة الغضب.

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٩٩-٢٠٠).

(٢) المؤمنون: الآيات (٩٦-٩٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩٤)، البخاري (٦/ ٤١٥/ ٣٢٨٢) واللفظ له، مسلم (٤/ ٢٠١٥/ ٢٦١٠)، أبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١)، النسائي في الكبرى (٦/ ١٠٤/ ١٠٢٢٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «فيه أن الغضب في غير اللَّه نزغ من الشيطان وما يحمل عليه من موافقته هوى النفس وطبعها المركب فيها، وأن الاستعاذة من الشيطان كفته وسكن غضبه، وقول الآخر: هل ترى فيه الجنون كلام من لم يفقه في دين اللَّه، وظن أنه لا يستعاذ من الشيطان إلا من المس، ولم يعلم أن الغضب من أوائل نفسه؛ ولهذا يخرج به عن صورته وخلقه، ويحفه بقبح الكلام والحركات والأفعال، حتى يزين له إفساد ماله، وتمزيق ثيابه، وكسر ما حوله من آنية، وقتل من نازعه أو غضب عليه، أو إفساده أو الحلف والنذر عن الانتفاع به، ولعله كان من جفاة الأعراب، أو ممن لم يخلص إيمانه من المنافقين»(١).

قال القرطبي: «والحديث يدل على أن الشيطان له تأثير في تهييج الغضب، وزيادته حتى يحمله على البطش بالمغضوب عليه، أو إتلاف نفسه، أو شر يفعله يستحق به العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا تعوذ الغضبان باللَّه من الشيطان الرجيم وصح قصده لذلك فقد التجأ إلى اللَّه تعالى، وقصده واستجار به، واللَّه تعالى أكرم من أن يخذل من استجار به، ولما جهل ذلك الرجل ذلك المعنى، وظن أن الذي يحتاج إلى التعوذ إنما هو المجنون، فقال: أمجنونًا تراني؟ منكرًا على من نبهه على ما يصلحه، ورادًا لما ينفعه، وهذا من أقبح الجنون، والجنون فنون، كأن هذا الرجل كان من جفاة الأعراب الذين قلوبهم من الفقه والفهم خراب»(٢).

قال النووي: «ولهذا قال النبي ﷺ للذي قال له أوصني: «**لا تغضب**» فردد مرارًا قال: «**لا تغضب**»(٣) فلم يزده في الوصية على «**لا تغضب**» مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ منه»(٤).

قال العيني: «والاستعاذة من الشيطان تذهب الغضب وهو أقوى السلاح على دفع كيده»(٥).

---

(١) إكمال المعلم (٨/ ٨٥). (٢) المفهم (٦/ ٥٩٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٢)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٦)، والترمذي (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢٠).

(٤) شرح مسلم (١٦/ ١٣٤).

(٥) عمدة القاري (١٠/ ٦٣٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وقال بعض العلماء: خلق اللَّه الغضب من النار، وجعله غريزة في الإنسان، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما اشتعلت نار الغضب وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدم؛ لأن البشرة تحكي لون ما وراءها، وهذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفر اللون حزنًا، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر. ويترتب على الغضب تغيير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن غير ترتيب، واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، أما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل، ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضًا في الفعل بالضرب أو القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه، رجع إلى نفسه فيمزق ثوبه ويلطم خده، وربما سقط صريعًا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: «**لا تغضب**» من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني. . ويعين على ترك الغضب استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم في حديث سليمان بن صرد. . وقال الطوفي: أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا اللَّه، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره، فاستحضر أن اللَّه لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه؛ لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه -جل وعلا-، وهو خلاف العبودية. قلت: وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن

يستعيذ من الشيطان لأنه إذا توجه إلى اللَّه في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان أمكنه استحضار ما ذُكر، وإذا استمر الشيطان متلبسًا متمكنًا من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٣٧-٦٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه، اختلاف الليل والنهار، ومعاقبة كلّ واحد منهما صاحبه، والشمس والقمر، لا الشمس تدرك القمر ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر، فإنهما وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان بها لكم بإجراء الله إياهما لكم طائعين له في جريهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سير وجري دون إجراء الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعا أو ضرّا، وإنما الله مسخرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله فاسجدوا، وإياه فاعبدوا دونها، فإنه إن شاء طمس ضوءهما، فترككم حيارى في ظلمة لا تهتدون سبيلا ولا تبصرون شيئًا. . وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم تعبدون الله، وتذللون له بالطاعة، وإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة، ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادتكموه شيئًا سواه، فإن العبادة لا تصلح لغيره ولا تنبغي لشيء سواه»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور

(١) يس: الآية (٤٠).
(٢) جامع البيان (٢٤/ ١٢١).

والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يسئمون: لا يملون عبادة اللَّه تعالى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: فإن تكبر الكفار عن توحيد اللَّه، والسجود له وحده، وإخلاص العبادة له، فالذين عند ربك وهم الملائكة، يسبحون له بالليل؛ أي: يعبدونه وينزهونه دائمًا ليلًا ونهارًا وهم لا يسأمون، أي لا يملون من عبادة ربهم، لاستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم، مع خوفهم منه -جل وعلا- كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[1]. وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين:

أحدهما: أن اللَّه -جل وعلا- إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضًا آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلازمون طاعته دائمًا بالليل والنهار.

والثاني منهما: أن الملائكة يسبحون اللَّه ويطيعونه دائمًا لا يفترون عن ذلك. وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة، قد جاء كل منهما موضحًا في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: فقد ذكره -جل وعلا- في قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾[2].

وأما الثاني منهما: فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى في

(١) الرعد: الآية (١٣).

(٢) الأنعام: الآية (٨٩).

الأنبياء: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] وقوله تعالى في آخر الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون»[3].

قال السعدي: «﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن عبادة اللَّه تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا اللَّه شيئًا، واللَّه غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك»[4].

* * *

(١) الأنبياء: الآيتان (١٩-٢٠).

(٢) الأعراف: الآية (٢٠٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٣٨-١٣٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

⋆ غريب الآية:

خاشعة: ساكنة لا نبات فيها.

اهتزت: ترحت بالنبات.

ربت: انتفخت وعلت قبل أن تنبت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن حجج اللَّه أيضًا وأدلته على قدرته على نشر الموتى من بعد بلاها، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها أنك يا محمد ترى الأرض دارسة غبراء، لا نبات بها ولا زرع.. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات، وجعلها تهتزّ بالزرع من بعد يبسها ودثورها بالمطر الذي أنزل عليها القادر أن يحيي أموات بني آدم من بعد مماتهم بالماء الذي ينزل من السماء لإحيائهم.. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن ربك يا محمد على إحياء خلقه بعد مماتهم، وعلى كل ما يشاء ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يتعذّر عليه فعل شيء شاءه»[1].

قال ابن القيم: «وأما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢٢).

قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة»[١].

* * *

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٨-١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ إن الذين يميلون عن الحق في حججنا وأدلتنا، ويعدلون عنها تكذيبا بها وجحودا لها. . واللحد والإلحاد: هو الميل، وقد يكون ميلا عن آيات اللّه، وعدولا عنها بالتكذيب بها، ويكون بالاستهزاء مكاء وتصدية، ويكون مفارقة لها وعنادا، ويكون تحريفا لها وتغييرا لمعانيها.

ولا قول أولى بالصحة في ذلك مما قلنا، وأن يعم الخبر عنهم بأنهم ألحدوا في آيات اللّه، كما عمّ ذلك ربنا -تبارك وتعالى-.

وقوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ يقول -تعالى ذكره-: نحن بهم عالمون لا يخفون علينا، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا، وذلك تهديد من اللّه -جل ثناؤه- لهم بقوله: سيعلمون عند ورودهم علينا ماذا يلقون من أليم عذابنا. ثم أخبر -جل ثناؤه- عما هو فاعل بهم عند ورودهم عليه، فقال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾. يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا: اليوم في الدنيا يوم القيامة عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خير، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنا من عذاب اللّه لإيمانه باللّه ﷻ؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات اللّه، واتبع أمر اللّه ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذ به كافرا.

وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ وهذا أيضًا وعيد لهم من اللّه خرج مخرج الأمر، وكذلك كان مجاهد يقول. .

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: إن اللّه أيها الناس

بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه منها ولا من غيرها شيء»[١].

قال السعدي: «الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان، إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان لها ما أرادها الله منها.

فتوعَّد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله مستحقًا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم، فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم، فاسلكوا طريق الغيّ المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) الكهف: الآية (٢٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين جحدوا هذا القرآن وكذّبوا به لما جاءهم، وعنى بالذكر القرآن.. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز اللَّه إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلا أو تحريفا، أو تغييرا من إنسي وجني وشيطان مارد.. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.. معناه: لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هو تنزيل من عند ذي حكمة بتدبير عباده، وصرفهم فيما فيه مصالحهم، ﴿حَمِيدٍ﴾ يقول: محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم»[1].

قال السعدي: «أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المُعلي لقدر من اتبعه، ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. والحال ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[2] ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) الحجر: الآية (٩).

موضعه، وينزله منزله. ﴿حَمِيدٍ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملا على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها»[١].

قال ابن عاشور: «وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم:

الوصف الأول: أنه ذِكر؛ أي: يذكِّر الناس كلهم بما يغفلون عنه مما في الغفلة عنه فوات فوزهم.

الوصف الثاني من معنى الذكر: أنه ذكر للعرب وسُمعة حسنة لهم بين الأمم يخلد لهم مفخرة عظيمة، وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٢] وفي قوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إشارة إلى هذا المعنى الثاني.

الوصف الثالث: أنه كتاب عزيز، والعزيز النفيس، وأصله من العزة وهي المنعة؛ لأن الشيء النفيس يدافعَ عنه ويُحمَى عن النبذ فإنه بيِّن الإتقان، وعلوِّ المعاني، ووضوح الحجة، ومثل ذلك يكون عزيزًا، والعزيز أيضًا: الذي يَغلب ولا يُغلب، وكذلك حجج القرآن.

الوصف الرابع: أنه لا يتطرقه الباطل ولا يخالطه صريحُه ولا ضمنيُّه؛ أي: لا يشتمل على الباطل بحال. فمُثِّل ذلك بِـ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ .

والمقصود استيعاب الجهات تمثيلًا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه، فإن صدّه خاتله فأتاه من خلفه، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[٣]. فمعنى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لا يوجد فيه ولا يداخله، وليس المراد أنه لا يُدعَى عليه الباطل.

الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية لأنه تنزيل من حكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٤] فإن كلام الحكيم يأتي محكمًا متقنًا رصينًا لا يشوبه الباطل.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨١-٥٨٢).
(٢) الزخرف: الآية (٤٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٧).
(٤) البقرة: الآية (٢٦٩).

الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، والحميد هو المحمود حمدًا كثيرًا، أي مستحقّ الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد وإنما يحمد الكلام إذْ يكون دليلًا للخيرات وسائقًا إليها لا مطعن في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيرًا لأنه يجده مجلبة للخير الكثير، ويحمد قائله لا محالة خلافًا للمشركين.

وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآيات»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٣٠٨-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات اللَّه، ثم بيّن شرف آيات اللَّه، وعلو درجة كتاب اللَّه، رجع إلى أمر رسول اللَّه ﷺ بأن يصبر على أذى قومه، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[1] فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وفيه وجهان: الأول: وهو الأقرب، أن المراد ما تقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الكتب المنزّلة و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمحقين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للمبطلين، ففوض هذا الأمر إلى اللَّه، واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى اللَّه تعالى. الثاني: أن يكون المراد ما قال اللَّه لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل، وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته، ويخافه أهل معصيته»[2].

قال السعدي: «أي: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة، ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من جنسها؛ بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص للّه وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3] واقتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر

---

(١) فصلت: الآية (٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) يس: الآية (١٥).

تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل ﷺ على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغيّ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن: أصر واستكبر»[1].

قال ابن عاشور: «هذا تسلية للنبي ﷺ بطريق الكناية، وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر من قبله من الرسل بطريق التعريض»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أعجميا: أي: بلغة غير العرب.

وقر: صمم عن سماع القرآن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه. هكذا رُوي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ أي: هلا أنزل بعضها بالأعجمي، وبعضها بالعربي. هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله: أَعْجَمِيٌّ وهو رواية عن سعيد بن جبير، وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ أي: قل يا محمد: هذا

(١) الشعراء: الآيتان (١٩٨-١٩٩).

القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[1].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني: بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[2]. وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم»[3].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابا عربيًا على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنا أعجميًا، بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: هلا بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: كيف يكون محمد عربيًا، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون، فنفى اللَّه تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به،

---

(١) الإسراء: الآية (٨٢).

(٢) البقرة: الآية (١٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٢-١٧٣).

ولا يزيدهم إلا ضلالا، فإنهم إذا ردوا الحق ازدادوا عمى إلى عماهم، وغيًّا إلى غيِّهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم»[١].

قال ابن عاشور: «ومعنى الآية متفرع على ما يتضمنه قوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾[٢] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[٣] من التحدِّي بصفة الأمية كما علمت آنفًا؛ أي: لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية فأنزلنا على الرسول قُرآنًا أعجميًا، وليس للرسول ﷺ علم بتلك اللغة من قبل، لقلبوا معاذيرهم فقالوا: لولا بُينت آياتُه بلغة نفهمها، وكيف يخاطِبنا بكلام أعجمي. فالكلام جار على طريقة الفرض كما هو مقتضى حرف (لو) الامتناعية. وهذا إبانة على أن هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجة، ولا ينقطعون عن المعاذير؛ لأن جدالهم لا يريدون به تطلب الحق، وما هو إلا تعنت لترويج هواهم. ومن هذا النوع في الاحتجاج قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١٩٩﴾[٤]؛ أي: لو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بالعربية، لاشتراك الحجتين في صفة الأمية في اللغة المفروضِ إنزالُ الكتاب بها، إلا أن تلك الآية بينت على فرض أن ينزل هذا القرآن على رسولٍ لا يعرف العربية، وهذه الآية بنيت على فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربي ﷺ بلغة غير العربية. وفي هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد ﷺ للعرب والعجم، فلم يكن عجبًا أن يكون الكتاب المنزل عليه بلغة غير العرب، لولا أن في إنزاله بالعربية حكمةً علمها الله، فإن الله لما اصطفى الرسول ﷺ عربيًا وبعثه بين أمة عربية كان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٤-٥٨٥).

(٢) فصلت: الآية (٣).

(٣) فصلت: الآية (٦).

(٤) الشعراء: الآيتان (١٩٨-١٩٩).

أحقُّ اللغات بأن ينزل بها كتابه إليه العربية، إذ لو نزل كتابه بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلها في استحقاق نزول الكتاب بها، فأوقع ذلك تحاسدًا بينها؛ لأن بينهم من سوابق الحوادث في التاريخ ما يثير الغيرة والتحاسد بينهم، بخلاف العرب إذ كانوا في عزلة عن بقية الأمم، فلا جرم رُجحت العربية؛ لأنها لغة الرسول ﷺ، ولغة القوم المرسل بينهم، فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوهم لا يفقهون الكتاب المنزل إليهم.

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات لفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية؛ لأن العربية أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة، وحسنَ أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة. ثم العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم، وتبيين معاني القرآن لهم»[١].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] و(من) ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل اللَّه سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن»[٣].

قال محمد تقي الدين الهلالي: «لا شك أن القرآن كان لأصحاب رسول اللَّه ﷺ والتابعين وسائر أهل القرون المفضلة هدى وشفاء، هداهم اللَّه به من الضلال، وشفى به صدورهم مما كان فيها من الأمراض المعنوية، وفيه هدى وشفاء لكل من اتبعه من الجماعات والأفراد، وكل من عرف تاريخ الإسلام والشعوب التي سعدت به يعلم هذا يقينا، ويعلم أن سبب شقائها هو الإعراض عنه، ومن جملة المحرومين مما فيه من الهدى والشفاء المقلدون وأصحاب الطرائق»[٤].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٢).

(٢) الإسراء: الآية (٨٢).

(٣) الداء والدواء (ص: ٧).

(٤) سبيل الرشاد (٤/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يا محمد يعني التوراة، كما آتيناك الفرقان، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يقول: فاختلف في العمل بما فيه الذين أوتوه من اليهود ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: ولولا ما سبق من قضاء اللّٰه وحكمه فيهم أنه أخر عذابهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاكه المبطلين منهم.. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يقول: وإن الفريق المبطل منهم لفي شكّ مما قالوا فيه ﴿مُرِيبٍ﴾ يقول: يريبهم قولهم فيه ما قالوا؛ لأنهم قالوا بغير ثبت، وإنما قالوه ظنًّا»[(١)].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن اللّٰه تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة، بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه»[(٢)].

وهذه الآية -يقول ابن عاشور-: «اعتراض بتسلية للنبي ﷺ على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنه ليس بأوحدَ في ذلك، فقد أوتي موسى التوراة

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٥-٥٨٦).

فاختلف الذين دعاهم في ذلك، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

والمقصود الاعتبار بالاختلاف في التوراة، فإنه أشد من الاختلاف في القرآن، فالاختلاف في التوراة كان على نوعين: اختلاف فيها بين مؤمن بها وكافر، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه وبعض بني إسرائيل مثلُ قارون، ومثل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة، واختلاف بين المؤمنين بها اختلافًا عطلوا به بعض أحكامها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[1]، وكلا الاختلافين موضع عبرة وأسوة لاختلاف المشركين في القرآن. وهذا ما عصم اللَّه القرآن من مثله إذ قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2] فالتسلية للرسول ﷺ بهذا أوقع، وهذا ناظر إلى قوله آنفًا: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[3] .. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ هذا متعلق بالذين كذبوا بالقرآن من العرب؛ لأن قوله: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ يقتضي أن اللَّه أخر القضاء بينهم وبين المؤمنين إلى أجل اقتضته حكمتُه، فأما قوم موسى فقد قضَى بينهم باستئصال قوم فرعون، وبتمثيل الأشوريين باليهود بعد موسى، وبخراب بيت المقدس، وزوال ملك إسرائيل آخرًا. وهذا الكلام داخل في إتمام التسلية للرسول ﷺ والمؤمنين في استبطاء النصر»[4].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٢) الحجر: الآية (٩).
(٣) فصلت: الآية (٤٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٧-٣١٨).

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من عمل بطاعة اللَّه في هذه الدنيا فائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل؛ لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجب في المعاد من اللَّه الجنة، والنجاة من النار. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ يقول: ومن عمل بمعاصي اللَّه فيها، فعلى نفسه جنى؛ لأنه أكسبها بذلك سخط اللَّه، والعقاب الأليم. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما ربك يا محمد بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه؛ بل لا يعاقب أحدا إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحقه به منه، واللَّه أعلم»[1].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد، ذكره في مواضع أخر، كقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾[2] الآية. وقوله في الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[3] الآية. وقوله في الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾[4] الآية. وقوله في سورة ق: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾[5].

قال السعدي: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو العمل الذي أمر اللّه به ورسوله

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ١٣٠).
(٢) آل عمران: الآيتان (١٨٢-١٨٣).
(٣) الأنفال: الآيتان (٥١-٥٢).
(٤) الحج: الآيتان (١٠-١١).
(٥) ق: الآية (٢٩).

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيُحمِّل أحدًا فوق سيئاته»[1].

قال شيخ الإسلام: «لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه، أو يجعله لغيره، ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره؛ بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وهذا كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[2] فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وكلا القولين حق على ظاهره»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي الظلم عن اللَّه تعالى

* عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه -تبارك وتعالى- أنه قال: **«يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٦).

(٢) النجم: الآيات (٣٦-٣٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٢).

إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ العثيمين: «يقول -جل وعلا-: «**إني حرمت الظلم على نفسي**» أي: لا أظلم أحدا لا بزيادة سيئات لم يعملها، ولا بنقص حسنات عملها، بل هو سبحانه وتعالى حكم عدل محسن، فحكمه وثوابه لعباده دائرين بين أمرين: بين فضل وعدل، فضل لمن عمل الحسنات، وعدل لمن عمل السيئات، وليس هناك شيء ثالث وهو الظلم.

أما الحسنات فإنه سبحانه وتعالى يجازي الحسنة بعشرة أمثالها، من يعمل حسنة يثاب بعشر حسنات، أما السيئة فبسيئة واحدة فقط، قال اللَّه تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[٢] لا يظلمون بنقص ثواب الحسنات، ولا يظلمون بزيادة جزاء السيئات؛ بل ربنا ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[٣] ظلما بزيادة في سيئاته، ولا هضما بنقص حسناته.

وفي قوله تعالى: «**إني حرمت الظلم على نفسي**» دليل على أنه -جل وعلا- يحرم على نفسه ويوجب على نفسه، فمما أوجب على نفسه الرحمة، قال اللَّه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾[٤] ومما حرم على نفسه الظلم، وذلك لأنه فعال لما يريد يحكم بما يشاء، فكما أنه يوجب على عباده ويحرم عليهم يوجب على نفسه ويحرم عليها -جل وعلا-؛ لأنه له الحكم التام المطلق»[٥].

وقد تقدمت فوائده في سورة يونس الآية (٤٤)، وسورة النمل (٤٠)، وسورة الزمر الآية (٧).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧)، بنحوه بإسناد ضعيف كما قال الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه رقم (٩٢٩).

(٢) الأنعام: الآية (١٦٠).

(٣) طه: الآية (١١٢).

(٤) الأنعام: الآية (٥٤).

(٥) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أكمامها: الأكمام أوعية التمر، واحدتها كِمَّةٌ.

آذَنَّاكَ: أعلمناك. يقال: آذن، يؤذن: إذا أعلم. قال الشاعر:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة -حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»[1]، وكما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾﴾[2]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾[3].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[4]، وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[5]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[6].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.
(٢) النازعات: الآية (٤٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٤) الأنعام: الآية (٥٩).
(٥) الرعد: الآية (٨).
(٦) فاطر: الآية (١١).

رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إلى اللَّه يرد العالمون به علم الساعة، فإنه لا يعلم ما قيامها غيره. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ يقول: وما تظهر من ثمرة شجرة من أكمامها التي هي متغيبة فيها، فتخرج منها بارزة. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ يقول: وما تحمل من أنثى من حمل حين تحمله، ولا تضع ولدها إلا بعلم من اللَّه، لا يخفى عليه شيء من ذلك.. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويوم ينادي اللَّه هؤلاء المشركين به في الدنيا الأوثان والأصنام: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي؟. ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ يقول: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يقول: قال هؤلاء المشركون لربهم يومئذ: ما منا من شهيد يشهد أن لك شريكا»[٢].

قال صديق حسن خان: «فيه دليل على أن أصحاب الكشف والكهان وأهل النجوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف، أو وهم خفيف، قد لا يصيب، وعلم اللَّه هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللَّه سبحانه وتعالى المشركين، وذلك يوم القيامة، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب، وهذا على طريقة التهكم بهم والتقريع لهم، وأضافهم إلى نفسه على زعمهم الباطل»[٣].

قال السعدي: «هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمهم إلى اللَّه تعالى، ويقرون بالعجز عنه الرسل والملائكة وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٣-١٧٤).
(٢) جامع البيان (٢٥/ ١).
(٣) فتح البيان (١٢/ ٢٦٤).

لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علما تفصيليًا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فكيف سوَّى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم، وجادلتم على ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم، وشركتهم مع الله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استئثار اللَّه تعالى بعلم الساعة

* عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة: معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق لنا عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ﷺ داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم: أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد اللَّه بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل اللَّه منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: «بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٦-٥٨٧).

فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». **قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال:** «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أمارتها؟ قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة، العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»، قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا ثم قال لي: يا عمر، «**أتدري من السائل؟**» قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1].

★ **غريب الحديث:**

أول من قال في القدر: معناه: أول من قال بنفي القدر، فابتدع وخالف الصواب الذي عليه أهل الحق.

فوُفِّق لنا ابن عمر: هو بضم الواو وكسر الفاء المشددة، قال صاحب التحرير: معناه: جُعل وفقًا لنا، وهو من الموافقة التي هي كالالتحام، يقال: أتانا لتيفاق الهلال وميفاقه؛ أي: حين أهلّ، لا قبله ولا بعده، وهي لفظة تدل على صدق الاجتماع والالتئام والموافقة والمصادفة.

فاكتنفته أنا وصاحبي: يعني: صرنا في ناحيتيه، ثم فسره فقال: أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله. وكنفا الطائر: جناحاه.

يتقفّرون العلمَ: هو بتقديم القاف على الفاء، ومعناه: يطلبونه. هذا هو المشهور. وقيل: معناه: يجمعونه.

الأمر أُنُف: هو بضم الهمزة والنون: أي: مُستأنَف، لم يسبق به قدر، ولا علم

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨) واللفظ له، أبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، الترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

من اللَّه تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه، وكذب قائله، وضل وافترى، عافانا اللَّه وسائر المسلمين.

أماراتها: أي: علاماتها.

الأمة: الأمَة هنا: هي الجارية المستولدة.

ربتها: سيدتها ومالكتها.

العالة: جمع عائل، هو الفقير. والعيلة: الفقر. يقال: عال الرجلُ يعيل عيلة: إذا افتقر.

مليا: أي: وقتا طويلا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: «فقول جبريل ﷺ: «**أخبرني عن الساعة، فقال النبي ﷺ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**» يعني: أن علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء، وهذا إشارة إلى أن اللَّه تعالى استأثر بعلمها، ولهذا في حديث أبي هريرة[1] قال النبي ﷺ: «**في خمس لا يعلمهن إلا اللَّه**، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾[2] وقال اللَّه ﷻ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾[3]»[4].

قال القرطبي: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها؛ إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾[5] و﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[6] وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤٢٦)، والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩/ ٩)، وأبو داود مختصرا (٥/ ٧٤/ ٤٦٩٨)، والنسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦)، وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤).

(٢) لقمان: الآية (٣٤).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٥).

(٥) النازعات: الآية (٤٢).

(٦) الأحزاب: الآية (٦٣).

النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا اللَّه، يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأخر، فإن مقصودها استخراج الأجوبة عنها، ليستعملها السامعون، ويعمل بها العاملون»[١].

قال الأبي: «فإن قلت: إذا كان المعنى نفي العلم عن الجميع فالتركيب لا يعطيه، بل يقتضي العكس؛ لأن نفي الأفضلية في شيء يقتضي التساوي في مطلق ثبوته، فإذا قلت: ما زيد بأعلم من عمرو، فالمعنى: إنهما شريكان في العلم وأن زيدًا لا يزيد. قلت: لا يقتضي التساوي في أصل الثبوت، بل هو أعم من التساوي في الثبوت أو النفي، وحمل الحديث على التساوي في النفي وإن كان الأعم لا إشعار له بالأخص المعين؛ لأن عدم إشعاره بذلك إنما هو باعتبار ذات الأعم، وإلا فقد تصحب الأعم قرينة لفظ أو سياق يكون بحسبها يشعر بأحد أخصائه على التعيين، وهو هنا كذلك. والقرينة اللفظية هي قوله -في رواية أبي هريرة-: «في عداد خمس» أي: في عداد الخمس التي لا يعلمها إلا اللَّه تعالى، والسياقة هي أن الأصل في السائل عدم العلم، وجبريل -عليه السلام- هنا سائل، فالمعنى: أنت لا تعلم، وأنا لست بأعلم منك، فكلانا لا يعلم. وقيل في الجواب: إنه إنما نفى الأعلمية بوقتها على التعيين، ولهما علم بأن لها مجيئًا في وقت ما، وهو العلم المشترك»[٢].

قال ابن هبيرة: «وفيه أيضًا أن أشراط الساعة إذا علمها الإنسان كانت مما يزيد حذره، والذي أراه في حكمة اللَّه ﷻ في إخفاء علم الساعة أنها مقام إنصاف لكل مظلوم، وارتجاع لكل مغصوب، وإيتاء كل ذي فضل فضله، وإيصال كل ذي حق حقه، ولقاء كل مشوق لمن يشتاقه، فهي من حيث اقتضاء وعد اللَّه وعدله كالمخوف هجومًا صباحًا مساء من حيث حكمة اللَّه في خلقه، وإنها هي الواحدة القاضية، ليس بعدها غيرها، وإن الخلائق محبوس أولهم ليلحق آخرهم، وإن عظمة اللَّه سبحانه وتعالى، وما أوسع في خلقه علمها، لا بد أن تكون وتوجد، فإنه لا بد من كون ذلك ووجوده؛ ليتكامل الخلائق، وليجتمع الآخرون بالأولين، ويشمل الحشر من عدد الخلق لما لا يتعرض فكر مخلوق للطمع في حصره؛ إظهارًا

(١) المفهم (١/ ١٥٤-١٥٥).
(٢) إكمال إكمال المعلم (١/ ١١٦-١١٧).

لملك اللَّه ﷻ وقوة سلطانه، بحيث إن حال يوم القيامة في العظمة يكون كل لحظة منه مضاهية كل عظمة كانت في الدنيا، ويثبت من عظمة الرب سبحانه وتعالى في قلوب خلقه إذا شاهدوا يوم القيامة، ورأوا إحياء الموتى، والتقاء الأولين والآخرين، وأُحيي كل عظم رفات، وكل دابة وكل ذي جناح، وأخبر اللَّه ﷻ كل واحد من خلقه بكل حركة تحركها، وسكنة سكنها، في مدة حياته، وأنه سبحانه لم يعزب عن علمه مثال ذرة، ولا عن قدرته صغيرة ولا كبيرة، وقامت سوق الحق، وجيء بالنبيين والشهداء، وأشرقت الأرض بنور ربها، ورأى المؤمنون انتصار حزب الحق يومئذ، وبان صدق ما آمنوا به في دنياهم، وخسر هنالك الكافرون، وخزي المبطلون، وفاز المتقون، فذلك يقتضي زيادة التوقع، وأمة محمد ﷺ قد انتهى إليهم الأمر، واستتب الشرع، ولم يبق إلا العمل به، ولقد كان من أحسن ما حافظت به القلوب على عبادة اللَّه تعالى، وأن لا يطول عليها الانتظار إخفاء وقت علم الساعة، فكل وقت لا يؤمن أن تقوم فيه الساعة، وكل زمان بين يديها فقد أُعطيناه للعمل، ولذلك قال اللَّه تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾[1]، وأي يومٍ يومُ القيامة!»[2].

وانظر فوائد أخرى متعلقة بهذا الموضوع في سورة لقمان الآية (٣٤)، وأخرى ستأتي بحول اللَّه في سورة الجن الآية (٢٦).

* * *

(١) الشورى: الآية (١٨).

(٢) الإفصاح (١/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

محيص: مفر ومحيد، يقال: حاص عنه إذا حاد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص؛ أي: ليس لهم مفر ولا ملجأ. والظاهر أن المحيص مصدر ميمي، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب.

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم، هو التحقيق إن شاء الله؛ لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾[4].. ومعلوم أن الظن يطلق في لغة العرب التي نزل بها القرآن على معنيين:

أحدهما: الشك كقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[5]، وقوله تعالى عن الكفار: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[6].

والثاني: هو إطلاق الظن مرادًا به العلم واليقين، ومنه قوله تعالى هنا: «﴿وَظَنُّوا۟

---

(١) السجدة: الآية (١٢). (٢) مريم: الآية (٣٨).
(٣) ق: الآية (٢٢). (٤) الأنعام: الآية (٣٠).
(٥) يونس: الآية (٣٦). (٦) الجاثية: الآية (٣٢).

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: أيقنوا أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص، أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[(١)] أي: أيقنوا ذلك وعلموه، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾[(٤)]، فالظن في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين»[(٥)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وضلّ عن هؤلاء المشركين يوم القيامة آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، فأخذ بها طريق غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تدفع عنهم شيئًا من عذاب اللَّه الذي حلّ بهم.

وقوله: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يقول: وأيقنوا حينئذ ما لهم من ملجأ: أي: ليس لهم ملجأ يلجئون إليه من عذاب الله»[(٦)].

قال السعدي: «﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ من دون اللَّه؛ أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير اللَّه، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند اللَّه، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك باللَّه غيره، بينها اللَّه لعباده، ليحذروا الشرك به»[(٧)].

* * *

(١) الكهف: الآية (٥٣).
(٢) البقرة: الآية (٤٦).
(٣) البقرة: الآية (٢٤٩).
(٤) الحاقة: الآيتان (١٩-٢٠).
(٥) أضواء البيان (٧/ ١٤٣-١٤٤).
(٦) جامع البيان (٢٥/ ٢).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٧-٥٨٨).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا يمل الكافر باللَّه من دعاء الخير؛ يعني: من دعائه بالخير، ومسألته إياه ربه. والخير في هذا الموضع: المال وصحة الجسم، يقول: لا يملّ من طلب ذلك. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ يقول: وإن ناله ضرّ في نفسه من سُقم أو جهد في معيشته، أو احتباس من رزقه ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يقول: فإنه ذو يأس من روح اللَّه وفرجه، قنوط من رحمته، ومن أن يكشف ذلك الشرّ النازل به عنه»[1].

قال صديق حسن خان: «﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يمل من دعاء الخير لنفسه وجلبه إليه، ولا يزال يسأل ربه المال، والخير هنا المال والصحة والسلطان والرفعة. قال السدي: والإنسان هنا يراد به الكافر، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف، والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب، فلا ينافيه خروج خلص العباد، وقرأ ابن مسعود: من دعاء المال.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: البلاء والشدة والفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من روح اللَّه ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته، واليأس من صفة القلب هو قطع الرجاء، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن، والحال المحلي يقتضي ترادفهما، وبه قال بعضهم، فالجمع بينهما للتأكيد، وقيل يؤوس من إجابة دعائه، قنوط بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغة تدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط، وبولغ فيه من طريقين من طريق

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢).

بناء فعول كما أشرنا، ومن طريق التكرير مع ما في القنوط من ظهور أثر اليأس؛ لأن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي: يقطع الرجاء من فضل اللَّه وروحه، وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله اللَّه من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لا يمل دائمًا من دعاء اللَّه بالفوز والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل لم يزل طالبًا للزيادة.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: المكروه كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ أي: ييأس من رحمة اللَّه تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يحب ويطلب. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب شكروا اللَّه تعالى، وخافوا أن تكون نعم اللَّه عليهم استدراجًا وإمهالا، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا ورجوا فضل ربهم فلم ييأسوا»[3].

* * *

---

(١) يوسف: الآية (٨٧).

(٢) فتح البيان (١٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٨-٥٨٩).

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «أي : إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة ليقولن : هذا لي ، إني كنت أستحقه عند ربي ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي : يكفر بقيام الساعة ؛ أي : لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر ويبطر ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[1] .

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي : ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسننّ إلي ربي ، كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله ﷻ ، مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال تعالى : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال»[2] .

قال السعدي : «﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ أي : الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي : بعد ذلك الشر الذي أصابه ، بأن عافاه الله من مرضه ، أو أغناه من فقره ، فإنه لا يشكر الله تعالى ، بل يبغي ويطغى ، ويقول : ﴿هَٰذَا لِى﴾ أي : أتاني لأني له أهل ، وأنا مستحق له ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا إنكار منه للبعث ، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له . ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي : على تقدير إتيان الساعة ، وأني سأرجع إلى ربي ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ ، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا فإنها ستحصل لي في الآخرة ، وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم ، فلهذا توعده بقوله : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟

---

(١) العلق : الآيتان (٦-٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٤) .

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد جدًّا»[1].

قال الرازي: «بيّن تعالى أن هذا الذي صار آيسًا قانطًا لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ فإن هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة، والمذاهب الباطلة، الموجبة للكفر والبعد عن اللَّه تعالى. فأولها: أنه لا بد وأن يقول هذا لي، وفيه وجهان الأول: معناه أن هذا حقي وصل إلي؛ لأني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل، وأعمال البر والقربة من اللَّه، ولا يعلم المسكين أن أحدًا لا يستحق على اللَّه شيئًا، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عاريًا عن الفضائل، فهذا الكلام ظاهر الفساد، وإن كان موصوفًا بشيء من الفضائل والصفات الحميدة، فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل اللَّه وإحسانه، وإذ تفضل اللَّه بشيء على بعض عبيده، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سببًا لأن يستحق على اللَّه شيئًا آخر، فثبت بهذا فساد قوله: إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي. والوجه الثاني: أن هذا لي أي: لا يزول عني ويبقى علي وعلى أولادي وذريتي.

والنوع الثاني من كلماتهم الفاسدة أن يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول: إنها لي، وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والنوع الثالث: من كلماتهم الفاسدة أن يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل، وبتقدير أن يكون حقًّا فإن لي عنده للحسنى، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه: الأول: أن كلمة (إن) تفيد التأكيد. الثاني: أن تقديم كلمة (لي) تدل على هذا التأكيد. الثالث: قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده، كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده، فلو قلت: إن لي عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك. والرابع: اللام في قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ تفيد التأكيد. الخامس: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ يفيد الكمال في الحسنى.

ولما حكى اللَّه تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٨٩).

كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: نظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه، وعلى عكس ما تصوروه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[1] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من كفران النعم والترغيب في شكرها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر، هو شك في ذلك: أي: الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر البقر، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب هذا عني، قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعرًا حسنًا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملًا، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد اللَّه إلي بصري فأبصر به الناس. قال: فمسحه، فرد اللَّه إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدًا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت به الحبال في سفره فلا بلاغ اليوم إلا باللَّه ثم بك، أسألك -بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال- بعيرًا أتبلغ به في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر. فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك اللَّه إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا**

---

(١) الفرقان: الآية (٢٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٣٨-١٣٩).

فصيرك اللَّه إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن السبيل وتقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلا باللَّه ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، وقال له: قد كنت أعمى فرد اللَّه بصري وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فواللَّه لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي اللَّه عنك، وسخط على صاحبيك»[1].

★ **غريب الحديث:**

بدا لله: أي: سبق في علم اللَّه فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافيا؛ لأن ذلك محال في حق اللَّه تعالى.

ناقة عُشَراء: هي التي مضى لها من حملها عشرة أشهر، وجمعها: عِشار، وكانت أنفس أموال العرب لقرب ولادتها، ورجاء لبنها.

شاة والدًا: أي: ذات ولد، ويقال: حامل.

فأنتج هذان: أي: صاحب الإبل والبقر. وأنتج في مثل هذا شاذّ، والمشهور في اللغة: نُتِجت الناقة بضم النون، ونَتَجَ الرجلُ الناقةَ: أي: حمل عليها الفحل. وقد سُمع: أنتجتِ الفرس: إذا ولدت، فهي نَتُوج. قال النووي: وفي رواية: «فَنَتَجَ» معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة: كالقابلة للمرأة.

وولّد هذا: أي: صاحب الشاة، وهو بتشديد اللام.

أتبلّغ به: من البُلغة: وهي الكفاية، والمعنى: أتوصل به إلى مرادي.

لا أَجْهَدُكَ: كذا لأكثر الرواة، ومعناه: لا أبلغ منك جهدًا ومشقة في صنعك شيئًا أخذته لله. قال صاحب «الأفعال»: جَهَدتُهُ وأجهدته: بلغتُ مشقتَهُ، وقيل: معنى لا أجهدك: لا أقلل لك فيما تأخذ. والجُهد: ما يعيش به المُقِلّ، ومنه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[2] وعند ابن ماهان: لا أحمدك، بالحاء المهملة والميم، من الحمد، وكذا رواه البخاري، ومعناه: لا أحمدك في أخذ شيء، أو إبقائه لطيب نفس بما تأخذ، كما قال المرقش:

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٦٢٠-٦٢١/ ٣٤٦٤)، مسلم (٤/ ٢٢٧٥/ ٢٩٦٤).

(٢) التوبة: الآية (٧٩).

لـيـس عـلـى طـول الـحـيـاة نـدم

أي: ليس على فوت الحياة ندم.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**إنما ورثت هذا كابرًا عن كابر**»: يعني: أنه ورث ذلك المال عن أجداده الكبراء، فحمله بخله على نسيان منة اللَّه تعالى وعلى جحد نعمه وعلى الكذب، ثم أورثه ذلك سخط اللَّه الدائم، وكل ذلك بشؤم البخل، واعتبر بحال الأعمى؛ لما اعترف بنعمة اللَّه تعالى عليه، وشكره عليها، وسمحت نفسه بها، ثبتها اللَّه عليه، وشكر فعله، ورضي عنه، فحصل على الرتب الفاخرة، وجُمعت له نعم الدنيا والآخرة»[1].

قال ابن علان: «قوله: «**وهيئته**» وسقطت هذه المعطوفة عند صاحب المشكاة في روايته المعزوة للصحيحين، قال شارحها ابن حجر: لم يقل هنا: «**وهيئته**» اختصارًا أو إشارة إلى شدة لؤم الأبرص وغباوته، فإنه مع كونه أتى له في صورته وهيئته التي أتاه عليها أولًا، وحصل له منه ما حصل من الشفاء والغنى، أنكر معرفته، وتجاهل به، وتفاخر عليه بأنه إنما جاءه المال من أبيه، فضمّ إليه كذبه قبائح تنبئ عن أنه انتهى في اللؤم والحمق إلى غاية لم يصلها غيره»[2].

قال الحافظ: «فيه التحذير من كفران النعم والترغيب في شكرها والاعتراف بها وحمد اللَّه عليها، وفيه فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم مآربهم، وفيه الزجر عن البخل؛ لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة اللَّه تعالى»[3].

قال النووي: «وفيه التحدث بنعمة اللَّه تعالى وذم جحدها، واللَّه أعلم»[4].

قال الشيخ العثيمين: «تفاوت بني آدم في شكر نعمة اللَّه ونفع عباد اللَّه، فإن الأبرص والأقرع وقد أعطاهم المال الأهم والأكبر، ولكن جحدا نعمة اللَّه قال:

---

(١) المفهم (٧/ ١١٩).

(٢) دليل الفالحين (١/ ٢٤١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٢٣).

(٤) شرح مسلم (١٨/ ٧٨).

«إنما ورثنا هذا المال كابرا عن كابر» وهم كذبة في ذلك، فإنهم كانوا فقراء وأعطاهم الله المال.

أما الأعمى فقد شكر نعمة الله ونفع العباد واعترف لله بالفضل، ولذلك وفق وهداه الله وقال للملك: «خذ ما شئت ودع ما شئت».

إثبات الرضا والسخط لله سبحانه وتعالى وهما من الصفات التي يجب أن نثبتها لربنا سبحانه وتعالى؛ لأنه وصف نفسه بها.

ففي القرآن الكريم: الرضا: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1] وفي القرآن: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾[2] وفي القرآن الكريم الغضب: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[3] وهذه الصفات وأمثالها يؤمن بها أهل السنة والجماعة بأنها ثابتة لله على وجه الحقيقة لكنها لا تشبه صفات المخلوقين كما أن الله لا يشبه المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين»[4].

قال ابن القيم: «أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة؛ بل كان جاهلا بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له»[5].

* * *

(١) التوبة: الآية (١٠٠).

(٢) المائدة: الآية (٨٠).

(٣) النساء: الآية (٩٣).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦٦-٢٦٧).

(٥) طريق الهجرتين (ص: ٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١﴾

★ **غريب الآية:**

نئا: تباعد من نأى ينأى عن الشيء: إذا بعد قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خِلْتُ أن المنْتَأى عنك واسعُ

عريض: أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾[١]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الشدة، ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾[٢] الآية»[٣].

قال ابن عاشور: «هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك؛ بل هو منبث في جميع النّاس على تفاوتٍ إلاَّ من عصم اللَّه، وهو توصيف لنَزَق النفْس الإنساني وقلّة ثباته، فإذا أصابته السراء طغا وتكبر، ونسِي شكر ربّه نسيانًا قليلًا أو كثيرًا، وَشُغل بلذاته، وإذا أصابته الضراء لم يصبر وجزع، ولجأ إلى ربّه يُلحّ بسؤال كشف الضراء عنه سريعًا. وفي ذكر هذا الضرب تعرُّض لفعل اللَّه وتقديره الخَلتين السراء والضراء. وهو نقد لسُلوك الإنسان في

(١) الذاريات: الآية (٣٩).

(٢) يونس: الآية (١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٥).

الحالتين، وتعجيب من شأنه. ومحل النقد والتعْجيب من إعراضه ونأيه بجانبه واضح، وأمّا محل الانتقاد والتعجيب من أنّه ذو دُعاء عريض عندما يمسه الشرّ، فهو من حيث لم يتذكر الإقبالَ على دعاء ربّه إلا عندما يَمَسُّه الشر، وكان الشأن أن لا يغفل عن ذلك في حال النعمة، فيدعو بدوامها ويشكر ربّه عليها، وقبولِ شكره؛ لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة مسّ الضر»[1].

وقال أيضًا: «والدّعاء إلى اللَّه من شيم المؤمنين، وهم متفاوتون في الإكثار منه والإقلال، على تفاوت ملاحظة الحقائق الإلهيّة. وتَوجه المشركين إلى اللَّه بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تدينهم بالحنيفية، قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام، وتتأصل فيهم، فإذا دعوا اللَّه غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائد شركهم»[2].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكذّبين بما جئتهم به من عند ربك من هذا القرآن ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِن كَانَ﴾ هذا الذي تكذبون به ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ألستم في فراق للحق وبعد من الصواب، فجعل مكان التفريق الخبر، فقال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ إذا كان مفهوما معناه.

وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: قل لهم من أشد ذهابا عن قصد السبيل، وأسلك لغير طريق الصواب، ممن هو في فراق لأمر اللَّه وخوف له، بعيد من الرشاد»[1].

قال ابن عاشور: هذه الآية «استئناف ابتدائي متصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[2]. فهذا انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة، وهو بيان حقّيّة القرآن وصدقه وصدق من جاء به، وهذا استدعاء ليُعمِلُوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه وانتساقه، وتأييد بعضه بعضًا، وكونه مؤيّدًا للكتب قبلَه، وكونِ تلك الكتب مؤيدة له.

والمعنى: ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادرًا عن نظر وتمحيص يحصّل اليقين، وإنما جازفتم به قبل النظر، فلو تأملتم لاحتمل أن يُنتج لكم التأمل أنه من عند اللَّه، وأن لا يكون من عنده، فإذا فُرض الاحتمال الأول فقد أقحمتم أنفسكم في شقاق قويّ. وهذا من الكلام المنصِف، واقتُصر فيه على ذكر الحالة

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤).

(٢) فصلت: الآيات (٤١-٤٥).

المنطبقة على صفاتهم تعريضًا بأن ذلك هو الطرَف الرّاجح في هذا الإجمال، كأنه يقول: كما أنكم قضيتم بأنه ليس من عند اللَّه وليس ذلك معلومًا بالضرورة، فكذلك كونه من عند اللَّه، فتعالوا فتأملوا في الدّلائل، فهم لمّا أنكروا أن يكون من عند اللَّه وصدوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبر فيه، فقد أعملوا شهوات أنفسهم، وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم أن يتدبروه، حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه، وهم إذا تدبروه لا يلبثون أن يعلموا صدقه، فاستدعاهم اللَّه إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند اللَّه، فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل، كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حقّت عليهم كلمات الوعيد.

و(إن) الشرطية شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه، فالإتيان بها إرخاء للعنان معهم لاستنزال طائر إنكارهم حتى يقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن.

ويشبه أن يكون المقصود بهذا الخطاب والتشكيك أولًا دَهماءَ المشركين الذين لم ينظروا في دلالة القرآن، أو لم يطيلوا النظر، ولم يبلغوا به حد الاستدلال. وأما قادتهم وكبراؤهم وأهل العقول منهم فهم يعلمون أنه من عند اللَّه، ولكنّهم غلب عليهم حبّ الرئاسة، على أنهم متفاوتون في هذا العلم إلى أن يبلغ بعضهم إلى حدّ قريب من حالة الدّهماء، ولكن القرآن ألقى بينهم هذا التشكيك تغليبًا ومراعاةً لاختلاف درجات المعاندين، ومجارَاةً لهم ادعاءهم أنّهم لم يهتدوا نظرًا؛ لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾[1]»[2].

قال محمد مكي الناصري: «ورد استفسار القرآن الكريم للكافرين به، ماذا يكون عليهم موقفهم عندما يتأكد لهم أنه من عند اللَّه، ويجدون أنفسهم قد ضيعوا فرصة لن تعود، إذ كفروا به وأعرضوا عنه، ويدركون أنهم أخسر الناس صفقة، إذ كانوا أشد الناس ضلالا وخبالا»[3].

* * *

(١) فصلت: الآية (٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦-١٧).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٣٤-٤٣٥).

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الآفاق: النواحي، واحدتها أُفق وأُفُق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند اللَّه ﷻ على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلّت بهم، نصر اللَّه فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحِزْبَه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع -تبارك وتعالى-. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته، وحِيَله وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار، عن شيخه أبي جعفر القرشي:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ

أنتَ الذي يُمْسِي وَيُصْبِحُ في ... الدنيا وكُلّ أمُوره عِبَرُ

أنتَ المصرّفُ كانَ في صِغَرٍ ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ

أنتَ الذي تَنْعَاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ

أنتَ الذي تُعْطَى وَتُسْلَبُ لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ

أنْـتَ الـذي لا شَـيءَ مـنْـه لَـهُ وَأحَـقُّ مـنْـه بِـمَـالـه الـقَـدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي: كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمدًا صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾[1]»[2].

قال شيخ الإسلام: «الطريق العياني هو أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ أي: أولم يكف بشهادته المخبرة بما علمه وهو الوحي الذي أخبر به الرسول، فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به، فإذا أخبر به وشهد كان ذلك كافيا، وإن لم يرى المشهود به، وشهادته قد علمت بالآيات التي دل بها على صدق الرسول، فالعالم بهذه الطريق لا يحتاج أن ينظر الآيات المشاهدة التي تدل على أن القرآن حق؛ بل قد يعلم ذلك بما علم به أن الرسول صادق فيما أخبر به عن شهادة الله تعالى وكلامه»[3].

قال ابن القيم: «أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء. فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه، ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾[4] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر، والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه»[5].

---

(١) النساء: الآية (١٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٥-١٧٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٨٩-١٩٠).

(٤) إبراهيم: الآية (١٠).

(٥) الفوائد (ص: ٣٢-٣٣).

قال محمد مكي الناصري: «وعد كتاب اللَّه المؤمنين خاصة وبني الإنسان عامة بأن الحق الذي قامت على أساسه السموات والأرضون، وقامت على أساسه عقيدة القرآن وشريعته وأخلاقه، سيزداد جلاء وظهورا بمرور الأيام، وأن اللَّه تعالى سيرفع الحجاب عن الفكر الإنساني، وسيلهمه أن يكتشف من خفايا الطبيعة وخبايا النفس ما يكون سندا لذلك الحق، ودعامة للإيمان بخالق الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، وقد أنجز اللَّه وعده لبني الإنسان، بمقتضى ما وعد به عند نزول القرآن، فكشف لهم خلال الأربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام، ما لم تعرفه البشرية من قبل في عشرات القرون وآلاف السنين، ولا يزال باب الكشف مفتوحا بإذن اللَّه، وفي كل كشف آية جديدة تدل على صدق كتاب الله»[1].

قال ابن عاشور: «وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرتْ بالوعد بحصول النصر له ولدينه، وذلك بما يسَّر اللَّه لرسوله ﷺ ولخلفائه مِن بعده في آفاق الدّنيا والمشرق والمغرب عامة وفي بَاحة العرب خاصة من الفتوح وثباتها، وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمْثالها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين، إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض، والتّاريخ شاهد بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمر خارق للعادة، فيتبيّن أن دين الإسلام هو الحق، وأن المسلمين كلما تمسّكوا بعُرى الإسلام لَقُوا من نصر اللَّه أمرًا عجيبًا يشهد بذلك السابق واللاحق، وقد تحدّاهم اللَّه بذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[2] ثم قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾[3].

ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة، فتقلّدوه دينًا، وانبثت آدابه

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٣٥).

(٢) الرعد: الآية (٤١).

(٣) الرعد: الآية (٤٣).

وأخلاقه فيهم، فأصلحت عوائدهم ونُظُمهم المدنِيّة المختلفة التي كانوا عليها، فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة، وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة، وتفشت لغة القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن وتعارفت بواسطتها، ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدّين وعلماء العربية وأئمة الأدب العربي وفحول الشعراء ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم.

فالمراد بالآيات في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ما يشمل الدلائل الخارجة عن القرآن، وما يشمل آيات القرآن، فإن من جملة معنى رؤيتها رؤية ما يصدِّق أخبارها، ويبيّن نصحها إياهم بدعوتها إلى خير الدّنيا والآخرة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥/١٨-١٩).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مرية: شك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: في شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبئون به وهو واقع لا ريب فيه، وكائن لا محالة

ثم قال تعالى مقررا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
حم ۝١ عسق ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة.

قال ابن كثير: «أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله»[1].

قال ابن عاشور: «موقع الإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ كموقع قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2] في سورة البقرة. والمعنى: مِثْلَ هذا الوحي يُوحِي اللَّه إليك، فالمشار إليه: الإيحاء المأخوذ من فعل يوحي.

وأما ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإدماج. والتشبيه بالنسبة إليه على أصله، أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين من قبلك، فالتشبيه مستعمل في كلتا طريقتيه كما يستعمل المشترك في معنييه. والغرض من التشبيه إثبات التسوية؛ أي: ليس وحي اللَّه إليك إلا على سنة وحيه إلى الرّسل من قبلك، فليس وحيه إلى الرّسل من قبلك بأوضح من وحيه إليك. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن

(1) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٧٨).

(2) البقرة: الآية (١٤٣).

بَعْدِهِۦ﴾[١]، أي ما جاء به من الوحي إن هو إلا مِثلُ ما جاءت به الرّسل السابقون، فما إعراض قومه عنه إلا كإعراض الأمم السالفة عما جاءت به رسلهم. فحصل هذا المعنى الثاني بغاية الإيجاز مع حسن موقع الاستطراد»[٢].

قال الشنقيطي: «وقول الزمخشري في تفسير هذه الآية ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ أي مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك وإلى الرسل من قبلك اللَّه.

يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى اللَّه إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى أن اللَّه تعالى كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية، لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم، لعباده من الأولين والآخرين. اهـ منه.

وظاهر كلامه أن التشبيه في قوله: كذلك يوحي بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول.

والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ لم يصرح هنا بشيء من أسماء الذين من قبله الذين أوحى إليهم كما أوحى إليه، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق في دار الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ذكر -جل وعلا- فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه، كما قال في آية النساء المذكورة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[٤] بعد ذكره إيحاءه إلى رسله»[٥].

---

(١) النساء: الآية (١٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦-٢٧).

(٣) النساء: الآيات (١٦٣-١٦٥).

(٤) النساء: الآية (١٥٨).

(٥) أضواء البيان (٧/ ١٤٩-١٥٠).

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقا ولاحقا، وأن محمدا ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاءوا به؛ لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية، والعزة العظيمة، والحكمة البالغة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الوحي وأنواعه

* عن عائشة ﵂: «أن الحارث بن هشام ﵁ سأل رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول اللّه ﷺ: **أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**، قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[٢].

سيأتي ذكر هذا الحديث مع غريبه وفوائده عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٨)، والبخاري (١/ ٢٣-٢٤/ ٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨١٦-١٨١٧/ ٢٣٣٣)، والترمذي (٥/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٣٦٣٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٩٣٣).

(٣) الشورى: الآية (٥١).

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: لله ملك ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأشياء كلها ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ يقول: وهو ذو علوّ وارتفاع على كل شيء، والأشياء كلها دونه؛ لأنهم في سلطانه، جارية عليهم قدرته، ماضية فيهم مشيئته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي له العظمة والكبرياء والجبرية»[١].

قال الشنقيطي: «وصف نفسه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة بالعلو والعظمة، وهما من الصفات الجامعة.. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥] الآية. إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٧).

(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٣) النساء: الآية (٣٤).

(٤) الرعد: الآية (٩).

(٥) الجاثية: الآية (٣٧).

(٦) أضواء البيان (٧/ ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾[١]

٭ غريب الآية:

يتفطرن: يتشققن، يقال: للزجاجة إذا انصدعت: قد انفطرت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: اعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن.

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفًا من اللَّه، وهيبة وإجلالًا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأن علوه وعظمته سبب للسماوات، ذلك الخوف والهيبة والإجلال حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[٢] مناسبته لما قبله واضحة؛ لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم؛ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفًا منه وهيبة وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾[٤].

فهم لشدة خوفهم من اللَّه، وإجلالهم له، يسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض، ولذا يستغفرون لهم خوفًا عليهم من سخط اللَّه وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾[٥] لأن الإشفاق الخوف.

---

(١) الشورى: الآية (٥).

(٢) الشورى: الآية (٥).

(٣) الرعد: الآية (١٣).

(٤) النحل: الآيتان (٤٩-٥٠).

(٥) الأحزاب: الآية (٧٢).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى اللَّه واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

فقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يوضح المراد من قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ . ويزيد ذلك إيضاحًا قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾[2] لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض -جل وعلا-، من كونه اتخذ ولدًا، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا الوجه جاء موضحًا في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[3] كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحًا في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ فيه للعلماء أوجه.

قيل: يتفطرن، أي السماوات من فوقهن أي: الأرضين، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى. وقال بعضهم: من فوقهن؛ أي: كل سماء تتفطر فوق التي تليها.

وقال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت لم قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات، وهي العرش والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا اللَّه تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن

---

(١) غافر: الآية (٧).

(٢) غافر: الآية (٧).

(٣) مريم: الآيات (٨٨-٩٣).

﴿فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية. أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة. ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة الفوق. كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، دع الجهة التي تحتهن.

ونظيره في المبالغة قوله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾[1] فجعل الحميم مؤثرًا في أجزائهم الباطنة اهـ. محل الغرض منه.

وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحقّ لها أن تئطّ، ما فيه موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرًا، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم على -أو إلى- الصعدات تجأرون إلى الله»**[4].

★ غريب الحديث:

أطت: بفتح الهمزة والطاء المهملة المشددة، من الأطيط وهو صوت الأقتاب، والقتب صوت الرحل، وأطيط الإبل: أصواتها وأنينها.

الصعدات: جمع صعد وهي الطرق.

تجأرون: الجؤار رفع الصوت والاستغاثة.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قال ابن الزملكاني: وقد دل هذا الخبر ونحوه على أن الملائكة أكثر المخلوقات عددًا وأصنافهم كثيرة، وقد ورد في القرآن من ذلك ما يوضحه،

---

(١) الحج: الآيتان (١٩-٢٠). (٢) مريم: الآية (٨٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٥٢-١٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٤٨١-٤٨٢/ ٢٣١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢/ ٤١٩٠)، والحاكم (٢/ ٥١٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وسكت عنه الذهبي.

ومعرفة قدر كثرتهم وتفصيل أصنافهم موكول إليه سبحانه وتعالى، وما يعلم جنود ربك إلا هو»[١].

قال ابن الأثير: «أي: أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثَمّ أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد بها تقرير عظمة اللَّه تعالى»[٢].

قال القاري: «قلت: ما المحوج عن عدول كلامه ﷺ من الحقيقة إلى المجاز مع إمكانه عقلًا ونقلًا حيث صرح بقوله: «**وأسمع ما لا تسمعون**»»[٣].

* عن ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ قال: من الثقل[٤].

* * *

(١) فيض القدير (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) النهاية (١/ ٥٤).

(٣) المرقاة (٩/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٢) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «والملائكة الكرام المقربون خاضعون لعظمته مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ويعظمونه وينزهونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموما، وإلى محمد -صلى الله عليهم أجمعين- خصوصا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر؛ بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أكد -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه هو الغفور الرحيم، وبَين فيها أنه هو وحده المختص بذلك.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما اختصاصه هو -جل وعلا- بغفران الذنوب، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]، والمعنى: لا يغفر الذنوب إلا الله، وفي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩٣-٥٩٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٣٥).

الحديث: «رب إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت»[(١)] الحديث. وفي حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني» الحديث، وفيه: «وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[(٢)].

ووجه دلالة هذه الآية على أن اللَّه وحده هو الذي يغفر الذنوب، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يدل على ذلك كما هو معلوم في محله، وأما الأمر الثاني: هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم، فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو ألا، وحرف التوكيد الذي هو إن، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[(٤)] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾[(٥)] وقوله في الكفار: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[(٦)]. وقوله في الذين قالوا إن اللَّه ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾[(٧)] والآيات بمثل ذلك كثيرة»[(٨)].

* * *

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣-٤)، والبخاري (٢/ ٤٠٤/ ٨٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨/ ٢٧٠٥)، والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣١)، والنسائي (٣/ ٦٠-٦١/ ١٣٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦١/ ٣٨٣٥) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢)، والبخاري (١١/ ١١٧/ ٦٣٠٦)، والترمذي (٥/ ٤٣٦/ ٣٣٩٣)، والنسائي (٨/ ٦٧٤-٦٧٥/ ٥٥٣٧)، من حديث شداد بن أوس ﷺ.

(٣) الزمر: الآية (٥٣).

(٤) طه: الآية (٨٢).

(٥) النجم: الآية (٣٢).

(٦) الأنفال: الآية (٣٨).

(٧) المائدة: الآية (٧٤).

(٨) أضواء البيان (٧/ ١٥٤-١٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يا محمد من مشركي قومك من دون اللَّه آلهة يتولونها ويعبدونها ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ يقول: ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»[1].

قال ابن عاشور: «المعنى: قد نهضت حجة انفراده تعالى بالعزة والحكمة والعلوّ والعظمة، وعلمها المؤمنون فاستغفرْت لهم الملائكة. وأما الذين لم يبصروا تلك الحجة وعميت عليهم الأدلة، فلا تَهْتَمَّ بشأنهم فإن اللَّه حَسْبُهم، وما أنت عليهم بوكيل. فهذا تسكين لحزن الرّسول ﷺ من أجل عدم إيمانهم بوحدانية اللَّه تعالى.

وهذه مقدّمة لما سيأمر به الرّسول ﷺ من الدعوة ابتداء من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[2] الآية، ثم قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾[3] الآيات، ثم قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾[4] وقوله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[5] الآية»[6].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) جامع البيان (٢٥/٨).
(٢) الشورى: الآية (٧).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) الشورى: الآية (١٥).
(٥) الشورى: الآية (٢٣).
(٦) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١-٣٢).

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[٤] أي يخوفكم أولياءه. وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾[٥] الآية.

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[٦].

وقد أمر -جل وعلا- باتباع هذا القرآن العظيم، ناهيًا عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى، في أول سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[٧].

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان:

الأول منهما: الشياطين، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم من الكفر والمعاصي، فشركهم به شرك طاعة، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى المذكور كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[٨] الآية. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[٩] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾[١٠] أي: وما يعبدون إلا شيطانًا مريدا. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[١١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[١٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ

---

(١) الزمر: الآية (٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٣) الأعراف: الآية (٣٠).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٥) النساء: الآية (٧٦).
(٦) الكهف: الآية (٥٠).
(٧) الأعراف: الآية (٣).
(٨) يس: الآية (٦٠).
(٩) مريم: الآية (٤٤).
(١٠) النساء: الآية (١١٧).
(١١) سبأ: الآية (٤١).
(١٢) النحل: الآية (١٠٠).

﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات.

والنوع الثاني: هو الأوثان، كما بين ذلك تعالى بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي، وفي أوله اتخاذهم الأولياء، يعبدونهم من دون اللَّه، وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست يا محمد بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت.

والوكيل عليهم هو اللَّه الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾[4] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخًا بآية السيف، والعلم عند اللَّه تعالى»[5].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (١٢١).

(٢) هود: الآية (١٢).

(٣) يونس: الآيتان (٩٩-١٠٠).

(٤) الأنعام: الآية (٣٥).

(٥) أضواء البيان (٧/ ١٥٦-١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «يعني: كما أوحينا إليك أنك لست حفيظا عليهم، ولست وكيلا عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتكون نذيرًا لهم، وقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: لتنذر أهل أم القرى؛ لأن البلد لا تعقل، وهو كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2] وأم القرى: أصل القرى، وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالًا لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان، ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر، والإنذار: التخويف، فإن قيل: فظاهر اللفظ يقتضي أن اللَّه تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولًا إليهم فقط، وأن لا يكون رسولًا إلى كل العالمين، والجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولًا إلى هؤلاء خاصة، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3] يدل على كونه رسولًا إلى كل العالمين، أيضًا لما ثبت كونه رسولًا إلى أهل مكة وجب كونه صادقًا، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعى أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين»[4].

قال الشنقيطي: «خص -تبارك وتعالى- في هذه الآية الكريمة إنذاره ﷺ بأم القرى ومن حولها، والمراد بأم القرى مكة حرسها اللَّه. ولكنه أوضح في آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقلين كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية..

---

(١) الشورى: الآية (٧).
(٢) يوسف: الآية (٨٢).
(٣) سبأ: الآية (٢٨).
(٤) التفسير الكبير (٢٧/١٤٨-١٤٩).
(٥) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٦) الفرقان: الآية (١).

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1] الآية، في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب[2]، فقلنا فيه: والجواب من وجهين.

الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره، عن ابن عباس.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليمًا جدليًا، أن قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة حرسها اللَّه كجزيرة العرب مثلًا، فإن الآيات الأخر، نصت على العموم كقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وذكر بعض أفراد العام بحكم العام، لا يخصصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور»[3].

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ تعليل لـ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ لأن كونه عربيًّا يليق بحال المنذَرين به، وهم أهل مكّة ومَن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدِّين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تُحصى، فلا جرم اختار اللَّه له أفضل اللّغات واختار إنزاله على أفضل البشر.

و﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكّة، وكنيت: أم القرى؛ لأنها أقدم المدن العربية، فدعاها العرب: أم القرى؛ لأن الأم تطلق على أصل الشيء، مثل: أم الرأس، وعلى مرجعه مثل قولهم للراية: أم الحرب، وقولهم: أم الطريق، للطريق العظيم الذي حوله طرق صغار. ثم إن إنذار أم القرى يقتضي إنذار بقية القُرى بالأحرى، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾[4]، وتقدم في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ في سورة الأنعام.

والمراد: لتنذر أهلَ أمّ القُرى، فأطلق اسم البلد على سكانه كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ . وأهل مكّة هم قريش، وأما من حولها فهم النازلون حولها من القبائل مثل خُزاعة وكنانة، ومن الذين حولها قريشٌ الظواهر وهم الساكنون خارج

---

(١) الأنعام: الآية (٩٢).
(٢) (ص: ١٠٤-١٠٥).
(٣) أضواء البيان (٧/ ١٥٨-١٥٩).
(٤) القصص: الآية (٥٩).

مكة في جبالها.

والاقتصار على إنذار أمّ القُرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرّسول ﷺ بأهل مكة ومَن حولها، ولا تخصيص الرّسول ﷺ بالإنذار دون التبشير للمؤمنين؛ لأن تعليل الفعل بعلة باعثه لا يقتضي أن الفعل المعلّل مخصص بتلك العلّة ولا بمتعلِّقاتها إذ قد يكون للفعل الواحد عللُ باعثة، فإن الرّسول ﷺ بُعث للنّاس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1]. والاقتصار هنا على إنذار أهل مكّة ومَن حولها لأنهم المقصود بالردّ عليهم لإنكارهم رسالة محمد ﷺ»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل مكة

* عن عبد اللَّه بن عدي بن الحمراء قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ واقفًا على الحزورة قال: واللَّه إنك لخير أرض اللَّه وأحب أرض اللَّه إلى اللَّه، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[3].

★ غريب الحديث:

الحزورة: على وزن قسورة، وهو موضع بمكة، وبعضهم شددها أي: الراء والحزورة. في الأصل بمعنى التل الصغير سميت بذلك لأنه هناك كان تلا صغيرا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «وذكر أبو يحيى الساجي قال: اختلف العلماء في تفضيل مكة على المدينة فقال الشافعي: مكة خير البقاع كلها، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وقال مالك والمدنيون: المدينة أفضل من مكة، واختلف البغداديون وأهل البصرة في ذلك فطائفة تقول: مكة وطائفة تقول: المدينة، وقال عامة أهل

---

(١) سبأ: الآية (٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي (٥/ ٦٧٩/ ٣٩٢٥) واللفظ له، وقال: «حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩/ ٤٢٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٨)، وصححه ابن حبان (٩/ ٢٢/ ٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧).

الأثر والفقه: إن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة، وروى يحيى بن يحيى عن ابن نافع أنه سأله عن معنى الحديث فقال: معناه أن الصلاة في مسجد النبي ﷺ، أفضل من الصلاة في المسجد الحرام بدون ألف صلاة، وفي سائر المساجد بألف صلاة، قال أبو عمر: وأما تأويل ابن نافع فبعيد عند أهل المعرفة باللسان، ويلزمه أن يقول: إن الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أفضل من الصلاة في المسجد الحرام بتسعمائة ضعف وتسعة وتسعين ضعفًا»[1].

وقال: «وإني لأعجب ممن يترك قول رسول اللَّه ﷺ إذ وقف بمكة على الحزورة وقال: «**واللَّه إني لأعلم أنك خير من أرض اللَّه وأحبها إلى اللَّه، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**» وهذا حديث صحيح.. فكيف يترك مثل هذا النص الثابت، ويمال إلى تأويل لا يجامع متأوله عليه»[2].

قال القاري: «تمحل المالكية في رد هذا الحديث من جهة المبنى والمعنى، بما اعترف به الإمام ابن عبدالبر من أئمتهم أنه تشبث لا طائل تحته. ومن العجيب أنهم عارضوا هذا الحديث الثابت بأحاديث ضعيفة بل موضوعة، منها: «**اللهم إنهم أخرجوني من أحب البلاد إلي، فأسكني في أحب البلاد إليك**» فقد أجمعوا على أنه موضوع كما قاله ابن عبدالبر وابن دحية، بل ونقل ذلك عن مالك، ولا يلتفت إلى إخراج الحاكم هذا الحديث في مستدركه، فإن الأئمة قالوا: من كمال تساهله في كتابه عطل تمام النفع به، مع أنه لو ثبت يكون التقدير: بعد مكة، فإنه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن أحب البلاد إليه إلا ما كان أحب البلاد إلى اللَّه أيضًا.. وأما خبر الطبراني: «**المدينة خير من مكة**»[3] فضعيف بل منكر واهٍ، كما قاله الذهبي، وعلى تقدير صحته يكون محمولًا على زمانه لكثرة الفوائد في حضرته، وملازمة خدمته؛ لأن شرف المدينة ليس بذاته، بل بوجوده -عليه الصلاة والسلام- فيه، ونزوله مع بركاته، وناهيك في الفرق بين البقعتين أن السفر إلى مكة واجب بالإجماع، وإلى المدينة سنة بلا نزاع، وأيضًا نفس المدينة ليس أفضل من مكة اتفاقًا إذ لا تضاعف

---

(١) فتح البر (٩/ ٢١٧). (٢) فتح البر (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) أخرجه الطبراني (٤/ ٢٨٨/ ٤٤٥٠)، وأورده الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٩٩) وقال: رواه الطبراني وفيه محمد بن عبدالرحمن بن داود، وهو مجمع على ضعفه، والصواب محمد بن رداد.

فيه أصلًا، بل المضاعفة في المسجدين»[١].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن مكة هل هي أفضل من المدينة أم بالعكس، فأجاب: «الحمد لله، مكة أفضل -ثم ذكر حديث الباب، ثم قال-: وهذا صريح في فضلها، وأما الحديث الذي يروى: «**أخرجتني من أحب البقاع إلي، فأسكني أحب البقاع إليك**» فهذا الحديث موضوع كذب، لم يروه أحد من أهل العلم»[٢].

وقد سئل شيخ الإسلام عن التربة التي دُفن فيها النبي ﷺ، هل هي أفضل من المسجد الحرام، فأجاب: «وأما التربة التي دُفن فيها النبي ﷺ فلا أعلم أحدًا من الناس قال: إنها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى؛ إلا القاضي عياض، فذكر ذلك إجماعًا، وهو قول لم يسبقه إليه أحد فيما علمناه. ولا حجة عليه، بل بدن النبي ﷺ أفضل من المساجد، وأما ما فيه خُلق أو ما فيه دُفن، فلا يلزم إذا كان هو أفضل أن يكون ما منه خُلق أفضل؛ فإن أحدًا لا يقول: إن بدن عبد اللَّه أبيه أفضل من أبدان الأنبياء، فإن اللَّه يخرج الحي من الميت والميت من الحي، ونوح نبي كريم وابنه المغرق كافر، وإبراهيم خليل الرحمن، وأبوه آزر كافر، والنصوص الدالة على تفضيل المساجد مطلقة لم يستثن منها قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين، ولو كان ما ذكره حقًّا لكان مدفن كل نبي وكل صالح أفضل من المساجد التي هي بيوت اللَّه، فيكون بيوت المخلوقين أفضل من بيوت الخالق التي أذن اللَّه أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، وهذا قول مبتدع في الدين مخالف لأصول الإسلام»[٣].

قال ابن عبدالبر: «إنما يحتج بقبر رسول اللَّه ﷺ وبفضائل المدينة وبما شاء فيها عن النبي ﷺ وعن أصحابه على من أنكر فضلها وكرامتها، وأما من أقر بفضلها وعرف أن لها موضعًا، وأقر أنه ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها، فقد أنزلها منزلتها، وعرف لها حقها، واستعمل القول بما جاء عن النبي ﷺ في مكة وفيها؛ لأن فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط، وإنما سبيلها التوقيف،

---

(١) المرقاة (٥/ ٦٠٢-٦٠٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٧-٣٨).

فكل يقول بما بلغه وصح عنده، غير حرج، والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر، وفيها بيت اللَّه الذي رضي من عباده على الحط لأوزارهم بقصده مرة في العمر»[١].

قال الشوكاني: «واعلم أن الاشتغال ببيان الفاضل من هذين الموضعين الشريفين كالاشتغال ببيان الأفضل من القرآن والنبي ﷺ، والكل من فضول الكلام التي لا تتعلق به فائدة غير الجدال والخصام، وقد أفضى النزاع في ذلك وأشباهه إلى فتن وتلفيق حجج واهية، كاستدلال المهلب على أفضلية المدينة بأنها هي التي أدخلت مكة وغيرها من القرى في الإسلام، فصار الجميع في صحائف أهلها، وبأنها تنفي الخبث كما ثبت في الحديث الصحيح، وأجيب عن الأول بأن أهل المدينة الذين فتحوا مكة معظمهم من أهل مكة، فالفضل ثابت للفريقين، ولا يلزم من ذلك تفضيل إحدى البقعتين، وعن الثاني بأن ذلك إنما هو في خاص من الناس ومن الزمان بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾[٢] والمنافق خبيث بلا شك، وقد خرج من المدينة بعد النبي ﷺ معاذ وأبو عبيدة وابن مسعود وطائفة، ثم علي وطلحة والزبير وعمار وآخرون، وهم من أطيب الخلق، فدل على أن المراد بالحديث تخصيص ناس دون ناس، ووقت دون وقت، على أنه إنما يدل ذلك على أنها فضيلة لا أنها فاضلة»[٣].

* * *

---

(١) فتح البر (٩/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) التوبة: الآية (١٠١).

(٣) نيل الأوطار (٥/ ٢٩-٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «الأصل أن يقال: أنذرت فلانا بكذا فكان الواجب أن يقال: لتنذر أم القرى بيوم الجمع، وأيضًا فيه إضمار، والتقدير: لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع، وفي تسميته بيوم الجمع وجوه:

الأول: أن الخلائق يجمعون فيه قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾[٢] فيجتمع فيه أهل السماوات من أهل الأرض.

الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد.

الثالث: يجمع بين كل عامل وعمله.

الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم. وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه»[٣].

قال الشنقيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن من حكم إيحائه تعالى إلى نبينا ﷺ هذا القرآن العربي إنذار يوم الجمع، فقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: لأجل أن تنذر أم القرى، وأن تنذر يوم الجمع، فحذف في الأول أحد المفعولين، وحذف في الثاني أحدهما، فكان ما أثبت في كل منهما دليلًا على ما حذف في الثاني، ففي الأول حذف المفعول الثاني، والتقدير: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي أهل مكة ومن حولها، عذابًا شديدًا إن لم يؤمنوا، وفي الثاني حذف المفعول الأول؛ أي: وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة أي: تخوفهم مما فيه من

---

(١) الشورى: الآية (٧).

(٢) التغابن: الآية (٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/١٤٩).

الأهوال والأوجال ليستعدوا لذلك في دار الدنيا.

والثاني: أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه، أي لا شك في وقوعه، وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، جاءا موضحين في آيات أخر. أما تخويفه الناس يوم القيامة، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[1] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾[3]: وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾[4] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما الثاني منهما: وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه، فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[5] وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[7] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾[8] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾[9] وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾[10]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[11] وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[12].

---

(١) البقرة: الآية (٢٨١).
(٢) غافر: الآية (١٨).
(٣) المزمل: الآيتان (١٧-١٨).
(٤) المطففين: الآيات (٤-٦).
(٥) النساء: الآية (٨٧).
(٦) آل عمران: الآية (٢٥).
(٧) الحج: الآية (٧).
(٨) الجاثية: الآية (٣٢).
(٩) لواقعة: الآيتان (٤٩-٥٠).
(١٠) المرسلات: الآية (٣٨).
(١١) هود: الآية (١٠٣).
(١٢) الكهف: الآية (٤٧).

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾[1]، والآيات الدالة على الجمع المذكور كثيرة»[2].

* * *

---

(١) الأنعام: الآية (٣٨).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٥٩-١٦١).

قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: منهم فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به رسوله ﷺ، ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ يقول: ومنهم فريق في الموقدة من نار الله المسعورة على أهلها، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسوله»[٢].

قال الشنقيطي رحمه الله: «ما دلت عليه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق، وجعل منهم فريقًا سعداء، وهم أهل الجنة، وفريقًا أشقياء، وهم أصحاب السعير، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٤] أي: ولذلك الاختلاف، إلى مؤمن وكافر وشقي وسعيد، خلقهم على الصحيح، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جدًا»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في القدر وكتابة السعادة والشقاوة

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: **أتدرون ما هذان الكتابان؟** فقلنا: لا، يا رسول الله إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى: **هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبدًا**، ثم قال للذي في شماله: **هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبدًا**. فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: **سددوا وقاربوا**،

---

(١) الشورى: الآية (٧).
(٢) جامع البيان (٢٥/ ٩).
(٣) التغابن: الآية (٢).
(٤) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).
(٥) أضواء البيان (٧/ ١٦١).

فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل. ثم قال رسول اللَّه ﷺ بيديه فنبذهما، ثم قال: فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير»(١).

★ غريب الحديث:

أجمل على آخرهم: من قولهم: أجمل الحساب: إذا تمم، ورد التفصيل إلى الإجمال وأثبت في آخر الورقة مجموع ذلك، وجملته كما هو عادة المحاسبين أن يكتبوا الأشياء مفصلة، ثم يوقعوا في آخرها فذلكة ترد التفصيل إلى الإجمال، وضمن أجمل معنى أوقع، فعدى بـ(على) أي: أوقع الإجمال على من انتهى إليه التفصيل، وقيل: ضرب بالإجمال على آخر التفصيل؛ أي: كتب. ويجوز أن يكون حالًا؛ أي: أجمل في حال انتهاء التفصيل إلى آخرهم، فـ(على) بمعنى (إلى)(٢).

سددوا: أي: اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة، وهو القصد في الأمر والعدل فيه(٣).

قاربوا: اقتصدوا في الأمور كلها، واتركوا الغلو فيها والتقصير، يقال: قارب فلان في أموره: إذا اقتصد(٤).

قال رسول اللَّه ﷺ: أي: أشار، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، فتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده؛ أي: أخذ، وقال برجله؛ أي: مشى(٥).

نبذهما: نبذت الشيء: إذا رميته وأبعدته(٦).

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «إذا كان الأمر على ما تقرر من التفصيل، والتعيين، والإجمال بعد

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٧)، والترمذي (٤/ ٣٩١-٣٩٢/ ٢١٤١) واللفظ له، وقال: «حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٢-٤٥٣/ ١١٤٧٣). وحسن الحافظ إسناده في الفتح (٦/ ٣٥٧)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٨٤٨).

(٢) المرقاة (١/ ٢٩٥).

(٣) النهاية (٢/ ٣٥٢).

(٤) النهاية (٤/ ٣٣).

(٥) المرقاة (١/ ٢٩٧).

(٦) النهاية (٥/ ٦).

التفصيل في الصك، فلا يزاد ولا ينقص.

فإن قلت: قد ذكرتم أن حكم اللَّه تعالى لا يتغير فما القول في: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾؟ قلت: قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إشارة إلى القضاء ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1] إلى القدر، المعنى: لكل انتهاء مدة وقت مضروب، فمن انتهى أجله يمحوه، ومن بقي من أجله يبقيه على ما هو مثبت فيه، وكل ذلك مثبت عند اللَّه تعالى في أم الكتاب.

وقال: «لعل الظاهر أن كل واحد من أهل الجنة ومن أهل النار يكتب أسماء آبائهم وقبائلهم -سواء كان من أهل الجنة أو من أهل النار- للتمييز التام كما يكتب في الصكوك، وهو أنسب بالكتاب»[2].

قوله: «**هذا كتاب من رب العالمين**» قال المباركفوري: «خصه بالذكر دلالة على أنه تعالى مالكهم وهم له مملوكون يتصرف فيهم كيف يشاء فيسعد من يشاء ويشقي من يشاء، وكل ذلك عدل وصواب فلا اعتراض لأحد عليه، وقيل الظاهر أن هذا كلام صادر على طريق التصوير والتمثيل مثل الثابت في علم اللَّه تعالى أو المثبت في اللوح بالمثبت بالكتاب الذي كان في يده ولا يستبعد إجراؤه على الحقيقة، فإن اللَّه قادر على كل شيء»[3].

* عن أبي نضرة: «أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد اللَّه دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول اللَّه ﷺ: **خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني**؟ قال: بلى، ولكني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **إن اللَّه ﷻ قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، وقال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي. فلا أدري في أي القبضتين أنا**»[4].

---

(١) الرعد: الآيتان (٣٨و٣٩).

(٢) شرح الطيبي (٢/ ٥٥٩).

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٧٦) واللفظ له، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٥-١٨٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وأخرجه البزار (٣/ ٢٠/ ٢١٤٢ (الكشف) مختصرًا عن أبي نضرة عن أبي سعيد. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٦): «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير نمر بن هلال، وثقه أبو حاتم». وانظر «السلسلة الصحيحة» (رقم ٥٠).

★ **غريب الحديث:**

أقرّه: من قرَّ الشيءُ قرًّا: استقر بالمكان وثبت، والاسم: القرار، والمعنى: أثبته وأدامه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ الألباني: «إن كثيرًا من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث -ونحوها أحاديث كثيرة- تفيد أن الإنسان مجبور على أعماله الاختيارية؛ ما دام أنه حكم عليه منذ القديم وقبل أن يخلق: بالجنة أو النار.

وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ، فمن وقع في القبضة اليمنى؛ كان من أهل السعادة، ومن كان من القبضة الأخرى؛ كان من أهل الشقاوة.

فيجب أن يعلم هؤلاء جميعًا أن اللَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، فإذا قبض قبضة؛ فهي بعلمه وعدله وحكمته، فهو تعالى قبض باليمنى على من علم أنه سيطيعه حين يؤمر بطاعته، وقبض بالأخرى على من سبق في علمه تعالى أنه سيعصيه حين يؤمر بطاعته، ويستحيل على عدل اللَّه تعالى أن يقبض باليمنى على من هو مستحق أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس، كيف واللَّه ﷻ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

ثم إن كلًّا من القبضتين ليس فيها إجبار لأصحابهم أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار، بل هو حكم من اللَّه -تبارك وتعالى- عليهم بما سيصدر منهم؛ من إيمان يستلزم الجنة، أو كفر يقتضي النار والعياذ باللَّه تعالى منهما، وكل من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان، لا يُكره اللَّه -تبارك وتعالى- أحدًا من خلقه على واحد منهما، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]، وهذا مشاهد معلوم بالضرورة، ولولا ذلك؛ لكان الثواب والعقاب عبثًا، واللَّه منزه عن ذلك.

ومن المؤسف حقًّا أن نسمع من كثير من الناس -حتى من بعض الشيوخ-

---

(١) الشورى: الآية (١١).

(٢) القلم: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٣) الكهف: الآية (٢٩).

التصريح بأن الإنسان مجبور لا إرادة له! وبذلك يلزمون أنفسهم القول بأن اللَّه يجوز له أن يظلم الناس! مع تصريحه تعالى بأنه لا يظلمهم مثقال ذرة، وإعلانه بأنه قادر على الظلم، ولكنه نزّه نفسه عنه؛ كما في الحديث القدسي المشهور: «**يا عبادي! إني حرمتُ الظلم على نفسي**..»[1].

وإذا جوبهوا بهذه الحقيقة؛ بادروا إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[2]؛ مصرين بذلك على أن اللَّه تعالى قد يظلم، ولكنه لا يُسأل عن ذلك! تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا!

وفاتهم أن الآية حجة عليهم؛ لأن المراد بها -كما حققه العلامة ابن القيم في «شفاء العليل» وغيره- أن اللَّه تعالى لحكمته وعدله في حكمه ليس لأحد أن يسأله عما يفعل؛ لأن كل أحكامه تعالى عدل واضح؛ فلا داعي للسؤال»[3].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٢٢٥٧). من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

(٢) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ١١٥-١١٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو أراد اللَّه أن يجمع خلقه على هدى، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل، و﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: أهل ملة واحدة، وجماعة مجتمعة على دين واحد.

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ﴾ يقول: لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء من عباده في رحمته؛ يعني: أنه يدخله في رحمته بتوفيقه إياه للدخول في دينه، الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ.

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يقول: والكافرون باللَّه ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب اللَّه حين يعاقبهم، فينقذهم من عذابه، ويقتص لهم ممن عاقبهم، وإنما قيل هذا لرسول اللَّه ﷺ تسلية له عما كان يناله من الهمّ بتولية قومه عنه، وأمرا له بترك إدخال المكروه على نفسه من أجل إدبار من أدبر عنه منهم، فلم يستجب لما دعاه إليه من الحق، وإعلاما له أن أمور عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحق من شاء، والمضل من أراد دونه، ودون كلّ أحد سواه»[1].

قال ابن عاشور: «وهذا مسوق لتسلية الرّسول ﷺ والمؤمنين على تمنّيهم أن يكون النّاس كلّهم مهتدين، ويكون جميعهم في الجنّة، وبذلك تعلم أن ليس المراد: لو شاء اللَّه لجعلهم أمّة واحدة في الأمرين الهُدى والضلال؛ لأن هذا الشقّ الثاني لا يتعلق الغرض ببيانه هنا، وإن كان في نفس الأمر لو شاء اللَّه لكان. فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٠).

مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[١] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[٢].

وقد دلّ على ذلك الاستدراكُ الذي في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ أي ولكن شاء مشيئةً أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أنْ خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عُقولهم وأميالهم، ومكّنهم من كسب أفعالهم، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون، وهم الذين شاء اللَّه إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير. فقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ أحدُ دليلين على المعنى المستدرَك، إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين: فريقًا في الجنّة وفريقًا في السعير؛ ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنة. وأفهم ذلك أنّه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه، فدلّ عليه أيضًا بقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضُر ومغلوبية، بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير، فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكّة دخولًا أوليًا لأنهم سبب ورود هذا العموم»[٣].

* * *

(١) السجدة: الآية (١٣).

(٢) يونس: الآية (٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٨-٣٩).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله أولياء من دون الله يتولونهم. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ يقول: فالله هو وليّ أوليائه، وإياه فليتخذوا وليا لا الآلهة والأوثان، ولا ما لا يملك لهم ضرّا ولا نفعا. ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقول: والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: والله القادر على إحياء خلقه من بعد مماتهم وعلى غير ذلك، إنه ذو قدرة على كل شيء»[1].

قال البقاعي: «لما كان التقدير: هل قصر هؤلاء الذين تنذرهم هممهم وعزائمهم وأقوالهم وأفعالهم على الله تعالى اتعاظًا وانتذارًا بهذا الكلام المعجز، عادل به قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي عالجوا فطرهم الشاهدة بذلك بشهادة أوقات الاضطرار حتى لفتوها عنه سبحانه فاتخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هم عالمون بأنهم لا يغنون عنهم شيئًا ولهذا قال: ﴿فَٱللَّهُ﴾ أي فتسبب عما أفهمته صيغة الافتعال من أنهم عالمون بأنه وحده الضار النافع، علمُهم بأنه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ لا غيره، ويجوز أن يكون مسببًا عن هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي، كأنه قيل: هل قصروا هممهم عليه سبحانه، فسبب أنه وحده المستحق لما يقصدونه من التولي ﴿وَهُوَ﴾ أيضًا وحده لا غيره ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي يجدد إحيائهم في أي وقت يشاؤه ﴿وَهُوَ﴾ أي: وحده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بالغ القدرة لا يشاركه شيء في ذلك بشهادة كل عاقل، وأكده بالقصر لأن شركهم بالأولياء إنكار لاختصاصه بالولاية»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٥٣-٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذا عامّ في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين، فإن حكمه ومرجعه إلى اللَّه يحكم فيه يوم القيامة بحكمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحقّ من المبطل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار. قال الكلبي: وما اختلفتم فيه من شيء؛ أي: من أمر الدين، فحكمه إلى اللَّه يقضي فيه.. ويمكن أن يقال: معنى حكمه إلى الله: أنه مردود إلى كتابه، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه يردّ إلى كتاب اللَّه. ومثله قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، وقد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام، وأن القرآن حق، وأن المؤمنين في الجنة، والكافرين في النار، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقًّا إلاّ في الدار الآخرة، وعدهم اللَّه بذلك يوم القيامة»[2].

قال الشنقيطي: «ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى اللَّه وحده لا إلى غيره، جاء موضحًا في آيات كثيرة.

فالإشراك باللَّه في حكمه كالإشراك به في عبادته قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[3]، وفي قراءة ابن عامر من السبعة: «ولا تشرك في حكمه أحدًا» بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4]، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء اللَّه.

---

(١) النساء: الآية (٥٩).
(٢) فتح القدير (٤/ ٧٣٩).
(٣) الكهف: الآية (٢٦).
(٤) الكهف: الآية (١١٠).

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله اللَّه، والحرام هو ما حرمه اللَّه، والدين هو ما شرعه اللَّه، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع اللَّه عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لا نزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة على أنه لا حكم لغير اللَّه، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[6] والآيات بمثل ذلك كثيرة.. وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير اللَّه المذكور كفر فهي كثيرة جدًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[9] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة»[10].

قال السعدي: «﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن اللّه تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه؛ لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقا لما في كتاب اللّه وسنة رسوله.

---

(١) يوسف: الآية (٤٠).
(٢) يوسف: الآية (٦٧).
(٣) الأنعام: الآية (٥٧).
(٤) المائدة: الآية (٤٤).
(٥) القصص: الآية (٨٨).
(٦) القصص: الآية (٧٠).
(٧) النحل: الآية (١٠٠).
(٨) الأنعام: الآية (١٢١).
(٩) يس: الآية (٦٠).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ١٦٢-١٦٣).

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقا به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه؛ لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الفاتحة: الآية (٥).

(٢) هود: الآية (١٢٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩٦-٥٩٧).

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

يذرؤكم: يخلقكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ خالق السماوات السبع والأرض.. وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: زوّجكم ربكم من أنفسكم أزواجا. وإنما قال -جل ثناؤه-: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم، فهن من الرجال. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وجعل لكم من الأنعام أزواجا من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ذكورا وإناثا، ومن كل جنس من ذلك. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ يقول: يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم، ويعيشكم فيما جعل لكم من الأنعام»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلق لكم أزواجا من أنفسكم كما قدمنا الكلام عليه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[٣] وبينا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ﴾[٤] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾[٥] وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[٦]

---

(١) الشورى: الآية (١١).
(٢) جامع البيان (٢٥/ ١١).
(٣) النحل: الآية (٧٢).
(٤) الروم: الآية (٢١).
(٥) النجم: الآيتان (٤٥-٤٦).
(٦) القيامة: الآية (٣٩).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[١] الآية. وقوله في آدم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[٢] الآية. وقوله تعالى فيه أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى فيه أيضًا: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[٤] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ﴾ هي الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾[٥] الآية. وفي قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها..

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ شامل للآدميين والأنعام، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله: يذرؤكم واضح لا إشكال فيه.

والتحقيق إن شاء اللَّه أن الضمير في قوله: ﴿فِيهِۚ﴾ راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ﴾ سواء قلنا: إن المعنى: أنه جعل للآدميين إناثًا من أنفسهم أي من جنسهم، وجعل للأنعام أيضًا إناثًا كذلك، أو قلنا: إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معًا.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية الكريمة يذرؤكم أي: يخلقكم ويبثكم وينشركم فيه، أي فيما ذكر من الذكور والإناث؛ أي: في ضمنه، عن طريق التناسل كما هو معروف. ويوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ يوضح معنى قوله: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾»[٦].

---

(١) الليل: الآيات (١-٣).
(٢) النساء: الآية (١).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٩).
(٤) الزمر: الآية (٦).
(٥) الأنعام: الآية (١٤٣).
(٦) أضواء البيان (٧/ ١٧٣-١٧٥).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: « إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر في الصحو، فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من دونه أولياء يوالونهم من دونه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(٢)].

فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريرا للتوحيد، وإبطالا لما عليه أهل الشرك من تشبيه آلهتهم وأوليائهم به حتى عبدوهم معه، فحرفها المحرفون، وجعلوها ترسا لهم في نفي صفات كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله، وهذا التشبيه الذي أبطله اللَّه سبحانه نفيا ونهيا هو أصل شرك العالم وعبادة الأصنام، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يسجد أحد لمخلوق مثله، أو يحلف بمخلوق مثله، أو يصلي إلى قبر، أو يتخذ عليه مسجدا، أو يعلق عليه قنديلا، أو يقول القائل ما شاء اللَّه وشاء فلان، ونحو ذلك حذرا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك.

---

(١) الشورى: الآية (١١).

(٢) الشورى: الآيات (٦-١١).

وأما إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد، فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به والنذر له، والسجود له والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين اللَّه في قولهم: ليس لي إلا اللَّه، وأنت وأنا متكل على اللَّه وعليك، وهذا من اللَّه ومنك، وأنا في حسب اللَّه وحسبك، وما شاء اللَّه وشئت، وهذا لله ولك وأمثال ذلك، فهؤلاء هم المشبهة حقا، لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له ندا من خلقه، ولا عدلا ولا كفؤا ولا سميا، وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولا سيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال كما هو الغالب عليهم، فيجمعون بين تعطيل الرب سبحانه عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به»[(١)].

قال ابن أبي العز: «اتفق أهل السنة على أن اللَّه ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على الممثلة المشبهة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على النفاة المعطلة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم»[(٢)].

قال الشوكاني: «يستفاد نفي المماثلة في كل شيء، فيدفع بهذه الآية في وجه المجسمة، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير، وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة، فتقرر بذلك الإثبات لتلك الصفات، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات، فيدفع به

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٢٩-٣٤١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٩٨-٩٩).

جانبي الإفراط والتفريط، وهما المبالغة في الإثبات المفضية إلى التجسيم، والمبالغة في النفي المفضية إلى التعطيل، فيخرج من بين الجانبين، وغلو الطرفين، أحقية مذهب السلف الصالح، وهو قولهم بإثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو، فإنه القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ »[1].

قال الشنقيطي: «فهذه الآية فيها تعليم عظيم يحل جميع الإشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع، وذلك لأن اللَّه قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن اللَّه يشير للخلق ألا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه؛ بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فاللَّه -جل وعلا- له صفات لائقة بكماله وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شك فيه.

إلا أن صفة رب السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين، فمن نفى عن اللَّه وصفا ثبت لنفسه فقد جعل نفسه أعلم باللَّه من اللَّه، سبحانك هذا بهتان عظيم، ومن ظن أن صفة ربه تشبه شيئًا من صفة الخلق فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له، يدخل في قوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2] ومن يسوي رب العالمين بغيره فهو مجنون»[3].

* * *

---

(١) التحف في مذاهب السلف (ص: ٥٨).

(٢) الشعراء: الآيتان (٩٧-٩٨).

(٣) منهج دراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ٤).

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

مقاليد: مفاتيح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ له مفاتيح خزائن السموات والأرض، وبيده مغاليق الخير والشر ومفاتيحها، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.. وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يقول: يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويبسط له، ويكثر ماله ويغنيه. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يقول: ويقتر على من يشاء منهم فيضيقه ويفقره. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن اللَّه -تبارك وتعالى- بكل ما يفعل من توسيعه على من يوسع، وتقتيره على من يقتر، ومن الذي يُصلحه البسط عليه في الرزق، ويفسده من خلقه، والذي يصلحه التقتير عليه ويفسده، وغير ذلك من الأمور، ذو علم لا يخفى عليه موضع البسط والتقتير وغيره، من صلاح تدبير خلقه.

يقول -تعالى ذكره-: فإلى من له مقاليد السموات والأرض الذي صفته ما وصفت لكم في هذه الآيات أيها الناس فارغبوا، وإياه فاعبدوا مخلصين له الدين لا الأوثان والآلهة والأصنام، التي لا تملك لكم ضرًا ولا نفعا»[1].

قال الشنقيطي: «كونه -جل وعلا- له مقاليد السموات والأرض أي: مفاتيحهما كناية عن كونه -جل وعلا- هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض؛ لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.

وقد ذكر -جل وعلا- مثل هذا في سورة الزمر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٣-١٤).

شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] الآية.

وما دلت عليه آية الشورى هذه وآية الزمر المذكورتان من أنه -جل وعلا- هو مالك خزائن السماوات والأرض، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[٣].

وبين في مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره، كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾[٦].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ جاء معناه موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾[٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٩] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾[١٠] الآية. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١١] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[١٢] الآية. وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[١٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي ضيق عليه رزقه لقلته. وكذلك قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ في الآيات المذكورة.

أي: يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء

---

(١) الزمر: الآيتان (٦٢-٦٣).
(٢) المنافقون: الآية (٧).
(٣) الحجر: الآية (٢١).
(٤) ص: الآية (٩).
(٥) الطور: الآية (٣٧).
(٦) الإسراء: الآية (١٠٠).
(٧) سبأ: الآية (٣٩).
(٨) سبأ: الآية (٣٦).
(٩) الرعد: الآية (٢٦).
(١٠) النحل: الآية (٧١).
(١١) الزخرف: الآية (٣٢).
(١٢) النساء: الآية (١٣٥).
(١٣) الطلاق: الآية (٧).

تضييقه عليه. . وقد بين -جل وعلا- في بعض الآيات حكمة تضييقه للرزق على من ضيقه عليه.

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان، قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) الشورى: الآية (٢٧).

(٢) العلق: الآيتان (٦-٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٧٦-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والمعنى شرع اللَّه لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة»[2].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مبينًا في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[3] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾[4] وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وهددهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾[5] لأن قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[6]: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾[7].

---

(١) الشورى: الآية (١٣).
(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٥٦-١٥٧).
(٣) آل عمران: الآية (١٠٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٦) المؤمنون: الآية (١).
(٧) المؤمنون: الآيات (٥٢-٥٤).

فقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد، وربكم واحد فلا تتفرقوا في الدين.

وقوله -جل وعلا-: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ فيه تهديد لهم ووعيد عظيم على ذلك. ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1] فقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ فيه أيضًا تهديد لهم ووعيد على ذلك»[2].

قال محمد مكي الناصري: «يؤكد كتاب اللَّه تعالى قاعدة أساسية من القواعد التي قام عليها الإسلام، ألا وهي أن الدين الذي بعث اللَّه به الأنبياء والرسل جيلا بعد جيل إنما هو في جوهره دين واحد، متسم بطابع الوحدة والتسلسل عبر القرون، وذلك لأن منبع الدين ومصدر الوحي واحد أزلا وأبدا، وهو اللَّه تعالى الذي خلق الكون وسن لتسييره السنن والنواميس الطبيعية المناسبة، وخلق الإنسان وسن لسلوكه السنن والنواميس الأخلاقية الملائمة، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[3] وهذه القاعدة الأساسية من قواعد الإسلام وهي التي تفسر ما فرضه اللَّه على المسلم من الإيمان باللَّه وبجميع رسله وجميع كتبه دون تمييز ولا استثناء، حتى إن من كفر برسول واحد أرسله اللَّه، أو كتاب منزل من عند اللَّه، ويعتبر في دين الإسلام كافرا غير مؤمن، فالمسلم يحترم النبوات والرسالات جميعًا، والمسلم يؤمن بالكتب المنزلة كلها ما دامت محتفظة بنصها الأصلي، لا يستثنى من ذلك شيئًا إلا ما أدخل على نصوصه تحريف أو تأويل سيئ مما قام به الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وبفضل هذه العقيدة الأساسية في الإسلام لا يحس المسلم بأي حقد أو ضغينة أو عقدة نفسية نحو بقية الأنبياء والرسل، فضلا عن أن ينظر بعين النقص إلى مقامهم الرفيع عند اللَّه جملة أو تفصيلا.

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٩٢-٩٣).

(٢) أضواء البيان (٧/ ١٧٨-١٧٩).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

وكما أكد كتاب اللَّه في هذا السياق معنى الوحدة الاعتقادية والدينية، القائمة بين جميع الأنبياء والرسل، تبعا لوحدة الواحد الأحد، واهب النبوات والرسالات، الذي نبأهم وأرسلهم إلى خلقه، فإنه حض المؤمنين جميعًا على حفظ تلك الوحدة الدينية التي تمسك بها الأنبياء والرسل، وأمرهم بصيانتها من عوامل الفرقة والاختلاف.

وهذا التوجيه القرآني وإن كان موجها بالأصالة إلى المسلمين فإنه يمكن أن يمتد أثره حتى إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ بل إلى نفس المشركين العرب، ما داموا يدعون أنهم من بقايا ملة إبراهيم، فهؤلاء جميعًا إذا أنصفوا وراجعوا أنفسهم، وعادوا إلى المنبع الأول والصافي للدين الحق، يلتقون جميعًا في نقطة واحدة، ويجتمعون على كلمة سواء، وهي كلمة الإسلام وذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾»[1].

قال السعدي: «هذه أكبر منة أنعم اللَّه بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام الذي شرعه اللَّه للمصطفين المختارين من عباده؛ بل شرعه اللَّه لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه اللَّه لهم لا بد أن يكون مناسبا لأحوالهم، موافقا لكمالهم؛ بل إنما كملهم اللَّه واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم

---

(١) التيسير (٥/ ٤٤٠-٤٤٢).

أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق»[١].

قال ابن عاشور: «والمراد: المماثلة في أصول الدّين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمُها توحيدُ اللَّه، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أُودع مثله في دين الإسلام. فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياةِ الآخرة، وتقْوى اللَّه بامتثال أمره واجتناب مَنْهِيّه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[٢]. وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه.

ودين الإسلام لم يَخْلُ عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقًا وتوسيعًا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسدّ الذرائع، والأمر بالنظر في الأدلة، وبرفع الحرج، وبالسماحة، وبشدة الاتصال بالفطرة، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي: «مقاصدِ الشريعة الإسلامية». أو المراد المماثلة فيما وقع عقبه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ إلخ بناء على أن تكون ﴿أَنْ﴾ تفسيرية، أي شرع لكم وجوب إقامة الدّين المُوحَى به وعدم التفرّق فيه كما سيأتي. وأيًّا مّا كان فالمقصود أن الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسمّاة، وأن اتّباعه يأتي بما أتت به من خير الدّنيا والآخرة.

والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحًا أول رسول أرسله اللَّه إلى النّاس، فدينه هو أساس الدّيانات، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[٣] ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية، وانتشر بين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩٩-٦٠٠).
(٢) الأعلى: الآيات (١٤-١٩).
(٣) النساء: الآية (١٦٣).

العرب بدعوة إسماعيل إليه، فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على أثارة منه في الحجّ والختان والقِرى والفتوة. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، وأما دين عيسى فلأنه الدّين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر، وليتضمنَ التهيئةَ إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام. وتعقيب ذكر دين نوح بما أُوحي إلى محمّد ﷺ للإشارة إلى أن دين الإسلام هو الخاتم للأديان، فعطف على أول الأديان جمعًا بين طَرفيْ الأديان، ثم ذُكر بعدهما الأديانُ الثلاثة الأخَر لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾[1] الآية من سورة الأحزاب»[2].

قال تقي الدين الهلالي: «اعلم أن دين الرسل واحد في أصوله وهي أربعة:

توحيد اللَّه في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، ومن توحيده في عبادته جعل الحكم له.

الثاني: الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب التي أنزلها اللَّه على أنبيائه من عرفنا منهم ومن لم نعرف.

الثالث: إقامة العدل بين الناس لا تفضيل لشعب على شعب، ولا لفرد على فرد إلا بتقوى اللَّه العظيم، وما خص اللَّه به من الأنبياء من الوحي والعصمة لا يشاركهم في ذلك أحد.

الرابع: حسن الخلق ورحمة أهل الأرض كلهم حتى البهائم، فهذه لا يختلف فيها رسول ورسول، ولا ملة وملة، أما الشرائع كالحلال والحرام والعقوبات على الجرائم فإنها كانت مختلفة في شرائع الأنبياء السابقين قبل بعثة خاتمهم صلوات اللَّه وسلامه عليه، أما بعد بعثته فجميع بني آدم لهم ملة واحدة يجب عليهم اتباعها وهي الإسلام عقيدة وشريعة، ومن أبى من أهل الكتاب أن يدخل في الإسلام ويدين اللَّه به، وارتبط مع المسلمين بعهد وذمة فله شريعته يحكم بها في الدنيا أما بالنسبة

---

(١) الأحزاب: الآية (٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٥٠-٥١).

إلى الآخرة فكل من بلغته دعوة خاتم النبيين على وجهها كما بلغها أصحاب رسول اللَّه ﷺ إلى فارس والروم ومصر وبعض أهل الهند وخراسان ومن لم يؤمن بها ويدن اللَّه بها فإن اللَّه يعذبه عذابا شديدا، وأما من لم تبلغه أو بلغته مشوهة مبدلة فنكل أمره إلى اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يمنع اتباع الفرق والمذاهب ويجعل أهل الحق أمة واحدة، فمن حاد اللَّه ورسوله وشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين وهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وسائر القرون المفضلة، يوله اللَّه ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا»[3].

قلت: هكذا تتوارد تفسيرات العلماء عبر القرون والأزمان على وحدة الدين، وأن مصدره الكتب السماوية التي أنزلها اللَّه على أنبيائه ورسله. وأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم المبلغون عن اللَّه دينه، ومن ورثهم في كل حقبة من الزمن، وأن دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يختلف في باب المعتقد، ولا يمكن أن يختلف؛ لأن باب المعتقد لا أثر للزمان فيه ولا للمكان، فهو شيء واحد من آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة. فما يجب للَّه تعالى من كمال يستحقه، وما يجب على العباد من تنزيهه عن النقائص أمر لا يختلف من نبي إلى آخر. وما أخبر به -تبارك وتعالى- من وعد ووعيد لأهل الثواب والعقاب لا يختلف من نبي لآخر، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- كلهم دعاة إلى الحق. فالنظرة إليهم واحدة. فلا يجوز أن يوصفوا إلا بما يليق بهم من كمال البشرية وعدم الوقوع فيما يخل بتبليغ رسالتهم. ومن اعتقد فيهم خلاف ذلك إما بغلو فرفعهم عن درجات البشرية ووصفهم بما يخص اللَّه من ألوهية أو ربوبية فقد وقع في الشرك والكفر، أو انتقصهم بما لا يليق بهم فوصفهم بما يرد رسالاتهم فكل هذا من الكفر والموبقات. ولهذا تجد القرآن يذكرهم في باب المعتقد ذكرا واحدًا.

أما ما يتعلق بالحلال والحرام والتيسير والتعسير ورفع الحرج عن هذه الأمة ووقوعه في أمة أخرى فهذا لا شك يتماشى مع الزمان والمكان ونوعية المخاطبين.

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) الكهف: الآية (٤٩).

(٣) سبيل الرشاد (٤/ ٦٠-٦١).

وأجمعها وأوسعها للخير والسماحة والتيسير والصلاحية لكل زمان ومكان شريعة خاتم الأنبياء والرسل -عليه الصلاة والسلام-؛ فإنها جمعت بين سعة العلم وتنظيم العمل وتوزيعه، ورتبت ذلك ترتيبًا بديعًا يناسب كل الأمم أينما وجدوا في أي إقليم وفي أي بقعة من الأرض، وراعت الأعمار والأحوال، فزمن الصِّبا له تشريع يخصه، والشيخوخة لها تشريع يخصها، والذَّكَر له ما يناسبه، والأنثى لها ما يرفع من شأنها ويناسبها، والمريض له أحكامه، وهكذا تجد الشمولية في الحياة وبعد الممات. فلهذا أوجب اللَّه الدخول فيها على كل البشرية. قال صاحبها ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، فبعد بعثه محمدًا ﷺ لم يبق للتعبد إلا دين الإسلام. ومن تقرب إلى اللَّه بغيره كان عابثًا لا يقبل اللَّه منه صرفًا ولا عدلًا مهما عبد وبذل. وحتى الداخلون في الإسلام إذا لم يتابعوا رسول اللَّه ﷺ فلا عبرة بأعمالهم، كما قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وحدة المنهج والعقيدة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧-٣٥٠)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) آل عمران: الآية (٨٥).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (٦/ ١٤٦)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣-١٣٤٤/ ١٧١٨[١٨])، والبخاري تعليقًا (١/ ٣٩١).

وأخرجه بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أحمد (٦/ ٢٤٠)، والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨[١٧])، وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

★ **غريب الحديث:**

إخوة لعلات: العلة: الضرة، مأخوذ من العلل، وهو الشربة الثانية بعد الأولى، وكأن الزوج عل منها بعدما كان ناهلًا من الأخرى[١]. قال النووي: قال العلماء: أولاد العلات، بفتح العين المهملة وتشديد اللام: هم الإخوة لأب من أمهات شتى. وأما الإخوة من الأبوين، فيقال لهم: أولاد الأعيان[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، وأما قوله ﷺ: **«ودينهم واحد»**، فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة اللَّه تعالى، وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعًا»[٣].

قال الطيبي: «والمعنى أن حاصل أمر النبوة والغاية القصوى من البعثة التي بعثوا جميعًا لأجلها دعوة الخلق إلى معرفة الحق، وإرشادهم إلى ما به ينتظم معاشهم ويحسن معادهم، فهم متفقون في هذا الأصل، وإن اختلفوا في تفاريع الشرع التي هي كالوصلة المؤدية والأوعية الحافظة له، فعبر عما هو الأصل المشترك بين الكل بالأب ونسبهم إليه، وعبر عما يختلفون فيه من الأحكام والشرائع المتفاوتة بالصورة المتقاربة في الغرض بالأمهات، وهو معنى قوله: **«أمهاتهم شتى ودينهم واحد»** وأنهم وإن تباينت أعصارهم وتباعدت أيامهم فالأصل الذي هو السبب في إخراجهم وإبرازهم -كلًا في عصره- أمر واحد وهو الدين الحق الذي فطر الناس مستعدين لقبوله ممكنين من الوقوف عليه والتمسك به، فعلى هذا المراد بالأمهات الأزمنة التي اشتملت عليهم وانكشفت عنهم»[٤].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظاهر في معناه: أن الأنبياء يختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، وبين بعضهم وبعض أنبياء أخر، وإن

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٦٢٠).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ٩٨).

(٣) شرح مسلم (١٥/ ٩٨).

(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٦٢٠).

شملتهم النبوة وكأنهم أولاد علات، إذ لم يجمعهم زمن واحد كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد. وعيسى لما كان قريب الزمن منه ولم يكن بينهما نبي، فكأنهما في زمن واحد وابني أم واحدة فكان بخلاف غيرهما»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأنبياء كلهم دينهم واحد، وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم، وكذلك التكذيب والمعصية، لا يجوز أن يكذب نبي نبيًا، بل إن عرفه صدقه وإلا فهو يصدق بكل ما أنزل اللَّه مطلقًا، وهو يأمر بطاعة من أمر اللَّه بطاعته؛ ولهذا كان من صَدَّق محمدًا فقد صدق كل نبي، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي، ومن كذبه فقد كذب كل نبي، ومن عصاه فقد عصى كل نبي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) إكمال المعلم (٧/ ٣٣٧).

(٢) النساء: الآيتان (١٥٠و١٥١).

(٣) البقرة: الآية (٨٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: كبر على المشركين بالله من قومك يا محمد ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالألوهية، والبراءة من كل ما سواه من الآلهة والأنداد»[٢].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه ﷺ من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه، ولعظم ذلك ومشقته عليهم كانوا يكرهون ما أنزل الله، ويجتهدون في عدم سماعه لشدة كراهتهم له؛ بل يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ.

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم نوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[٤].

فقوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به.

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمدًا ﷺ في آيات من

---

(١) الشورى: الآية (١٣).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ١٥).

(٣) يونس: الآية (٧١).

(٤) نوح: الآية (٧).

كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾[1] فقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ الآية. يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات. وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾[2] الآية. وقوله تعالى في الزخرف: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3]، وقوله تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾[4] وقوله تعالى في القتال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[8] الآية. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

واعلم أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل اللَّه، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم؛ لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[9] فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر كل الحذر بأن يقول للذين كفروا الذين يكرهون ما أنزل اللَّه سنطيعكم في بعض الأمر لأن ذلك يسبب له ما ذكره اللَّه في الآيات

---

(١) الحج: الآية (٧٢).
(٢) فصلت: الآية (٢٦).
(٣) الزخرف: الآية (٧٨).
(٤) المؤمنون: الآية (٧٠).
(٥) محمد: الآية (٩).
(٦) الجاثية: الآيات (٦-٨).
(٧) لقمان: الآية (٧).
(٨) فصلت: الآية (٥).
(٩) محمد: الآيات (٢٤-٢٨).

المذكورة، ويكفيه زجرا وردعا عن ذلك قول ربه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾»[1].

قال ابن عاشور: «عبر عن دعوة الإسلام بـ(ما) الموصولة اعتبارًا بنُكران المشركين لهذه الدعوة واستغرابِهم إيّاها، وعدِّهم إيّاها من المحال الغريب، وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات:

جهة الداعي لأنه بشر مثلهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2]، ولأنه لم يكن قبْل الدعوة من عظماء القريتين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3].

وجهةِ ما به الدعوة، فإنهم حسبوا أن اللّه لا يخاطب الرّسل إلا بكتاب ينزله إليه دفعة من السماء فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[4] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[5] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾[6] والقائلون هم المشركون.

ومن جهة ما تضمنته الدعوة مما لم تساعد أهواؤهم عليه قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[7] ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[8] وجيء بالفعل المضارع في: ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ للدلالة على تجدد الدعوة واستمرارها»[9].

قلت: وما يزال هذا يتكرر في كثير من الأزمان، فأية دعوة إلى التوحيد، وأي داع إلى التوحيد يجد المعارضة، وتنسج حوله الدعايات، وتوضع في طريقه العقبات، يتولى ذلك القبوريون ودعاة الشرك المنتفعون بالقرب التي تقدم إلى أضرحتهم وأوثانهم، وما يستلذون به أيضًا من الوقوع في الفاحشة من النساء والغلمان، وما يستفيدونه أحيانًا من علاقات سامية بالسلط والحكومات التي تتبنى هذه المناهج الباطلة الشركية. فكل هذا يجعلهم يقفون وقفة رجل واحد في وجه

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٨٠-١٨١).
(٢) الإسراء: الآية (٩٤).
(٣) الزخرف: الآية (٣١).
(٤) الإسراء: الآية (٩٣).
(٥) الفرقان: الآية (٢١).
(٦) البقرة: الآية (١١٨).
(٧) ص: الآية (٥).
(٨) سبأ: الآية (٧).
(٩) التحرير والتنوير (٢٥/ ٥٤-٥٥).

دعوة التوحيد، وكمثال على هذا ما حصل للمجدّد المصلح الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، الذي جدد اللّه به دعوة التوحيد، وأنار به السبيل، فقام في وجهه علماء السوء في كل مكان يصفونه بما يصفونه به، وهم كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1]، وكل داعية إلى التوحيد له نصيب من هذه المواجهة. فقراءة القرآن وفهمه على الوجه الصحيح هو الذي يهوّن على الداعية كل ما يعترضه من صعوبة. فكل زمان له مشركوه والذين يحاربون الكتاب والسنة. فيعظم عليهم ما يدعوهم الداعية إليه من الرجوع إلى الكتاب والسنة، فتنسج حوله الأكذوبات، ويجتمع أهل الإفك والبهتان ليصدوا عن السنة والقرآن.



(١) الكوثر: الآية (٣).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[٢].

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ مع قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾[٣] مع العلم بأحوال الصحابة ﷺ، وأن شدة إنابتهم دليل على أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، ﷺ أجمعين»[٤].

قال الشنقيطي: «دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبى من خلقه من يشاء اجتباءه. وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٦] الآية.

وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[٧]. وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إلى قوله:

---

(١) الشورى: الآية (١٣).
(٢) المائدة: الآية (١٦).
(٣) لقمان: الآية (١٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠٠-٦٠١).
(٥) الحج: الآيتان (٧٧-٧٨).
(٦) فاطر: الآية (٣٢).
(٧) طه: الآية (١٢٢).

﴿شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ﴾[1] الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين .

وقوله تعالى : ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي : من سبق في علمه أنه ينيب إلى اللَّه أي : يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[2]»[3] .

* * *

(١) النحل : الآيتان (١٢٠-١٢١).

(٢) الرعد : الآية (٢٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ١٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ۝١٤﴾

★ غريب الآية:

بغيًا: ظلمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب اللَّه تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبعية، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب؛ لأن لكل عذاب عنده أجلًا مسمى؛ أي: وقتًا معلومًا واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود والنصارى، والدليل قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾[1] وقال في سورة لم يكن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾[2] ولأن قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ لائق بأهل الكتاب، وقال آخرون: إنهم هم العرب، وهذا باطل للوجوه المذكورة؛ لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ لا يليق بالعرب؛ لأن

---

(١) آل عمران: الآية (١٩).

(٢) البينة: الآية (٤).

الذين أورثوا الكتاب من بعدهم، هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول اللَّه ﷺ»[١].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فهؤلاء المختلفون بالتأويل بعد مجيء الكتاب كلهم مذمومون، والحامل لهم على التفرق والاختلاف البغي وسوء القصد»[٣].

قال السعدي: «لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل اللَّه عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل اللَّه عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم»[٤].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) يونس: الآية (٩٣).

(٣) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠١).

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه.

قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة اللَّه، كما أمركم اللَّه ﷻ.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحدٍ منهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني اللَّه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من في العالمين طوعا وإختيارا.

وقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن

كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾[١].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجهٌ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[٢].

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب»[٣].

قال السعدي: «﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل اللَّه به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله، ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ بنفسك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر اللَّه، لا تفريط ولا إفراط؛ بل امتثالا لأوامر اللَّه، واجتنابا لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك. ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى اللَّه، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: «ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذي شرعه اللَّه لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه؛ بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا.

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك؛ لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقا

---

(١) يونس: الآية (٤١).
(٢) سبأ: الآية (٢٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٣-١٨٤).

بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرانا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته. وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ من خير وشر ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل؛ لأن المقصود من الجدال إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزي كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب»[2].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠٢-٦٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

داحضة: باطلة زائلة، يقال: دحضت حجته: إذا بطلت، أصله من الدحض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «والذين يخاصمون في دين اللَّه الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ من بعد ما استجاب له الناس، فدخلوا فيه من الذين أورثوا الكتاب ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ يقول: خصومتهم التي يخاصمون فيه باطلة ذاهبة عند ربهم ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يقول: وعليهم من اللَّه غضب، ولهم في الآخرة عذاب شديد، وهو عذاب النار»[1].

قال ابن عاشور: «معنى محاجتهم في اللَّه محاجتهم في دين اللَّه؛ أي: إدخالهم على النّاس الشك في صحّة دين الإسلام، أو في كونه أفضل من اليهودية والنصرانية. ومحاجتهم هي ما يُلبسوه به على المسلمين لإدخال الشك عليهم في اتّباع الإسلام، كقول المشركين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[2] وقولهم في الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[3] وقولهم في إنكار البعث: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾[4] وقولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[5]، وكقول أهل الكتاب: نحن الذين على دين إبراهيم، وقولهم: كتابنا أسبق من كتاب المسلمين. وإطلاق اسم الحجة على شبُهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكم، والقرينةُ قوله تعالى: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾»[6].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٨-١٩).
(٢) الفرقان: الآية (٧).
(٣) يونس: الآية (١٨).
(٤) ق: الآية (٣).
(٥) القصص: الآية (٥٧).
(٦) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٥-٦٦).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يمارون: يشكون ويخاصمون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها؛ بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بينات، وأدلة واضحات على جميع المطالب الإلهية، والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله اللَّه تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، مما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من

أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأيُّ بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله، وإنما هذه الدار بالنسبة إليها كراكب قال في ظل شجرة ثم رحل وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولا وأغزرهم علما، وأعظمهم فطنة وفهما»[(١)].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان، أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[(٢)]. فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[(٣)].

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي والله تعالى أعلم: أن الميزان في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠٥-٦٠٧). (٢) الحديد: الآية (٢٥).
(٣) الرحمن: الآيات (٧-٩).

سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين. وأن الميزان في سورة الرحمن هو الميزان المعروف، أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات. ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه، وقال في سورة الشورى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ وقال في الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ .

وأما في سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة، وذلك في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ لأن الميزان الذي نهوا عن إخساره هو أخو المكيال، كما قال تعالى: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1] . وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[2]. وقال تعالى عن نبيه شعيب: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[3] الآية. وقال تعالى عنه أيضًا: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[4] الآية. وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5] وقال تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾[6]»[7].

وقال أيضًا: «قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة يستعجلون بها، أي يطلبون تعجيلها عليهم لشدة إنكارهم لها.

والثانية: أن المؤمنين مشفقون منها، أي خائفون منها.

والثالثة: أنهم يعلمون أنها الحق، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه.

---

(١) الشعراء: الآيات (١٨١-١٨٣).
(٢) المطففين: الآيات (١-٣).
(٣) هود: الآية (٨٤).
(٤) الأعراف: الآية (٨٥).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٢).
(٦) الإسراء: الآية (٣٥).
(٧) أضواء البيان (٧/ ١٨٣-١٨٤).

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[١] وفي غير ذلك من المواضع.

وأما المسألة الثانية: التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة، فقد ذكره في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾[٤].

وأما المسألة الثالثة: وهي علمهم أن الساعة حق، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها؛ لأنها تتضمن نفي الريب فيها من المؤمنين.

والريب: الشك كقوله تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[٥] الآية. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٦] الآية: وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٨] الآية. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات»[١٠].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشراط الساعة

* عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[١١].

(١) الرعد: الآية (٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٤٩).
(٣) النور: الآية (٣٧).
(٤) الإنسان: الآية (٧).
(٥) آل عمران: الآية (٩).
(٦) النساء: الآية (٨٧).
(٧) آل عمران: الآية (٢٥).
(٨) الشورى: الآية (٧).
(٩) الحج: الآيتان (٦-٧).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ١٨٧-١٨٨).
(١١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٠) واللفظ له، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥١)، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤) وقال: «حسن صحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال التوربشتي: الساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبر بها عن القيامة. وقد ورد في كتاب اللَّه وسنة رسوله على أقسام ثلاث:

القيامة الكبرى: وهي بعث الناس للجزاء.

والقيامة الوسطى وهي انقراض القرن الواحد بالموت.

والقيامة الصغرى وهي موت الإنسان»[1].

قال الكرماني: «أما معنى الحديث فقيل: هو إشارة إلى قرب المجاورة. وقيل: إلى تقارب ما بينهما طولًا، وفضل الوسطى على السبابة؛ لأنه شيء يسير أطول منها. فالوجه الأول بالنظر إلى العرض، والثاني بالنظر إلى الطول. وقيل: إنه ليس بينه وبين الساعة نبي غيره مع التقريب لحينها. فإن قلت: إن اللَّه عنده علم الساعة، ولا يعلمها غيره، فكيف علم أنها قريبة؟ قلت: المعلوم قربها، والمجهول ذاتها، فلا معارضة»[2].

قال الطيبي: «قال التوربشتي: ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن يكون المراد منه ارتباط دعوته بالساعة لا تفترق إحداهما عن الأخرى، كما أن السبابة لا تفترق عن الوسطى، ولا يوجد بينهما ما ليس منهما»[3].

قال القرطبي: «إن قيل: ثبت أن النبي ﷺ سأله جبريل عن الساعة فقال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**» الحديث، فهذا يدل على أنه لم يكن عنده علم، ورويتم عنه أنه قال: «**بعثتُ أنا والساعة كهاتين**» وهذا يدل على أنه كان عالمًا، فكيف يتألف الخبران؟ قيل له: قد نطق القرآن بقوله الحق: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾[4] الآية، فلم يكن يعلمها هو ولا غيره. وأما قوله: «**بعثتُ أنا والساعة كهاتين**» فمعناه أني النبي الأخير، فلا يليني نبي آخر، وإنما تليني القيامة، كما تلي السبابة الوسطى، وليس بينهما أصبع أخرى، وهذا لا يوجب أن يكون له علم

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٨١).

(٢) شرح الكرماني (٢٣/ ٢٤).

(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٨١).

(٤) الأعراف: الآية (١٨٧).

بالساعة نفسها، وهي مع ذلك كائنة؛ لأن أشراطها متتابعة، وقد ذكر اللَّه الأشراط في القرآن فقال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾[1]؛ أي: دنت. وأولها النبي ﷺ؛ لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي»[2].

قال القسطلاني: «والذي يتجه القول بأنه إشارة إلى قرب ما بينهما، ولو كان المراد قرب المجاورة لقامت الساعة لاتصال إحدى الأصبعين بالأخرى»[3].

قال القرطبي: «وحاصله تقريب أمر الساعة، وسرعة مجيئها. وهذا كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾. قال الحسن: أول أشراطها محمد ﷺ»[4].

قال الحافظ: «الحكمة في تقدم الأشراط إيقاظ الغافلين، وحثهم على التوبة والاستعداد»[5].

* * *

---

(١) محمد: الآية (١٨).

(٢) التذكرة (ص: ٦٢٥-٦٢٦).

(٣) إرشاد الساري (١٣/ ٥٩١).

(٤) المفهم (٧/ ٣٠٥).

(٥) فتح الباري (١١/ ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: كثير الإحسان بهم، وإنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف اللَّه بعباده، وأيضًا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضًا من لطف اللَّه تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم، لا جرم حسن ذكره هاهنا، ثم قال: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ أي: القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يدافع»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده -وخصوصا المؤمنين- إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك من فطرته على محبة الحق والانقياد له، وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيا لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٦١).

وتنبعث هممهم، ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠٧-٦٠٨).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: من كان يريد بعمله الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾: يقول: نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشرا، إلى ما شاء ربنا من الزيادة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يقول: ومن كان يريد بعمله الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نؤته منها ما قسمنا له منها. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ يقول: وليس لمن طلب بعمله الدنيا، ولم يرد اللَّه به في ثواب اللَّه لأهل الأعمال التي أرادوه بأعمالهم في الدنيا حظ»[1].

قال ابن عاشور: «هذه الآية متصلة بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ لِمَا تضمنته من وجود فريقين: فريق المؤمنين أكبر همهم حياةُ الآخرة، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدّنيا، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة اللَّه الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم عبيده، وكونهم بمحل لطف منه، فكانت جملة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ تمهيدًا لهذه الجملة، وكانت هاته الجملة تفصيلًا لحظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدم الإيمان بها.

ولأجل هذا الاتصال بينها وبين جملة ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ تُرك عطفها عليها، وترك عطف توطئتها كذلك، ولأجل الاتصال بينها وبين جملة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ اتصالَ المقصود بالتوطئة تُرك عطفها على جملة ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾»[2].

قال الزمخشري: «سمى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة والزكاء حرثًا على المجاز. وفرق بين عملي العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٧٣-٧٤).

حسناته، ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

* عن أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض**»، -وهو يشك في السادسة- قال: «**فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

السناء: ارتفاع المنزلة والقدر، من سنى يسنى سناء أي: ارتفع.

⋆ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا»** أي: قصد بعمله الأخروي استجلاب الدنيا، وجعله وسيلة إلى تحصيلها، «**لم يكن له في الآخرة من نصيب**»؛ لأنه لم يعمل لها»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية. ثم قال: يقول الله: «**ابن آدم! تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإلا تفعل، ملأتُ صدرك شغلًا، ولم أسدّ فقرك**»[٤].

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٦٥-٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٤)، وهو من زوائد عبد الله بن الإمام أحمد أيضًا (٥/ ١٣٤)، والحاكم (٤/ ٣١١و٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٣٢/ ٤٠٥).

(٣) فيض القدير (٣/ ٢٠١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٨)، الترمذي (٤/ ٥٥٤/ ٢٤٦٦) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٧)، أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٤٣) واللفظ له، وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان الإحسان (٢/ ١١٩/ ٣٩٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**تفرغ لعبادتي**» أي: تفرغ من مهامك لعبادتي حتى أقضي مهامك، ومن كان الله تعالى قاضيًا لمهامه يستغني به عن خلقه؛ لأنه الغني على الإطلاق، وهو المعني بقوله: «**أملأ صدرك غنى**»، وإن لم تتفرغ، واشتغلت بغيري لم أسدّ فقرك؛ لأن الخلق فقراء على الإطلاق، فيزيد فقرك على فقرك، وهو المراد بقوله: «**ملأت يدك شغلًا**» فاليد عبارة عن سائر جوارحه؛ لأن معظم الكسب إنما يتأتى من اليد»[1].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم، لم يبال الله في أيّ أودية الدنيا هلك**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «عدل من ظاهر قوله: «**وجعل هم الدنيا همومًا**» إلى «**تشعبت الهموم به**» ليؤذن بتصرف الهموم فيه، وتفريقها إياه في أودية الهلاك، وأن الله تعالى تركه وهمومه، ولم يتكفل أحواله، بخلاف الأول، فإنه تكفل الله تعالى أمر همومه بنفسه، وكفاه مؤنته. والله أعلم»[3].

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال: «**جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه -قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا- فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل**»[4].

تقدم شرحه في سورة (الأنفال) عند قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية (٣٩).

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٨٢).

(٢) الحاكم (٤/ ٣٢٩-٣٣٠) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: يحيى بن المتوكل ضعفوه، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٢٨٩/ ١٠٣٤٠) وأخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٧٥/ ٤١٠٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والحديث حسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣١-٢٣٢/ ٣١٧٠).

(٣) شرح الطيبي (٢/ ٧١٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٢-٣٩٧)، والبخاري (١/ ٢٩٦/ ١٢٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٢-١٥١٣/ ١٩٠٤)، وأبو داود (٣/ ٣١/ ٢٥١٧)، والترمذي (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ١٦٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٣٣٠-٣٣١/ ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: أم لهؤلاء المشركين بالله شركاء في شركهم وضلالتهم ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ يقول: ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتداعه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولولا السابق من الله في أنه لا يعجل لهم العذاب في الدنيا، وأنه مضى من قيله إنهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة، لفرغ من الحكم بينكم وبينهم بتعجيله العذاب لهم في الدنيا، ولكن لهم في الآخرة من العذاب الأليم، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: وإن الكافرين بالله لهم يوم القيامة عذاب مؤلم مُوجع»[1].

قال الرازي: «اعلم أن الله تعالى لما بيّن القانون الأعظم، والقسطاس الأقوم، في أعمال الآخرة والدنيا، أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ ومعنى الهمزة في ﴿أَمْ﴾ التقرير والتقريع وشُرَكَاؤُهُمْ شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا؛ لأنهم يعلمون غيرها، وقيل: شُرَكَاؤُهُمْ أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله، ولما كان سببًا لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾[2] وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين لله، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، أو يقال: ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢١).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٦).

﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ »[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم، ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل اللَّه، وتحليل ما حرم اللَّه ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه اللَّه تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئًا ما جاء عن اللَّه وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم على الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه اللَّه فاصلا بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل؛ لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم»[٢].

قال صديق حسن خان: «والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به اللَّه سبحانه أو رسوله، فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله؛ ذمه في كتابه في غير موضع، ولم يأذن به رسوله، ولا إمام من أئمة الدين، ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة، ومن كان بعدهم من أهل الحق، ركب الإيمان وأتباع السنة المطهرة، وإنما أحدثه من أحدث من الجهال والعوام، بعد القرون المشهود لها بالخير، فرحم اللَّه امرءا سمع الحق فاتبعه، وسمع الباطل فتركه وأدمغه وباللَّه التوفيق»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ابتداء الأصنام في الجزيرة العربية

* عن سعيد بن المسيب قال: «البَحِيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٠٩-٦١٠).

(٣) فتح البيان (١٢/ ٢٩٥).

أحد من الناس، والسائبة التي يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء».

قال: وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب»[1].

★ **غريب الحديث:**

قصبه: الأقصاب: الأمعاء، واحدها: قصب[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «كان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام، لعنه اللَّه وقبّحه»[3].

وقال أيضًا: «وعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها، والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره اللَّه في سورة (الأنعام) عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[4]»[5].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن عَمْرو بن لُحَيّ هو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام، ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش، وكان هو سيد خزاعة»[6].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، والبخاري (٦/ ٦٧٩/ ٣٥٢١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨/ ١١١٥٦).

(٢) الإكمال (٨/ ٣٨٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٦).

(٤) الأنعام: الآية (١٣٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٠-٢١١).

(٦) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٢﴾

★ **غريب الآية:**

مشفقين: خائفين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ترى يا محمد الكافرين بالله يوم القيامة ﴿مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ يقول: وَجِلين خائفين من عقاب الله على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم الخبيثة. ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ يقول: والذين هم مشفقون منه من عذاب الله نازل بهم، وهم ذائقوه لا محالة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذين آمنوا بالله، وأطاعوه فيما أمر ونهى في الدنيا، في روضات البساتين في الآخرة قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ يقول: للذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم في الآخرة ما تشتهيه أنفسهم، وتلذّه أعينهم. ذلك هو الفوز الكبير، يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أعطاهم الله من هذا النعيم، وهذه الكرامة في الآخرة: هو الفضل من الله عليهم، الكبير الذي يفضل كلّ نعيم وكرامة في الدنيا من بعض أهلها على بعض»[1].

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت، فهذا الإشفاق مقرون بالاستيحاش؛ لأنه قد علم أنه صائر إليه كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها، فهو مشفق منها إذا رآها، لعلمه بأنه صائر إليها، فليست الآية من الخوف

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٢).

المأمور به في شيء»[١].

قال ابن كثير: «﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: في عرصات يوم القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأين هذا من هذا: أين من هو في العَرَصَات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[٢].

* * *

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٢٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٦-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أخبرتكم أيها الناس أني أعددته للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الآخرة من النعيم والكرامة، البشرى التي يبشر اللَّه عباده الذين آمنوا به في الدنيا، وعملوا بطاعته فيها»(١).

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه الأول: أن اللَّه سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا اللَّه تعالى. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي؛ لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منه. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر. الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال: ﴿يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة، نسأل اللَّه الفوز بها والوصول إليها»(٢).

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٢-٢٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٦٥).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة»[1].

قال السعدي: «يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أجرًا واحدًا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة اللَّه، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة؛ لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول اللَّه ﷺ فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة اللَّه تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى اللَّه، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي: في التقرب إلى اللَّه، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجرًا بالكلية، إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء؛ بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾[2] وقولهم: ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٧).

(٢) البروج: الآية (٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٣٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة أهل البيت

* عن ابن عباس ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: فقال سعيد بن جبير: قربى محمد، فقال: «إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش، إلا وله فيه قرابة، فنزلت عليه فيه، إلا أن تصلوا قرابة بيني وبينكم»[1].

* عن الشعبي قال: «أكثر الناس علينا في هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فكتبنا إلى ابن عباس ﷺ نسأله عن ذلك، فكتب ابن عباس ﷺ: «أن رسول الله ﷺ كان أوسط بيت في قريش، ليس بطن من بطونهم إلا قد ولده، فقال الله ﷻ: قل لا أسألكم عليه أجرًا إلى ما أدعوكم إليه إلا أن تودوني بقرابتي منكم وتحفظوني بها»[2].

★ **فوائد الحديثين:**

قال العيني: «وحاصل كلام ابن عباس أن جميع قريش أقارب النبي ﷺ، وليس المراد من الآية بنو هاشم ونحوهم، كما يتبادر الذهن إلى قول سعيد بن جبير، والله أعلم»[3].

قال الحافظ: «والحاصل أن سعيد بن جبير ومن وافقه كعلي بن الحسين والسدي وعمرو بن شعيب فيما أخرجه الطبري عنهم حملوا الآية على أمر المخاطبين بأن يوادوا أقارب النبي ﷺ، وابن عباس حملها على أن يوادوا النبي ﷺ من أجل القرابة التي بينهم وبينه، فعلى الأول الخطاب عام لجميع المكلفين، وعلى الثاني الخطاب خاص بقريش. ويؤيد ذلك أن السورة مكية. وقد قيل: إن هذه الآية نسخت بقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[4] ويحتمل أن يكون هذا عامًّا خص بما دلت عليه آية الباب، والمعنى أن قريشًا كانت تصل أرحامها،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٩)، والبخاري (٦/ ٦٥٢/ ٣٤٩٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣٢٥١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٣/ ١١٤٧٤).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٤٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) عمدة القاري (١٣/ ٢٩٣).

(٤) ص: الآية (٨٦).

فلما بعث النبي قطعوه فقال: صلوني كما تصلون غيري من أقاربكم»[١].

قال الشنقيطي: «اعلم أولًا أن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره، أن معنى الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ أي: إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان ﷺ له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكل أحد؛ لأن كل أحد يوده أهل قرابته، وينتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب، ولم يكن أجرًا على التبليغ لأنه لم يؤمن، وإذا كان لا يسأل أجرًا إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجرًا كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم. وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير وعليه فلا إشكال.

الثاني: أن معنى الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ أي: لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضًا؛ لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأحرى قرابة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٢] وفي الحديث: «**مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٣] وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٤] والأحاديث في مثل هذا كثيرة جدًّا.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٧٢٥).

(٢) التوبة: الآية (٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠/ ٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١/ ٧٨/ ١٣)، ومسلم (١/ ٦٧/ ٤٥)، والترمذي (٤/ ٥٧٥/ ٢٥١٥)، والنسائي (٨/ ٤٨٩/ ٥٠٣١)، وابن ماجه (١/ ٢٦/ ٦٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال، فمعناه على القول الأول: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لكن أذكركم قرابتي فيكم، وعلى الثاني: لكن أذكركم اللَّه في قرابتي فاحفظوني فيهم.

القول الثالث: وبه قال الحسن، ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي: إلا أن تتوددوا إلى اللَّه وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال؛ لأن التقرب إلى اللَّه ليس أجرًا على التبليغ.

القول الرابع: إلا المودة في القربى؛ أي: إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم، ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد اللَّه بن قاسم وعليه أيضًا فلا إشكال؛ لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجرًا على التبليغ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال.

وأما القول بأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾[1] فهو ضعيف، والعلم عند اللَّه تعالى. انتهى منه»[2].

قلت: والذي يظهر من خلال سياق أقوال المفسرين في تفسير الآية وشراح الحديث أن الدعوة إلى اللَّه تعالى نعمة من النعم، وخير من الخيرات، ورُقي وعلو بالمجتمعات، وبها تحصل الخيرية كما قال الله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[3].

ونبينا ﷺ على رأس هؤلاء الأخيار الذين شهد اللَّه لهم بكمال البلاغ، وشهد له أصحابه في أكبر مجمع ولقاء، فالمنتظر من قرابته الذين لهم به صلة ونسبة من جهة أبوية أن ينصروه ويكونوا له عونًا في نشر دعوته، لكن أكثرهم -مع الأسف- كان على العكس، فعمه أبو لهب وزوجه أنزل اللَّه فيهم قرآنًا يذمهم على حرب دعوة رسول اللَّه ﷺ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[4] الآية. وأيًّا ما كان فقرابة الداعية أولى بنصرته وأحق، والتخلف عنه أو محاربته من أفعال اللئام، وهذا الذي قررت في هذا التوضيح هو الذي يظهر راجحًا في تفسير الآية. والأقوال كلها متلازمة فلا تعارض في الأصل، وعلى أي تفسير وجهت قُبلت.

---

(١) سبأ: الآية (٤٧).
(٢) أضواء البيان (٧/ ١٨٩-١٩١).
(٣) آل عمران: الآية (١١٠).
(٤) المسد: الآية (١).

* يزيد بن حيان قال انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرًا، رأيت رسول اللَّه ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرًا، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ. قال: يا ابن أخي! واللَّه لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول اللَّه ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال: قام رسول اللَّه ﷺ يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «**أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب اللَّه فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به، فحث على كتاب اللَّه ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي**»، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1].

★ غريب الحديث:

خما: الخم غدير معروف بين مكة والمدينة بالجحفة وهو غدير خم.

ثقلين: قيل: سميا ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما، وقيل: لثقل العمل بهما.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «خما بضم الخاء المعجمة وهو موضع معروف وهو الذي أكثرت الشيعة وأهل الأهواء فيه من الكذب على رسول اللَّه ﷺ في استخلافه عليا ووصيته إياه، ولم يصح من ذلك كله شيء إلا هذا الحديث»[2].

وقال أيضًا: «هذه الوصية، وهذا التأكيد العظيم يقتضي: وجوب احترام آل

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٦-٣٦٧)، ومسلم (٤/ ١٨٧٣/ ٢٤٠٨)، وأبو داود مختصرًا دون ذكر محل الشاهد (٥/ ٢٥٥/ ٤٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥١/ ٨١٧٥).

(٢) المفهم (٦/ ٣٠٣).

النبي ﷺ وأهل بيته، وإبرارهم، وتوقيرهم، ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف عنها. هذا مع ما عُلم من خصوصيتهم بالنبي ﷺ وبأنهم جزء منه، فإنهم أصوله التي نشأ منها، وفروعه التي تنشأ عنه، كما قال ﷺ: «**فاطمة بَضعة مني يُريبني ما يُريبها**»[(١)](٢).

* عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب اللّٰه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «ولعل السر في هذه التوصية، واقتران العترة بالقرآن، أن إيجاب محبتهم لا تخلو من معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فإنه تعالى جعل شكر إنعامه وإحسانه بالقرآن منوطًا بمحبتهم على سبيل الحصر، فكأنه صلوات اللّٰه عليه يوصي الأمة بقيام الشكر وقيد تلك النعمة به، ويحذرهم عن الكفران، فمن أقام بالوصية وشكر تلك الصنيعة بحسن الخلافة فيهما لن يفترقا، فلا يفارقانه في مواطن القيامة ومشاهدها حتى يردا الحوض، فيشكرا صنيعه عند رسول اللّٰه ﷺ، فحينئذ هو بنفسه يكافئه، واللّٰه تعالى يجازيه بالجزاء الأوفى، ومن أضاع الوصية وكفر النعمة فحكمه على العكس، وعلى هذا التأويل حسن موقع قوله: «**فانظروا كيف تخلفوني فيهما**» والنظر بمعنى التأمل والتفكر؛ أي: تأملوا واستعملوا الروية في استخلافي إياكم، هل تكونون خلف صدق، أو خلف سوء»[(٤)].

قال ابن كثير: «ولا تُنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٨)، والبخاري (٩/ ٤٠٨/ ٥٢٣٠)، ومسلم (٤/ ١٩٠٢/ ٢٤٤٩)، وأبو داود (٢/ ٥٥٨/ ٢٠٧١)، والترمذي (٥/ ٦٥٥/ ٣٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٦٤٣-٦٤٤/ ١٩٩٨).

(٢) المفهم (٦/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه: الترمذي (٥/ ٦٢٢/ ٣٧٨٨) وقال: «حسن غريب»، وصححه الشيخ الألباني رحمه اللّٰه في الصحيحة (١٧٦١).

(٤) شرح الطيبي (١٢/ ٣٩٠٩-٣٩١٠).

الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، ﷺ أجمعين»[١].

* عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: «ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

«قال الحافظ: «**ارقبوا محمدًا في أهل بيته**» يخاطب بذلك الناس ويوصيهم به، والمراقبة للشيء المحافظة عليه، يقول: احفظوه فيهم، فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم»[٣].

قال الشيخ العثيمين: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول اللَّه ﷺ؛ يحبونهم لأمرين: للإيمان، وللقرابة من رسول اللَّه ﷺ، ولا يكرهونهم أبدًا.

ولكن لا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبا بكر وعمر؛ فقد أبغض عليًّا!! وعلى هذا؛ فلا يمكن أن نحب عليًّا حتى نبغض أبا بكر وعمر!! وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلي بن أبي طالب!! مع أنه قد تواتر النقل عن علي ﷺ أنه كان يثني عليهما على المنبر.

فنحن نقول: إننا نشهد اللَّه على محبة آل بيت الرسول ﷺ وقرابته؛ نحبهم لمحبة اللَّه ورسوله.

ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٩).
(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٩٧/ ٣٧١٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ٩٩).

كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]؛ فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسول -عليه الصلاة والسلام- بلا ريب.

وكذلك يدخل فيه قرابته؛ فاطمة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه. فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولإيمانهم بالله. فإن كفروا؛ فإننا لا نحبهم، ولو كانوا من أقارب الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ فأبو لهب عم الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يجوز أن نحبه بأي حال من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النبي ﷺ، وكذلك أبو طالب؛ يجب علينا أن نكرهه لكفره، لكن نحب أفعاله التي أسداها إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- من الحماية والذب عنه»[2].

* عن عائشة أن فاطمة ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي ﷺ فيما أفاء الله على رسوله ﷺ تطلب صدقة النبي ﷺ التي بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر: «إن رسول الله ﷺ قال: **لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال** -يعني مال الله- **ليس لهم أن يزيدوا على المأكل**، وإني والله لا أغير شيئًا من صدقات رسول الله ﷺ التي كانت عليها في عهد النبي ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، فتشهد علي ثم قال: إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك -وذكر قرابتهم من رسول الله ﷺ وحقهم- فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي»[3].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «المراد منه هنا قول أبي بكر: (لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن

(١) الأحزاب: الآيات (٢٨-٣٣).

(٢) شرح الواسطية (٢/ ٢٧٣-٢٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٩-١٠)، والبخاري (٧/ ٩٧/ ٣٧١١و٣٧١٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٠-١٣٨١/ ١٧٥٩[٥٢]) مطولا، وأبو داود (٣/ ٣٧٥-٣٧٦/ ٢٩٦٨)، والنسائي (٧/ ١٥٠/ ٤١٥٢) مختصرا.

أصل من قرابتي) وهذا قاله على سبيل الاعتذار عن منعه إياها ما طلبته من تركة النبي ﷺ»(١).

وقال: «وفي الحديث فضل أبي بكر ومحبته لقرابة النبي ﷺ»(٢).

قال شيخ الإسلام: «وكذلك أهل بيت النبي ﷺ تجب محبتهم وموالاتهم ورعاية حقهم.. ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على رعاية حقوق الصحابة والقرابة»(٣).

* عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل، إلا أدخله اللَّه النار**»(٤).

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٩٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ٧٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩١-٤٩٢).

(٤) أخرجه: الحاكم (٣/ ١٥٠) وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٥/ ٤٣٥/ ٦٩٧٨) وصححه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

يقترف: يكتسب، وأصل القرف: الكسب، يقال: فلان يقترف لعياله؛ أي: يكسب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما كان التقدير حتمًا: فمن يقترف سيئة فعليه وزرها، ولكنه طوى لأن المقام للبشارة كما يدل عليه ختم الآية مع سابقه، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ أي: يكسب ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج ﴿حَسَنَةً﴾ أي: ولو صغرت، وصرف القول إلى مظهر العظمة إشارة إلى أنه لا يزيد في الإحسان إلا العظماء، وإلى أن الإحسان قد يكون سببًا لعظمة المحسن فقال: ﴿نَّزِدْ﴾ على عظمتنا ﴿لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ بما لا يدخل تحت الوهم، ومن الزيادة أن يكون له مثل أجر من اقتدي به فيها إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيئًا، وهذا من أجر الرسل على إبلاغه إلى الأمم، فهم أغنياء عن طلب غيره، هذا إن اهتدوا به، وإن دعاهم فلم يهتدوا كان له مثل أجورهم لو اهتدوا، فإن عدم اهتدائهم ليس من تقصيره، بل قدر الله وما شاء فعل»[2].

قال السعدي: «﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سببا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

---

(١) الشورى: الآية (٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٩٨-٢٩٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافا كثيرة»[١].

قال الشنقيطي: «معناه الاكتساب؛ أي: من يعمل حسنة من الحسنات ويكتسبها، نزد له فيها حسنًا، أي نضاعفها له.

فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسنها، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب اللّه تعالى كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾[٥] فكونه خيرًا وأعظم أجرًا زيادة في حسنه كما لا يخفى، إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٢-٦١٣).

(٢) النساء: الآية (٤٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٦٠).

(٤) البقرة: الآية (٢٤٥).

(٥) المزمل: الآية (٢٠).

(٦) أضواء البيان (٧/ ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يعني: أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبا: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على اللَّه بادعاء النبوة والنسبة إلى اللَّه ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح؟؛ بل تجرأوا بذلك على اللَّه تعالى، فإنه قدح في اللَّه، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة -على موجب زعمهم- أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنه اللَّه من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من اللَّه له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الكونية التي لا تغير ولا تبدل، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبته في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما

أكتمه ولم تبده»[١].

قال ابن القيم: «في معنى الآية للناس قولان: أحدهما قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ اللَّه يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك. والثاني: قول قتادة: إن يشأ اللَّه ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول لوجوه:

أحدهما: أن هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم: إن محمدا كذب على اللَّه وافترى عليه هذا القرآن، فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن اللَّه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه؛ بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه، فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى علي لم أمكنه ولم أقره، ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد، والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا اللَّه، والبيان التام، والجزالة والفصاحة والجلالة، والأخبار بالغيوب، ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه، ويسرته بلسانه، لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا المعنى إلى المعنى الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟

الوجه الثاني: أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر.

الثالث: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب، ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن؛ بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن، كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٢] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[٣] ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤] وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٣-٦١٤).
(٢) البقرة: الآية (٧).
(٣) الجاثية: الآية (٢٣).
(٤) الكهف: الآية (١٤).

﴿أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾(١) والإنسان يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم على قلبي.

الرابع: أنه سبحانه حيث يحكي أقوالهم: (أنه افتراه) لا يجيبهم عليه هذا الجواب؛ بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من اللّه شيئًا؛ بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه. كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(٢) وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق، وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال، لا مجرد الصبر.

الخامس: أن هذه الآية نظير ما نحن فيه، وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

السادس: أنه لا دلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم، فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

السابع: أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾(٣) وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها؛ أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على اللّه، ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة، ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن اللّه بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله، ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم، وإن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إلي وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبا وافتراء كما

---

(١) القصص: الآية (١٠).

(٢) الأحقاف: الآية (٨).

(٣) يونس: الآية (١٦).

تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته؛ لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني، ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر، وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾[١] تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري، ومدخلي ومخرجي، وصدقي وأمانتي، ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم، ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تَعَمُّل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند اللَّه أوحاه إلي وأنزله علي، ولو شاء ما فعل فلم يمكنني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به؛ بل مكنني من تلاوته، ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إلي تاليا له ولا لبعضه، فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦﴾[٢] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ ولقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾[٣] وبرهان مستقل مذكور في القرآن على وجوه متعددة واللَّه أعلم؟.

الثامن: أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾[٤] وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ﴾[٥] وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[٦] ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيا.

التاسع: أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره؛ بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على

---

(١) يونس: الآية (١٦).
(٢) الإسراء: الآية (٨٦).
(٣) الحاقة: الآيتان (٤٤-٤٥).
(٤) النساء: الآية (١٣٣).
(٥) الشورى: الآية (٢٣).
(٦) سبأ: الآية (٩).

القلب فإنه يستلزم الصبر كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾[1] ومعنى الربط في اللغة: الشد، ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش، وقد ظن الواحدي أن (على) زائدة، والمعنى: يربط قلوبكم، وليس كما ظن؛ بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال ربط الفرس والدابة، ولا يقال ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه، كأنه أحاط عليه بالربط، فلهذا قيل: ربط على قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

العاشر: أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فهو مانع يمنع العلم والتقصد، والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: أنه افترى القرآن ويشعر به، فلم يجعل اللَّه على قلبه مانعا من الأذى بقولهم. قيل: هذا أولى أن يسمى ختما، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾[2] وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة اللَّه له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي، فالقول في الآية هو قول قتادة، واللَّه أعلم»[3].

قلت: وما ذكره العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ من وجوهٍ في تفسير الآية، وردٌّ على من فهمها فهمًا خاطئًا؛ هو الذي ينبغي التعويل عليه. وملخص ذلك أن دعوة الحق يكتب اللَّه لها البقاء والانتشار ويزداد حبها في قلب الأخيار. ومن تتبع تاريخ الإسلام يجد هذا القول صادقًا وواضحًا.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة الرسول -عليه الصلاة والسلام- قام بدعوة جددت دعوة رسول اللَّه ﷺ وأصلتها، وكتب اللَّه لها البقاء.

ودعوة الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أصبحت منارًا ونورًا يستضاء به، ونسف اللَّه دعوة ابن أبي دؤاد وأضرابه فأصبحت نسيًا منسيًا، ولا تعرف إلا بالسوء والضلال.

---

(١) الأنفال: الآية (١١).

(٢) الأنعام: الآية (٣٣).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١١١-١١٤).

ودعوة الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جدد اللَّه بها النبوة في كل مناحي الشريعة، وكأن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حي في كل عصر يخطب على كل منبر -والآن في كل قناة- ويتكلم في كل مكتبة.

ودعوة الإمام المجدد المصلح محمد بن عبد الوهاب أشرقت شمسها على جميع الأرض. واضمحلت دعوات الباطل التي عاصرته كالتيجانية التي حملت كل زنابل الكفر. وهكذا تبقى الدعوات الصادقة وتضمحل الدعوات الباطلة، وهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على تأييد اللطيف الخبير لعباده الصادقين، وخذلانه لأعدائه والمحرفين لدينه، والمتقولين المفترين عليه؛ الذين ملأوا كتبهم بالكذب عليه وعلى نبيه ﷺ.

فالحمد للَّه على فضله، فهو صاحب القدرة الذي لا يعجزه شيء، فهو لا يقر المفترين عليه، ولا يؤيدهم ولا ينصرهم؛ بل يؤيد الصادقين الناصحين الذين قاموا بالحق وبه يعدلون، ففهم الآية واضح ولا يحتاج فيه إلى تكلف المتكلفين. والقرآن يفصل بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1].

* * *

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره، ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول: ويعفوا له أن يعاقبه على سيئاته من الأفعال وهي معاصيه التي تاب منها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾»[1].

قال محمد الطاهر ابن عاشور: «لما جرى وعيد الذين يحاجون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾. ثم أتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾، وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾، وكان ذلك مَظنة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة، أعقب بإعلامهم أن الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده، وعفوُه بذلك عما سلف من سيئاتهم.

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال. وهو أيضًا بشارة للمؤمنين بأنه قبل توبتهم مما كانوا فيه من الشرك والجاهلية، فإن الذي من شأنه أن يقبل التوبة في المستقبل يكون قد قبل توبة التائبين من قبلُ، بدلالة لحن الخطاب أو فَحواه، وأن من شأنه الاستجابة للذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده. وكل ذلك جرْي على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه. وهذا كله يتضمن وعدًا للمؤمنين بقبول إيمانهم وللعصاة بقبول توبتهم»[2].

قال السعدي: «هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتمام لطفه، بقبول

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٨٨-٨٩).

التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن اللَّه يقبلها بعد ما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريما، كأنه ما عمل سوءا قط، ويحبه ويوفقه لما يقر به إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا اللَّه، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ »[١].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات. وقد جاء ذلك موضحًا في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التوبة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها**»[٦].

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللَّه أفرح بتوبة عبده من أحدكم**

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٥).
(٢) التوبة: الآية (١٠٤).
(٣) التحريم: الآية (٨).
(٤) آل عمران: الآية (١٣٥).
(٥) أضواء البيان (٧/ ١٩٣).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦)، ومسلم (٤/ ٢١٠٢/ ٢٧٧٥[٢])، واللفظ له، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٩/ ٤٢٤٧)، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٨٧-٣٨٨/ ٦٢١).

سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة»[١].

★ غريب الحديثين:

بتوبة أحدكم: أصل التوبة في اللغة: الرجوع. يقال: تاب وثاب بالمثلثة وآب بمعنى رجع، والمراد بالتوبة هنا: الرجوع عن الذنب.

ضالة: الضالة هي الضائعة من كل ما يقتنى من الحيوان وغيره. يقال: ضلّ الشيء: إذا ضاع. وضل عن الطريق: إذا حار. وتجمع على ضوالّ[٢].

سقط على بعيره: أي: صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به، ومنه قولهم: على الخبير سقطتَ. وحكى الكرماني أن في رواية: «**سقط إلى بعيره**» أي: انتهى إليه، والأول أولى[٣].

وقد أضلّه: أي: ذهب منه بغير قصده، قال ابن السكيت: أضللتُ بعيري: أي: ذهب مني، وضللتُ بعيري: أي: لم أعرف موضعه[٤].

بفلاة: أي: مفازة وصحراء.

★ فوائد الحديثين:

الفرح صفة فعلية خبرية ثابتة لله ﷻ بالأحاديث الصحيحة قال الشيخ محمد خليل هراس: «وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله ﷻ، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات، أنه صفة حقيقية لله ﷻ على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدُثُ له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يُحدِث عبدُهُ التوبةَ والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب، وقبوله توبته. وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع، فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب، وقد يكون فرح أشر وبطر، فاللّٰه ﷻ منزَّه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٣)، والبخاري (١١/ ١٢٣/ ٦٣٠٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٤/ ٢٧٤٧).

(٢) النهاية (٣/ ٩٨).

(٣) الفتح (١١/ ١٣٠).

(٤) المصدر السابق.

التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضى، وتفسير الرضى بإرادة الثواب، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق، تعالى اللَّه عن تشبيههم وتعطيلهم»[١].

قال القرطبي: «وقد اختلفت عبارات العلماء والمشايخ فيها، -أي: التوبة- فقائل يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على أن لا يعود، والآخر يقول: إنها الإقلاع عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة فيقول: إنها الندم على ذنب وقع، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعود إليه، وهذا أكملها، غير أنه مع ما فيه من التركيب المحذور في الحدود غير مانع ولا جامع.

بيان الأول: أنه قد يندم ويقلع ويعزم ولا يكون تائبًا شرعًا؛ إذ قد يفعل ذلك شحًا على ماله، أو لئلا يعيره الناس من ذلك. ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالنية والإخلاص؛ فإنها من أعظم العبادات الواجبات، ولذلك قال تعالى: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[٢].

وأما الثاني: فبيانه أنه يخرج منه من زنى مثلًا، ثم قطع ذكره، فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنى، وأما العزم والإقلاع فغير متصوَّرين منه، ومع ذلك فالتوبة من الزنى صحيحة في حقه إجماعًا، وبهذا اغتر من قال: إن الندم يكفي في حد التوبة، وليس بصحيح؛ لأنه لو ندم ولم يقلع، وعزم على العود لم يكن تائبًا اتفاقًا، ولمّا فهم بعض المحققين هذا، حدّ التوبة بحد آخر، فقال: هي ترك اختيار ذنب سبق منك مثله حقيقة أو تقديرًا لأجل اللَّه تعالى، وهذا أسدّ العبارات وأجمعها، وبيان ذلك أن التائب لا بد أن يكون تاركًا للذنب، غير أن ذلك الذنب الماضي قد وقع وفُرغ منه، فلا يصح تركه، إذ هو غير متمكن من عينه لا تركًا ولا فعلًا، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة، وهو زنىً آخر مثلًا، فلو جُبّ لم تصح منه حقيقة الزنى؛ بل الذي يصح منه أن يقدر أنه لو كان متمكنًا من الزنى لتركه، فلو

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص: ١٦٦-١٦٧).

(٢) التحريم: الآية (٨).

قدرنا من لم يقع منه ذنب لم يصح منه إلا اتقاء ما يمكن أن يقع، لا ترك مثل ما وقع، فيكون متقيًا لا تائبًا، فتدبر هذا.

وقوله: (لأجل اللَّه تعالى) تحرز من ترك ذلك لغير اللَّه تعالى؛ إذ ذاك لا يكون تائبًا اتفاقًا، فلا يكون فعله ذلك توبة، وهذا واضح. وإذا تقرر هذا، فاعلم أن الباعث على التوبة تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها، فإنها سموم مهلكة تفوت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وتحجبه عن معرفة اللَّه تعالى في الدنيا، وعن تقريبه وكرامته في الدار الآخرة. ومن انكشف له هذا وتفقد نفسه، وجد نفسه مشحونة بهذا السم، ومملوءة بهذه الآفات، فلا شك في أن من حصل له علم ذلك، انبعث منه خوف هجوم الهلاك، فتتعين عليه المبادرة لطلب أمر يدفع به عن نفسه ضرر ما يتوقعه ويخافه، فحينئذ ينبعث منه الندم على ما فرّط وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة اللَّه تعالى، فيصدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرًا على المعصية، وملازمًا لأسباب الهلكة»[1].

قال المازري: «التوبة من الذنب هي الندم عليه رعاية لحق اللَّه، ويجب على التائب أن يضيف إلى الندم على الذنب العزم على أن لا يعود إليه إذا كان متأتيًا منه العودة إليه، وتعجيل التوبة عند الذنب هو المأمور به، وتأخيرها عنه منهي عنه. وربما غلط بعض المذنبين ودام على الإصرار خوفًا من أن يتوب فينقض، وهذا اغترار وجهالة، ولا يحسن أن يترك واجبًا عليه على الفور، خوفًا أن يقع منه بعده ما ينقضه. وتصح التوبة عندنا عن الذنب مع البقاء على ذنب آخر خلافه، خلافًا لمن منعه من المعتزلة؛ لأن بواعث النفس على المعاصي تختلف، والشهوات في الفسوق تختلف باختلاف أنواعه، وطباع العصاة وحضور الأسباب المعينة على الشر، والصادرة عنه، فصح لذلك التوبة على الذنب مع البقاء على خلافه. ونحن نرى عيانًا العصاة يكفون عن شرب الخمر ليالي رمضان احترامًا له، ويشربونها في ليالي شوال، لاعتقادهم أن الذنب في رمضان أعظم، فإذا صح اختلاف الأغراض والأسباب لم يبعد النزوع عن ذنب مع البقاء على غيره، على ما قلناه. وإذا وقعت التوبة عن الذنب على شروطها، فإن كانت عن الكفر قُطع بقبولها، وإن كانت عما

---

(١) المفهم (٧/ ٦٩-٧١).

سواه من المعاصي فمن العلماء من يقطع على قبولها، ومنهم من يظن ذلك ظنًا ولا ينتهي إلى القطع؛ لأن الظواهر التي جاءت بقبولها ليست بنصوص عنده، وإنما هي عمومات معرضة للتأويل والتوبة يقارنها الحزن والغم على ما تقدم من الإخلال بحق اللَّه تعالى لأن الفرح المسرور بما فرط من زلاته لا يندم عليها»[١].

قال القاضي عياض: ذهب بعض مشايخنا إلى أن التوبة الإقلاع عن الذنب والندم على ما سلف، والعزم على أن لا يعاوده، وقال آخرون: إن التوبة الندم، قال: وفي ذلك ترك فعله في الحال والمستأنف؛ لأنه إذا ندم على ذنبه لم يفعله الآن وتركه، وعزم على أن لا يفعله، واحتج بقوله ﷺ: «**الندم توبة**»[٢]، وقال آخرون: معناه: معظم شروط التوبة وخصالها، كما قيل: «**الحج عرفة**»[٣]، وهذه الشروط في صحة التوبة من الندم على الذنب السالف والإقلاع عنه في الحال والمستقبل، وهذا إذا لم يتعلق بالذنب تباعة، فأما إذا تعلق به مع ارتكابه حق لله أو لآدمي، فلا بد من شرطين: أحدهما متفق عليه، والآخر مختلف فيه، فالمتفق عليه: أحدهما: في حق الآدمي، وهو رد مظلمته إليه، والخروج له عنها، أو يحلله منها بطيب نفسه، إذا كان لا يصح الإقلاع عنها إلا بذلك، كالغصب واسترقاق الحر، فإن الإقلاع لا يصح مع بقاء اليد على ذلك جملة. والثاني المختلف فيه: وهو ما كان من حق الآدمي في ما لا يصح الإقلاع دونه، كضربه أو قتله أو إفساد ما يلزمه غرمه. وكذلك في حق اللَّه في ما ضيعه من فرائضه، فإن الإقلاع عن ذلك توبة صحيحة مستقلة بنفسها، وقضاء ما فرط فيه من ذلك فرض آخر، وكذلك تمكينه مظلومه من القصاص من نفسه، أو غرمه له فرض آخر يصح التوبة دونه عندنا على ما تقدم»[٤].

---

(١) المعلم (٣/ ١٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٢)، وصححه ابن حبان (٢/ ٣٧٧/ ٦١٢[الإحسان])، والحاكم (٤/ ٢٤٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ١٩٤٩)، والترمذي (٣/ ٢٣٧/ ٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٣٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣/ ٣٠١٥) من حديث عبدالرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه.

(٤) الإكمال (٨/ ٢٤١-٢٤٢).

* عن الحارث بن سويد قال: حدثنا عبد اللَّه بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا». - قال أبو شهاب بيده فوق أنفه- ثم قال: «لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلًا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه، فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء اللَّه، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده»[1].

★ **غريب الحديث:**

مَهْلَكة: بفتح الميم واللام بينهما هاء ساكنة، يهلك من حصل بها. وفي بعض النسخ: مُهْلِكة، بضم الميم وكسر اللام من الرباعي؛ أي: تهلك من يحصل بها.

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والفرح إنما يكون بحصول المحبوب، والمذنب كالعبد الآبق من مولاه الفارّ منه، فإذا تاب فهو كالعائد إلى مولاه وإلى طاعته، وهذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ يبين من محبة اللَّه وفرحه بتوبة العبد، ومن كراهته لمعاصيه، ما يبين أن ذلك أعظم من التمثيل بالعبد الآبق، فإن الإنسان إذا فقد الدابة التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، فإنه يحصل عنده ما اللَّه به عليم من التأذي، من جهة فقد الطعام والشراب والمركب، وكون الأرض مفازة لا يمكن الخلاص منها، وإذا طلب ولم يجدها يئس واطمأن إلى الموت، وإذا استيقظ فوجدها كان عنده من الفرح ما لا يمكن التعبير عنه بوجود ما يحبه ويرضاه بعد الفقد المنافي لذلك. وهذا يبين من محبة اللَّه للتوبة المتضمنة للإيمان والعمل الصالح ومن كراهته لخلاف ذلك»[2].

وقال أيضًا: «فمن يجعل التائب الذي اجتباه اللَّه وهداه منقوصًا بما كان من

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاري (١١/ ١٢٣/ ٦٣٠٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٠٣/ ٢٧٤٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٨/ ٢٤٩٨)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٥/ ٧٧٤٢).

(٢) منهاج السنة (٥/ ٢٢٣-٢٢٤).

الذنب الذي تاب منه، وقد صار بعد التوبة خيرًا مما كان قبل التوبة، فهو جاهل بدين اللَّه تعالى وما بعث اللَّه به رسوله، وإذا لم يكن في ذلك نقص مع وجود ما ذُكر، فجميع ما يذكرونه هو مبني على أن ذلك نقص، وهو نقص إذا لم يتب منه، أو هو نقص عمن ساواه إذا لم يصر بعد التوبة مثله، فأما إذا تاب توبة محت أثره بالكلية وبدلت سيئاته حسنات، فلا نقص فيه بالنسبة إلى حاله، وإذا صار بعد التوبة أفضل ممن يساويه، أو مثله، لم يكن ناقصًا عنه، ولسنا نقول: إن كل من أذنب وتاب فهو أفضل ممن لم يذنب ذلك الذنب؛ بل هذا يختلف باختلاف أحوال الناس، فمن الناس من يكون بعد التوبة أفضل، ومنهم من يعود إلى ما كان، ومنهم من لا يعود إلى مثل حاله، والأصناف الثلاثة فيهم من هو أفضل ممن لم يذنب ويتب، وفيهم من هو مثله، وفيهم من هو دونه»[1].

* * *

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويجيب الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه لبعضهم دعاء بعض. .

وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائه إياهم مسألتهم من فضله على مسألتهم إياه، بأن يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إن ذلك الفضل الذي ضمن -جل ثناؤه- أن يزيدهموه، هو أن يشفعهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم»[1].

قال السعدي: «فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا -بحسب الاستجابة له- إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته؛ لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور. وزادهم من فضله توفيقا ونشاطا على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم. وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فـ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٢٨-٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٥-٦١٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استجابة دعاء المؤمن لأخيه

* عن سلمة بن سبرة ﷺ قال: «خطبنا معاذ ﷺ، فقال: أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة، واللَّه إني لأطمع أن يكون عامة من تصيبون بفارس والروم في الجنة؛ فإن أحدهم يعمل الخير، فيقول أحسنت بارك اللَّه فيك، أحسنت رحمك اللَّه، واللَّه يقول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ »[1].

* * *

(١) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٢٥/ ٢٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٦/ ٣٠٣٨٣) مختصرا، والبيهقي في الشعب (١/ ٨٤/ ٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٤٤) واللفظ له، وصححه ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بسط: وسع. وأصل البسط: الاتساع في الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد المكي الناصري: «يقرر كتاب اللّه حقيقة كونية غفلت عنها الأنظار ألا وهي أن الحق سبحانه وتعالى منذ اقتضت مشيئته أن يتكفل برزق الإنسان اقتضت حكمته أن لا يرزقه إلا بحساب وبقدر محدود، وأن لا يمنحه كل ما يطمع فيه، إلا أن أنانية الإنسان الجامحة، وميله إلى التبذير والإسراف لا يحدها شيء، فالإنسان كائن ضعيف تستهويه الملذات، وتغريه المغريات، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[1]، وقلما يعرف التوازن والاعتدال في سلوكه ومطالبه؛ بل إنه متى استغنى طغى وبغى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2] وفقد توازنه ونسي ربه، واستغل عطاء اللّه الواسع في المزيد من المعاصي والسيئات، لا في المزيد من الحسنات والطاعات، واللّه تعالى حين يقدر رزق الإنسان ولا يبسطه له إلى أقصى الحدود إنما يتصرف في ملكه عن خبرة تامة بهذا الإنسان الذي خلقه من العدم، وعن علم محيط بخلجات نفسه، وهواجس حسه، ولأجل أن لا ينقلب الإنسان طاغيا باغيا مطلق العنان في هذا الكون بالمرة جعل الحق سبحانه وتعالى مقاليد رزق الإنسان بيده، واضطر الإنسان لأن يبقى معلقا بين الخوف والرجاء دائما، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾﴾»[3].

---

(١) النساء: الآية (٢٨).
(٢) العلق: الآيتان (٦-٧).
(٣) التيسير (٥/ ٤٥٠-٤٥١).

قال المراغي: «أي: لو أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وطلب ما ليس لهم طلبه؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة لمن اعتبر، ولكن يرزقهم ما فيه صلاحهم، وهو أعلم بحالهم، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر بحسب ما يعلم من المصلحة في ذلك»[1].

قال ابن عاشور: «وموقع معناها موقع الاستدراك والاحتراس، فإنها تشير إلى جواب عن سؤال مقدر في نفس السامع إذا سمع أن اللَّه يستجيب للذين آمنوا، وأنه يزيدهم من فضله أن يتساءل في نفسه: أن مما يَسأل المؤمنون سعة الرّزق والبسطةَ فيه فقد كان المؤمنون أيام صدر الإسلام في حاجة وضيق رزق، إذ منعهم المشركون أرزاقهم، وقاطعوا معاملتهم، فيجاب بأن اللَّه لو بسط الرّزق للنّاس كلهم لكان بسطه مفسدًا لهم؛ لأن الذي يستغني يتطرقه نسيان الالتجاء إلى اللَّه، ويحمله على الاعتداء على الناس، فكان من خير المؤمنينَ الآجِلِ لهم أن لا يبسط لهم في الرّزق، وكان ذلك منوطًا بحكمة أرادها اللَّه من تدبير هذا العالم تَطّرد في الناس مؤمِنهم وكافرِهم قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾[2]. وقد كان في ذلك للمؤمن فائدة أخرى، وهي أن لا يشغله غناه عن العمل الذي به يفوز في الآخرة، فلا تشغله أموالُه عنه، وهذا الاعتبار هو الذي أشار إليه النبي ﷺ حين قال للأنصار لما تعرّضوا له بعد صلاة الصبح وقد جاءه مال من البَحرين: «**فواللَّه ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسطت على من قبلكم، فتنَافَسُوها كما تنافَسُوها، وتُهْلِكَكم كما أهلكتهم**».

وقد وردت هذه الآية موردًا كليًا؛ لأن قوله: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ يعُم جميع العباد. ومن هذه الكلية تحصل فائدة المسؤول عليه الجزئي الخاص بالمؤمنين مع إفادة الحكمة العامة من هذا النظام التكويني، فكانت هذه الجملة بهذا الاعتبار بمنزلة التذييل لما فيها من العموم؛ أي: أن اللَّه أسس نظام هذا العالم على قوانينَ عامةٍ، وليس من حكمته أن يخص أولياءه وحزبه بنظام تكويني دنيوي، ولكنه خصهم بمعاني القرب والرضى والفوز في الحياة الأبدية. وربما خصّهم بمَا أراد تخصيصهم به مما يرجع

---

(١) تفسير المراغي (٢٥/ ٤٥).

(٢) العلق: الآيتان (٦-٧).

إلى إقامة الحق»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الدنيا وزهرتها

* عن عمرو بن عوف الأنصاري -وهو حليف لبني عامر بن لؤي، وكان شهد بدرًا-: «أن رسول اللَّه ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول اللَّه ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافقت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول اللَّه ﷺ حين رآهم وقال: «**أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟ قالوا: أجل، يا رسول الله! قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فواللَّه لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

يأتي بجزيتها: والجزية من جزأت الشيء: إذا قسمته، وقيل: من الجزاء؛ أي: لأنها جزاء تركهم ببلاد الإسلام، أو من الإجزاء؛ لأنها تكفي من توضع عليه في عصمة دمه[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «فتنافسوها» تخفيفا، والضمير في «تنافسوها» منصوب بنزع الخافض، وأصله تنافسوا فيها، ومعناه: ترغبون فيها فتشتغلون بجمعها أو تحرصون على إمساكها فتطغون فيها فتهلكون، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[٤]. ويحتمل أن يكون هلاكهم من أجل أن المال مرغوب فيه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٢-٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٧)، البخاري (٦/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٥٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٧٣-٢٢٧٤/ ٢٩٦١)، والترمذي (٤/ ٥٥٢-٥٥٣/ ٢٤٦٢) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٤-١٣٢٥/ ٣٩٩٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٨٧٦٦).

(٣) الفتح (٦/ ٣١٨).

(٤) العلق: الآيتان (٦-٧).

فيطمع الناس فيه، ويتوقعون منه فمنعه منهم، فتقع العداوة بينهم ويفضي ذلك إلى المقاتلة»[(١)].

قال ابن بطال: «فيه أن زهرة الدنيا ينبغي أن يخشى سوء عاقبتها وشر فتنتها من فتح اللَّه عليه الدنيا، ويحذر التنافس فيها، والطمأنينة إلى زخرفها الفاني؛ لأن النبي -ﷺ- خشي ذلك على أمته، وحذرهم منه لعلمه أن الفتنة مقرونة بالغنى»[(٢)].

قال القرطبي: «وفيه ما يدل على أن الفقر أقرب للسلامة، والاتساع في الدنيا أقرب للفتنة، فنسأل اللَّه الكفاف والعفاف»[(٣)].

قال الحافظ: «وفيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين»[(٤)].

* عن عقبة بن عامر أن رسول اللَّه ﷺ خرج يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرطكم وأنا شهيد عليكم، وإني واللَّه لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض -أو مفاتيح الأرض- وإني واللَّه ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[(٥)].

★ غريب الحديث:

إني فرطكم: أي: متقدمكم، يقال: فَرَط يفرِطُ، فهو فارطٌ، وفرط إذا تقدم وسبق القوم؛ ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء والأريشة[(٦)].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفي هذا الحديث معجزات لرسول اللَّه ﷺ، فإن معناه الإخبار بأن أمته تملك خزائن الأرض، وقد وقع ذلك، وأنها لا ترتد جملة، وقد عصمها اللَّه تعالى من ذلك، وأنها تتنافس في الدنيا، وقد وقع كل ذلك»[(٧)].

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٧٩).
(٢) ابن بطال (١٠/ ١٥٥).
(٣) المفهم (٧/ ١١٣).
(٤) فتح الباري (٦/ ٣٢٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٩)، والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٩٥/ ٢٢٩٦)، وأخرجه أبو داود (٣/ ٥٥١/ ٣٢٢٣)، والنسائي (٤/ ٣٦٣/ ١٩٥٣) مختصرًا.
(٦) النهاية (٣/ ٤٣٤).
(٧) شرح مسلم (١٥/ ٤٨).

* عن أبي هانئ قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون: «إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذلك بأنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا»[1].

★ غريب الحديث:

أصحاب الصُّفّة: أما الصُّفّة التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي ﷺ فكانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمال المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه[2].

* عن علي رضي الله عنه قال: «ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم، إن أدناهم منزلة يشرب من ماء الفرات ويجلس في الظل، ويأكل من البر وإنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا: (لو أن لنا) فتمنوا الدنيا»[3].

★ غريب الحديث:

ماء الفرات: الفرات أشد الماء عذوبة، وفي التنزيل العزيز: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[4]. وقد فَرُت الماءُ يَفْرُتُ فُروتةً: إذا عذب، فهو فُراتٌ. والفرات: اسم نهر الكوفة، معروف.

* عن قتادة، وتلا قول اللّه عز وجل: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ فقال: حدثنا خليد بن عبد اللّه العصري، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**ما طلعت شمس قط، إلا بعث بجنبتيها ملكان إنهما ليسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر**

---

(١) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٢٥/ ٣٠) واللفظ له، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٨٦-٢٨٧/ ١٠٣٣٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٤): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٧٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٨).

(٣) أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٢/ ٣٤٥٠٩) مختصرا، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٨٦/ ١٠٣٣١).

(٤) الفرقان: الآية (٥٣).

وألهى، وما غربت شمس قط إلا وبجنبتيها ملكان يناديان اللهم عجل لمنفق خلفًا وعجل لممسك تلفًا»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «خص من الثقلين الإنسان بقوله: «**يا أيها الناس**» تنبيها على تماديهم في الغفلة وانهماكهم في الحرص وجمع حطام الدنيا حتى ألهاهم ذلك عن الإقبال إلى ذكر اللَّه تعالى وعبادته، وقيل لهم: إلى كم هذه الغفلة والإعراض عن ذكر الله؟ هلموا إلى طاعة ربكم، ما قل من الدنيا ويكفيكم ولا يلهيكم خير مما كثر وألهى، سمع هذا النداء من ألقى السمع وهو شهيد، أولئك الذين أشار اللَّه بذكرهم ورفع من منزلتهم في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[(٢)]»[(٣)].

* عن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم**، وقال عمران: فما أدري قال النبي ﷺ بعد قوله مرتين أو ثلاثًا، **ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، ويظهر فيهم السمن**»[(٤)].

★ غريب الحديث:

قرني: القرن أهل كل زمان، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم، وقيل القرن أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل مائة، وقيل هو مطلق الزمان، وهو مصدر قرن يقرن.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «دل حديث عمران بن حصين أن فتنة الدنيا لمن يأتي بعد القرن

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٧)، وأبو داود الطيالسي (٩٧٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٢٢/ ٢٩١٢)، وابن حبان (٢/ ٤٦٢/ ٦٨٦)، والحاكم (٢/ ٤٤٤-٤٤٥)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي وأورده الهيثمي في المجمع (٢/ ١٢٢) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) النور: الآية (٣٧).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٣٠٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦)، والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٦٤/ ٢٥٣٥)، والترمذي (٤/ ٤٣٣/ ٢٢٢١) والنسائي (٧/ ٢٣-٢٤/ ٣٨١٨).

الثالث أشد؛ لقوله ﷺ: «ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون» إلى قوله: «ويظهر فيهم السمن» فجعل ﷺ ظهور السمن فيهم، وشهادتهم بالباطل، وخيانتهم الأمانة، وتنافسهم في الدنيا، وأخذهم لها من غير وجهها، كما قال ﷺ في حديث أبي سعيد: «من أخذ من غير حقه فهو كالذي يأكل ولا يشبع»[(١)][(٢)].

* عن قيس قال: سمعت خبابًا وقد اكتوى يومئذ سبعًا في بطن، وقال: لولا أن رسول اللَّه ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ بالموت، إن أصحاب محمد ﷺ مضوا ولم تنقصهم الدنيا بشيء، وإنا أصبنا من الدنيا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «لم تنقصهم الدنيا بشيء»: قال الحافظ: «أي: لم تنقص أجورهم، بمعنى أنهم لم يتعجلوها في الدنيا، بل بقيت موفرة لهم في الآخرة، وكأنه عنى بأصحابه بعض الصحابة ممن مات في حياة النبي ﷺ، فأما من عاش بعده، فإنهم اتسعت لهم الفتوح، ويؤيده حديثه الآخر: «هاجرنا مع رسول اللَّه ﷺ فوقع أجرنا على اللَّه، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا منهم مصعب بن عمير»[(٤)].. ويحتمل أن يكون عنى جميع من مات قبله، وأن من اتسعت له الدنيا لم تؤثر فيه، إما لكثرة إخراجهم المال في وجوه البر، وكان من يحتاج إليه إذ ذاك كثيرًا، فكانت تقع لهم الموقع، ثم لما اتسع الحال جدًّا وشمل العدل في زمن الخلفاء الراشدين، استغنى الناس بحيث صار الغني لا يجد محتاجًا يضع بره فيه، ولهذا قال خباب: «وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب» أي: الإنفاق في البنيان»[(٥)].

* عن أبي وائل قال: عُدنا خبابًا فقال: هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه اللَّه، فوقع أجرنا على اللَّه، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أحد وترك نمرة، فإذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه،

---

(١) سيأتي تخريجه. (٢) شرح ابن بطال (١٠/ ١٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١١٠)، والبخاري (١١/ ٢٩٤/ ٦٤٣٠) واللفظ له، وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٤/ ٢٦٨١)، والنسائي (٤/ ٣٠١/ ١٣٢٢) مختصرًا.

(٤) هو الحديث الآتي.

(٥) فتح الباري (١٠/ ١٥٩).

فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه من الإذخر . ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها»[١] .

★ **غريب الحديث:**

نمرة : بفتح النون وكسر الميم هي إزار من صوف مخطط أو بردة .

أينعت : بفتح الهمزة وسكون التحتانية وفتح النون : أي : انتهت واستحقت القطف .

يهدبها : بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر المهملة ويجوز ضمها بعدها موحدة ؛ أي : يقطفها ويجتنيها .

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ : «قال ابن بطال : في الحديث ما كان عليه السلف من الصدق في وصف أحوالهم . وفيه أن الصبر على مكابدة الفقر وصعوبته من منازل الأبرار»[٢] .

وقال ابن بطال : «وفي حديث خباب أن هجرتهم لم تكن لدنيا يصيبونها ، ولا نعمة يستعجلونها ، وإنما كانت لله ، ليثيبهم عليها في الآخرة بالجنة والنجاة من النار ، فمن قُتل منهم قبل أن يفتح اللَّه عليهم البلاد قالوا له : مرّ، ولم يأخذ من أجره شيئًا في الدنيا ، وكان أجره في الآخرة موفرًا له ، وكان الذي بقي منهم حتى فتح اللَّه عليهم الدنيا ، ونالوا من الطيبات ، خشوا أن يكون عُجّل لهم أجر طاعتهم وهجرتهم في الدنيا بما نالوا منها من النعيم ؛ إذ كانوا على نعيم الآخرة أحرص»[٣] .

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج اللَّه لكم من بركات الأرض؟** قيل : **وما بركات الأرض؟** قال : **زهرة الدنيا** . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه ، فقال : **أين السائل؟** قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه

---

(١) أخرجه : أحمد (٥/ ١١١-١١٢)، والبخاري (١١/ ٣٢٩/ ٦٤٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٤٩/ ٩٤٠)، وأبو داود (٣/ ٢٩٦/ ٢٨٧٦)، والترمذي (٥/ ٦٤٩/ ٣٨٥٣)، والنسائي (٤/ ٣٣٩/ ١٩٠٢).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٣) شرح ابن بطال (١٠/ ١٧٣-١٧٤).

حين طلع لذلك، قال: لا يأتي الخير إلا بالخير. إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم، إلا آكلة الخضرة، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت. وإن هذا المال حلوة: من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو. وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[1].

★ **غريب الحديث:**

الربيع: الجدوَل الذي يُسقى به، والجمع: أربعاء، والجدول: النهر الصغير الذي ينفجر من النهر الكبير.

الحَبَط: الانتفاخ، يقال: حبطت الدابة تحبَطُ: إذا انتفخ بطنها من كثرة الأكل، وربما تموت من ذلك. وأصل الحبط: الإبطال والإفساد، ومنه: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[2] أي: بطلت.

يُلمّ: أي: يقرب من الموت، وأصله من ألمّ بالمكان إذا نزل به، ومنه قول الشاعر:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا

أي: تنزل.

الخَضِرة: كلأ الصيف. قال الأزهري: هو هنا ضرب من الجنبة، وهي من الكلأ ما له أصل غامض في الأرض، واحدتها: خَضِرة. والخَضِر بكسر الضاد: نوع من البقول، ليس من أحرارها وجيدها.

خاصرتاها: تثنية خاصرة بخاء معجمة، وصاد مهملة، وهما جانبا البطن من الحيوان.

اجترّت: الجِرّة: ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه، ثم يبلعه، يقال: اجترّ

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١-٩١)، والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٧)، ومسلم (٢/ ٧٢٨-٧٢٩/ ١٠٥٢[١٢٣])، والنسائي (٥/ ٩٤-٩٥/ ٢٥٨٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٣/ ٣٩٩٥)، وابن حبان (الإحسان ٨/ ١٩-٢٠/ ٣٢٢٥) وصححه، وأبو يعلى (٢/ ٤٣٦/ ١٢٤٢).

(٢) الكهف: الآية (١٠٥).

البعير يجترّ، واجترّت: أي: مضغت جرتها، وما أخرجته من جوفها إلى فيها مما رعته.

ثلطت: الثلط: الرجيع الرقيق، وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قال الأزهري: هذا الخبر إذا بُتر لم يكد يُفهم، وفيه مثلان: ضُرب أحدهما للمفرّط في جمع الدنيا ومنعها من حقها، وضُرب الآخر للمقتصد في أخذها والانتفاع بها، فأما قوله: «**وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا**» فهو مثل للمفرّط الذي يأخذها بغير حق، وذلك أن الربيع ينبت أحرار البقول والعشب، فتستكثر منها الماشية، حتى تنتفخ بطونها لما جاوزت حد الاحتمال، فتنشق أمعاؤها وتهلك، وكذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويمنع ذا الحق حقه، فيهلك في الآخرة بدخوله النار، وأما مثل المقتصد فقوله ﷺ: «**إلا آكلة الخضر**» إلخ. وذلك أن الخضر ليست من أحرار البقول الذي ينبتها الربيع، ولكنها من الجنبة التي ترعاها المواشي بعد تهيج البقول. فضرب النبي ﷺ آكلة الخضر من المواشي مثلًا لمن يقتصد في أخذه الدنيا وجمعها، ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها، فهو ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر. ألا تراه ﷺ قال: «**فإنها إذا أصابت الخضر استقبلت عين الشمس، فثلطت وبالت**» أراد أنها إذا شبعت منها بركت مستقبلة الشمس؛ لتستمرئ بذلك ما أكلت وتجترّ وتثلط، وإذا ثلطت فقد زال عنها الحبط، وإنما تحبط الماشية لأنها لا تثلط ولا تبول»[1].

قال النووي: «فيه التحذير من الاغترار بالدنيا والنظر إليها والمفاخرة بها»[2].

وقال أيضًا: «فيه فضيلة المال لمن أخذه بحقه، وصرفه في وجوه الخير»[3].

وقال الحافظ: «وفيه الحض على إعطاء المساكين واليتيم وابن السبيل، وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع وفيه ذم الإسراف وكثرة الأكل والنهم فيه وأن اكتساب المال من غير حله، وكذا إمساكه عن

---

(١) المفهم ٣/ ٩٧-٩٨).
(٢) شرح مسلم (٧/ ١٢٦).
(٣) شرح مسلم (٧/ ١٢٩).

إخراج الحق منه سبب لمحقه، فيصير غير مبارك، كما قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم: «فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها (زهرة)؛ فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه. وقوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم» هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع؛ فتأكل منه بأعينها، فربما هلكت حبطًا. والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال: حبط الرجل والدابة تحبط حبطًا: إذا أصابه ذلك. ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطًا؛ فنسب الحبطي، كما يقال: السلمي فكذلك الشره في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله: «أو يلم» وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم شرهوا في جمعها واحتاج إليها غيرهم فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: «إلا آكلة الخضر» هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، «أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها» وفي لفظ آخر: «امتدت خاصرتاها» وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنى الخاصرتين؛ لأنهما جانبا البطن. وفي قوله: «استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت» ثلاث فوائد: إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس لتستمرئ بذلك ما أكلته. الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه. الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها فاستراحت بإخراجه ولو بقي فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث مثلٌ للشره في جمع الدنيا الحريص على تحصيلها؛ فمثاله: مثال

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٦).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٩٩).

الدابة التي حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطًا أو يلم إذا لم يقتلها، فإن الشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقول والعشب؛ فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال؛ فتنشق أمعاؤها وتهلك، كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويحبسها أو يصرفها في غير حقها. وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلًا لإخراجه المال في حقه، حيث يكون حبسه وإمساكه مضرًا به، فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه؛ كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط. وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية؛ فتهلك جوعًا. وتضمن الخبر أيضًا إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه فيضر حبسه، وبالله التوفيق»[1].

* * *

(١) عدة الصابرين (ص: ٣٦٦-٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي ينزل المطر من السماء فيغيثكم به أيها الناس ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ يقول: من بعد ما يئس من نزوله ومجيئه ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ يقول: وينشر في خلقه رحمته، ويعني بالرحمة الغيث الذي ينزله من السماء»[(١)].

قال الرازي: «إنزال الغيث بعد القنوط أدعى للشكر لأن الفرح يحصل بحصول النعمة بعد البلية أتم فكان إقدام صاحبه إلى الشكر أكثر ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب»[(٢)].

قال السعدي: «أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالا فينزل الله الغيث ﴿وَيَنشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيما، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال»[(٣)].

قال محمد مكي الناصري: «وفي سياق هذه الآية جاءت كلمة الغيث بالخصوص بدلا من كلمة المطر التي هي أكثر استعمالا شيوعا، إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى متكفل بأن يغيث عباده ويرحمهم بعد اليأس والقنوط، فينجدهم بإنزال المطر كلما بسطوا أكف الضراعة إليه، سائلين الغوث والنجدة من خالقهم

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣١).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٧).

ورازقهم على الدوام، على غرار قوله تعالى في سورة الروم: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾[١] وقوله في نفس السياق: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف لخلقه إلا بما ينفعهم دنيا وأخرى، فهو وليهم الحق، الذي يتولاهم بفضله وإحسانه، والذي يجب أن يتولوه بالسعي إلى مرضاته، والانقياد لأوامره، وهو سبحانه الحميد أي: المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله لتوجيه خلقه ومصلحتهم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأزمنة التي يستجاب فيها الدعاء

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثنتان لا تُردّان** -أو قال: **ما تُردّان**-: **الدعاء عند النداء أو عند البأس حين يلحم بعضهم بعضًا**». قال موسى بن يعقوب: وحدثني رزق بن سعيد بن عبدالرحمن المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**وتحت المطر**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

يلحم بعضهم بعضًا: بحاء مهملة مكسورة وأوله مضموم: أي: حين يشتبك الحرب ويلزم بعضهم بعضًا، ويقال: لحمت الرجل إذا قتلته، ومن هذا قولهم: كانت بين القوم ملحمة أي: مقتلة.

⋆ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«وتحت المطر»** أي: ودعاء من هو تحت المطر لا يُرد، أو قلما يرد؛ فإنه وقت نزول الرحمة، لاسيما أول قطر السنة، والكلام في دعاء متوفر الشروط والأركان والآداب»[٤].

---

(١) الروم: الآيات (٤٨-٥٠). (٢) التيسير (٥/ ٤٥٢).

(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٤٥-٤٦/ ٢٥٤٠)، وصححه ابن خزيمة (١/ ٢١٩/ ٤١٩)، والحاكم (٢/ ١١٣) ووافقه الذهبي وصحح إسناده النووي في الأذكار (١٠٦)، وقال الحافظ في نتاج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار (١/ ٣٦٩): «هذا حديث حسن صحيح». (٤) فيض القدير (٣/ ٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن حججه عليكم أيها الناس أنه القادر على إحيائكم بعد فنائكم، وبعثكم من قبوركم من بعد بلائكم، خلقه السموات والأرض. وما بثّ فيهما من دابة؛ يعني: وما فرّق في السموات والأرض من دابة»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة، وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: ذرأ فيهما؛ أي: في السموات والأرض، ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق»[2].

قال السعدي: «أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٩٤).

بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٧-٦١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم، ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزا عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[2] وليس إهمالا منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزا»[3].

قال المراغي: «أي: ما يحل بكم أيها الناس من المصائب في الدنيا فإنما تصابون به عقوبة لكم على ما اجترحتم من الآثام، واقترفتم من الشرور والمعاصي، ويعفوا لكم عن كثير من جرائمكم فلا يعاقبكم بها.

فالله سبحانه جعل الذنوب أسبابا لها نتائجها ومسبباتها، فشارب الخمر يصاب بكثير من الأمراض الجسمية والعقلية في الدنيا.. والتاجر غير الأمين أو الكذاب تصاب تجارته بالكساد ويشهر بين الناس بالخيانة فيحجمون عن معاملته، والحكام المرتشون الظلمة الذين يجمعون أموالهم بالسحت يصابون بالفقر والعدم ويصبحون مثلًا بين الناس، وإن لم يصبهم الفقر يصب أولادهم فيصبحوا بحال يرثى لها

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣٢).

(٢) فاطر: الآية (٤٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٨).

ويصيروا أحاديث الخاصة والعامة، والأمم الظالمة التي لا تناصر بين أفرادها، بل بينهما التقاطع، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر تصاب بالمهانة بعد الظلمة والذلة بعد العزة، وما الأمثال في ذلك بعزيزة، فهاهي ذي الأمم الشرقية إنما أصابها ما أصابها من الضعف والخمول والاضمحلال ثم الزوال من صفحة الوجود بما اجترحت من ظلم وإفساد في الأرض، وأكل بعض أموال بعض واحتجان عظمائها الأموال في خزائنهم، وابتزازها من أيدي الضعفاء، وقد اقتص اللَّه لهم منهم فأضاع ملكهم، وأذهب ريحهم، وجعلهم لقمة سائغة للمستعمرين الذين تحكموا فيهم وجعلوهم كالعبيد، يتصرفون فيهم بحسب أهوائهم، وما تمليه عليهم مصالحهم، وما يدر عليهم الخير لبلادهم وشعوبهم.

وفي هذا عبرة لمن ادكر، وقد تقدم أن قلنا في غير موضع: إن عقاب الأفراد في الدنيا ليس بالمطرد، إذ كثيرًا ما نرى سكيرا عربيدا لا يصاب بأذى مما يفعل، ونرى تاجرا يخون الأمانة ولا يصاب بكساد في تجارته، وحينئذ يكون عقاب كل منهما مؤجلا ليوم الحساب إن شاء ربك عاقب، وإن شاء عفا بعد التوبة عما فرط منهما من الذنوب والآثام.

أما عقاب الأمم على ما تجترحه من السيئات فهو محقق في الدنيا ولدينا عظة التاريخ في القديم والحديث، فما من أمة تركت أوامر دينها وخالفت نواميس العمران، إلا زالت وصارت كأمس الدابر، وأصبحت عبرة للباقين، ومثلا للآخرين، فالرومان والفرس والعرب في الشرق وفي الأندلس والترك مثل ماثلة أمامنا تجلي لنا تلك القضية ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾»[1].

قال ابن عاشور: «لما تضمنت المنةُ بإنزال الغيث بعدَ القُنوط أن القوم أصابهم جهد من القحط بلغ بهم مبلغ القنوط من الغيث، أعقبت ذلك بتنبيههم إلى أن ما أصابهم من ذلك البؤس هو جزاء على ما اقترفوه من الشرك، تنبيهًا يبعثهم ويبعث الأمة على أن يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم، ومحاسبة أنفسهم حتى لا يحسبوا أن الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة؛ بل يعلموا أنه قد يصيبهم اللَّه بما هو جزاء لهم في الدنيا، ولما كان ما أصاب قريشًا من القحط

---

(١) تفسير المراغي (٢٥/ ٤٦-٤٨).

والجوع استجابةً لدعوة النبي ﷺ عليهم كما تقدم، وكانت تلك الدعوة ناشئة على ما لاقوه به من الأذى، لا جرم كان ما أصابهم مسبَّبًا على ما كسبت أيديهم . .

والخطاب للمشركين ابتداء؛ لأنهم المقصود من سياق الآيات كلها، وهم أوْلى بهذه الموعظة؛ لأنهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة، ويشمل المؤمنين بطريق القياس، وبما دل على شمول هذا الحكم لهم من الأخبار الصحيحة، ومن آيات أخرى»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن الابتلاءات للصالحين كفارة للذنوب

* عن عمران بن حصين رضي الله عنه: **«أنه دخل عليه بعض أصحابه وقد ابتلي في جسده، فقال له بعضهم: إنا لنبتئس لك لما نزل فيك قال: فلا تبتئس لما ترى؛ فإنما نزل بذنب، وما يعفو اللّه عنه أكثر، ثم تلا عمران هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ إلى آخر الآية»**[2].

★ **غريب الحديث:**

لنبتئس: ابتأس الرجل فهو مبتئس، ولا تبتئس؛ أي: لا تحزن ولا تشتكي، والمبتئس: الكاره الحزين، قال حسان:

ما يقسم اللّه أقبل غير مبتئس ... منه وأقعد كريمًا ناعم البالِ

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا همّ، ولا حزن، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللّه بها من خطاياه»**[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٨-٩٩).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٤٥-٤٤٦) واللفظ له، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٩٦/ ٩٩٧٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣/ ٢٥٧٣)، وأخرجه الترمذي (٣/ ٢٩٨/ ٩٦٦). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

★ **غريب الحديث:**

نصب: النَّصَب: التعب، وقد نَصِبَ يَنْصَبُ، ونصبه غيره وأنصبه.

وَصَب: الوصَبُ: دوام الوجع ولزومه، وقد يُطلق الوصب على التعب والفتور في البدن.

غمّ: الغم: واحد الغموم، والغم والغُمّة: الكرب.

همّ: والهمُّ: الحزن. والجميع: الهموم. وأهمّني الأمر: أي: أقلقني وأحزنني، والمُهِمُّ: الأمر الشديد، وهَمَّني المرضُ: أذابني.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «فيه دليل على أن الذنوب تكفرها المصائب، والآلام، والأمراض، والأسقام، وهذا أمر مجتمع عليه، والحمد لله»[١].

قال النووي: «في هذا الحديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء، وحكى القاضي عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط، ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة، قال: روي نحوه عن ابن مسعود، قال: الوجع لا يُكتب به أجر، لكن تُكفر به الخطايا فقط، واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا، ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصرحة برفع الدرجات وكتب الحسنات»[٢].

قال شيخ الإسلام: «والدلائل على أن المصائب كفارات كثيرة إذا صبر عليها أثيب على صبره، فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر، وأما نفس المصيبة فهي من فعل اللَّه، لا من فعل العبد، وهي من جزاء اللَّه للعبد على ذنبه، وتكفيره ذنبه بها، في المسند أنهم دخلوا على أبي عبيدة بن الجراح، فذكروا أنه يؤجر على مرضه، فقال: ما لي من الأجر ولا مثل هذه، ولكن المصائب حطة،

---

(١) فتح البر (٦/ ٢٩٧).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ١٠٥).

فبيّن لهم أبو عبيدة ﷺ أن نفس المرض لا يؤجر عليه، بل يُكفر به عن خطاياه. وكثيرًا ما يُفهم من الأجر غفران الذنوب، فيكون فيه أجر بهذا الاعتبار»[١].

* عن معاوية قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر اللَّه عنه به من سيئاته**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قال بعضهم: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه، وجناية الطاعة من وجوه، واللَّه يطهرَ عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله يوم القيامة، ولولا عفوه ومغفرته ورحمته لهلك في أول خطيئته»[٣].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٨) واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٥٩/ ٨٤١-٨٤٢)، وفي «الأوسط» (٦/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٤٣)، والحاكم (١/ ٣٤٧) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠١): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه قصة، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٣) فيض القدير (٥/ ٤٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وما أنتم أيها الناس بمفيتي ربكم بأنفسكم إذا أراد عقوبتكم على ذنوبكم التي أذنبتموها، ومعصيتكم إياه التي ركبتموها هربا في الأرض، فمعجزيه حتى لا يقدر عليكم، ولكنكم حيث كنتم في سلطانه وقبضته، جارية فيكم مشيئته ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يليكم بالدفاع عنكم إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم إياه ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يقول: ولا لكم من دونه نصير ينصركم إذا هو عاقبكم، فينتصر لكم منه، فاحذروا أيها الناس معاصيه، واتقوه أن تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم، فإنه لا دافع لعقوبته عمن أحلها به»[(١)].

قال الرازي: «يقول: وما أنتم معشر المشركين بمعجزين في الأرض، أي لا تعجزونني حيثما كنتم، فلا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ والمراد بهم من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة، والنصير هو الله تعالى، فلا جرم هو الذي تحسن عبادته»[(٢)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾

★غريب الآية:

الجوار: واحدها جارية، وهي السفينة. سميت جارية لأنها تجري في الماء.

الأعلام: جمع علم، وهو الجبل، وأصل العلم عند العرب: كل شيء مرتفع.

رواكد: سواكن. من ركد الماء إذا سكن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي جعلها اللّه سببا لمشيها، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي: الجوار ﴿رَوَاكِدَ﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح»[1].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة وحده، الجواري وهي السفن، واحدتها جارية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[2] يعني: سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في البحر.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٩).

(٢) الحاقة: الآية (١١).

وقوله: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي: كالجبال، شبه السفن بالجبال لعظمها. وعن مجاهد أن الأعلام القصور، وعن الخليل: أن كل مرتفع تسميه العرب علمًا، وجمع العلم أعلام. وهذا الذي ذكره الخليل معروف في اللغة، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن في البحر، من آياته تعالى الدالة على كمال قدرته، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٤٤﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[3] الآية. وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[4] الآية. وقوله في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[5]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[6].

* * *

(١) يس: الآيات (٤١-٤٤).

(٢) العنكبوت: الآية (١٥).

(٣) البقرة: الآية (١٦٤).

(٤) النحل: الآية (١٤).

(٥) فاطر: الآية (١٢).

(٦) أضواء البيان (٧/ ١٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «أي: ما ذكر من حال السفن في سيرها وركودها مما لا يقدر عليه إلا اللَّه سبحانه بدليل ما للناس كافة من الإجماع على التوجه في ذلك إليه خاصة والانخلاع مما سواه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: على أن إحاطته سبحانه بجميع صفات الكمال أمر مركوز في العقول، ثابت في الفطر الأولى مما لا يصد عنه إلا الهوى، وعلى أن بطلان أمر ما دونه لذلك هو من الظهور بمكان لا يجهل.

ولما كانوا يتمادحون بالصبر على نوازل الحدثان، والشكر لكل إحسان، ويتذامون بالجزع والكفران، وكان ذلك يقتضي ثباتهم على حال واحد، فإن كان الحق عليهم لمعبوداتهم، فرجوعهم عنها عند الشدائد مما لا ينحو نحوه، ولا يلتفت لفتة أحد من كمل الرجال الذين يجانبون العار، والاتسام بمسيم الأغمار، وإن كان الحق كما هو الحق لله، فرجوعهم عنه عند الرخاء بعد إنعامه عليهم بإنجائهم من الشدة لا يفعله ذو عزيمة، قال مشيرًا إلى ذلك بصيغتي المبالغة: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدة ﴿شَكُورٍ﴾ أي في الرخاء، وإن كثر مخالفوه، وعظم نزاعهم له، وهاتان صفتا المؤمن المخلص الذي وكل همته بالنظر في الآيات، فهو يستملي منها العبر، ويجلو بها من البصيرة عين البصر»[1].

قال الرازي: «المقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة اللَّه البتة؛ لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء، وإما في الآلاء، فإن كان في البلاء كان من الصابرين، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين»[2].

قال السعدي: «﴿صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها،

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣١٩-٣٢٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٦).

فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات اللَّه. وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم اللَّه، فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصبر نصف الإيمان

* عن أبي ظبيان قال: كنا نعرض المصاحف عند علقمة قرأ هذه الآية: (إن في ذلك لآيات للموقنين) فقال: قال عبد الله: اليقين الإيمان كله. وقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، قال: فقال عبد الله: «**الصبر نصف الإيمان**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان، وقال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. ولهذا جمع اللَّه سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة (إبراهيم) وفي سورة (حم عسق) لآيات، وفي سورة (سبأ) وفي سورة (لقمان)، وقد ذكر لهذا التصنيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة اللَّه وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور، وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: أن الإيمان مبني على ركنين: يقين، وصبر. وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦١٩-٦٢٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤/ ٨٥٤٤) الحاكم (٢/ ٤٤٦) واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٧) رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. وصححه الشيخ الألباني رحمه اللَّه في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٣٢٧/ ٣٣٩٧).

بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند اللَّه وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر، بفعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح. وبيان ذلك أن من عرف اللَّه بقلبه، ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنًا؛ كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[٢] وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٣] وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٤]، فهؤلاء حصل لهم قول القلب، وهو: المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنًا بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنًا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، فيحب اللَّه ورسوله، ويوالي أولياء اللَّه ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته، والتزام شريعته ظاهرا وباطنا، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أُمر به. فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر فصار الإيمان نصفين: أحدهما: الصبر، والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، وهي دائمًا تتردد بين أحكام هاتين القوتين، فتقدم على ما تحبه، وتحجم عما تكرهه، والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة، وإحجام عن معاصي اللَّه، وكل منهما

---

(١) السجدة: الآية (٢٤).
(٢) النمل: الآية (١٤).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٨).
(٤) الإسراء: الآية (١٠٢).

لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1] وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة**»[2] فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها، وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: إن للعبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى اللَّه والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي اللَّه والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: إن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»[3]. وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق.

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٥)، والبخاري (١١/ ١٣٦/ ٦٣١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١-٢٠٨٢/ ٢٧١٠)، والترمذي (٥/ ٤٣٧/ ٣٣٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٢-١٩٣/ ١٠٦٠٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٣)، والترمذي (٥/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٣)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢١٥-٢١٦/ ٩٣٥)، والحاكم (١/ ٥٠٨) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، من حديث شداد بن أوس.

الاعتبار العاشر: إن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1] ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

* * *

---

(١) العصر: الآية (٣).

(٢) عدة الصابرين (ص: ١٧٦-١٨٠).

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يوبقهن: يهلكهن، يقال: فلان أوبقته ذنوبه؛ أي: أهلكته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: أو يوبق هذه الجواري في البحر بما كسبت ركبانها من الذنوب، واجترموا من الآثام، وجزم ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، عطفا على ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ ومعنى الكلام إن يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره، ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ ويعني بقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يهلكهنّ بالغرق»[1].

قال الرازي: «يعني: أو يهلكهن، يقال: أوبقه؛ أي: أهلكه، ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه، أي أهلكته، والمعنى: أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على قوله: ﴿يُسْكِنِ﴾ لأن التقدير: إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ معناه إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا عن طريق العفو عنهم، فإن قيل: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزومًا مثله، قلنا: معناه: إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣٤).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

محيص: معدل ومنجى، يقال: حاص عنه إذا تنحى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -جل ثناؤه-: ويعلم الذين يخاصمون رسوله محمدا ﷺ من المشركين في آياته وعبره وأدلته على توحيده.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة «وَيَعْلَمُ الَّذِينَ» رفعا على الاستئناف، كما قال في سورة براءة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[1] وقرأته قرّاء الكوفة والبصرة ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ﴾ نصبا كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2] على الصرف وكما قال النابغة:

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابُوسَ يَهْلِكْ ... رَبِيعُ النَّاسِ والشَّهْرُ الحَرَامُ
وَنُمْسِكَ بَعْدَهُ بذنَاب عَيْشٍ ... أجَبِّ الظَّهْرِ ليس لَهُ سَنامُ

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما لهم من محيد من عقاب الله إذا عاقبهم على ذنوبهم وكفرهم به، ولا لهم منه ملجأ»[3].

قال الرازي: «أي: ينازعون على وجه التكذيب، أن لا مخلص لهم إذا وقفت السفن، وإذا عصفت الرياح فيصير ذلك سببًا لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله»[4].

---

(١) التوبة: الآية (١٥).
(٢) آل عمران: الآية (١٤٢).
(٣) جامع البيان (٢٥/ ٣٥).
(٤) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٧).

قال القرطبي: «يعني: الكفار أي إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد علموا أنه لا ملجأ لهم سوى اللَّه، ولا دافع لهم إن أراد اللَّه إهلاكهم فيخلصون له العبادة»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فما أعطيتم أيها الناس من شيء من رياش الدنيا من المال والبنين، فمتاع الحياة الدنيا، يقول -تعالى ذكره-: فهو متاع لكم تتمتعون به في الحياة الدنيا، وليس من دار الآخرة، ولا مما ينفعكم في معادكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذي عند اللّه لأهل طاعته والإيمان به في الآخرة، خير مما أوتيتموه في الدنيا من متاعها وأبقى؛ لأن ما أوتيتم في الدنيا فإنه نافد، وما عند اللّه من النعيم في جنانه لأهل طاعته باق غير نافد.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقول: وما عند اللّه للذين آمنوا به، وعليه يتوكلون في أمورهم، وإليه يقومون في أسبابهم، وبه يثقون، خير وأبقى مما أوتيتموه من متاع الحياة الدنيا»[1].

قال الرازي: «سماه متاعًا تنبيهًا على قلته وحقارته، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والمعنى: أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع، ونبّه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني، ثم بيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفًا بصفات:

الصفة الأولى: أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الصفة الثانية: أن يكون من المتوكلين على فضل اللّه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: «﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . . الآية تفريع على جملة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾ إلى آخرها، فإنها اقتضت وجود منعَم عليه ومحروم، فذُكِّروا بأن ما أوتوه من رزق هو عَرَض زائل، وأن الخير في الثواب الذي ادخره اللَّه للمؤمنين، مع المناسبة لما سبقه من قوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من سلامة الناس من كثير من أهوال الأسفار البحرية، فإن تلك السلامة نعمة من نعم الدنيا، ففرعت عليه الذكرى بأن تلك النعمة الدنيوية نعمة قصيرة الزمان، صائرة إلى الزوال، فلا يَجعلها الموفَّقُ غاية سعيه، وليسعَ لعمل الآخرة الذي يأتي بالنعيم العظيم الدائم، وهو النعيم الذي ادّخره اللَّه عنده لعباده المؤمنين الصالحين.

والخطاب في قوله: ﴿أُوتِيتُم﴾ للمشركين جريًا على نسق الخطاب السابق في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾[2]، وينسحب الحكم على المؤمنين بلحن الخطاب، ويجوز أن يكون الخطاب لِجميع الأمة»[3].

* * *

(١) الشورى: الآية (٣٠).

(٢) الشورى: الآية (٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان كل من الإيمان والتوكل أمرا باطنًا فكان لا بد من دلائله من ظواهر الأعمال، وكانت تخليات من الرذائل وتحليات بالفضائل، وكانت التخليات لكونها درء للمفاسد مقدمة على التحليات التي هي جلب للمصالح، قال عاطفًا على ﴿ٱلَّذِينَ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ أي يكلفون أنفسهم أن يجانبوا ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي جنس الفعال الكبار التي لا توجد إلا ضمن أفرادها، ويحصل بها دنس للنفس، فيوجب عقابًا لها مع الجسم، وعطف على ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾ قوله: ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ وهي ما أنكره الشرع والعقل والطبع التي هي آيات اللّه الثلاث التي نصبها حجة على عباده، وله الحجة البالغة، فاستعظم الناس أمرها، ولو أنها صغائر لدلالتها على الإخلال بالمروءة كسرقة لقمة، والإقرار على المعصية من شيخ جليل القدر لمن لا يخشاه ولا يرجوه»[2].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، فبين تعالى في سورة النساء أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم، وإدخالهم المدخل الكريم، وهو الجنة في قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾[3]، وبين في سورة النجم أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش يصدق عليهم اسم المحسنين، ووعدهم على ذلك بالحسنى.

والأظهر أنها الجنة، ويدل له حديث «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه

---

(١) الشورى: الآية (٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) النساء: الآية (٣١).

اللَّه الكريم»[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٢] كما قدمناه.

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[٣] ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[٤]»[٥].

وقال أيضًا: واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهلكات لعظمها، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة **«أنها الإشراك باللَّه وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»**[٦] وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي ﷺ في تعيين بعض الكبائر **«كعقوق الوالدين، واستحلال حرمة بيت اللَّه الحرام، والرجوع إلى البادية بعد الهجرة، وشرب الخمر، واليمين الغموس، والسرقة، ومنع فضل الماء، ومنع فضل الكلأ، وشهادة الزور»**.

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود **«أن أكبر الكبائر الإشراك باللَّه الذي خلق الخلق، ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه، ثم زناه بحليلة جاره»**[٧] وفي بعضها أيضًا **« أن من الكبائر تسبب الرجل في سب والديه»**[٨]، وفي بعضها أيضًا **«أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**[٩] وذلك يدل على أنهما من

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٢)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١)، والترمذي (٤/ ٥٩٣/ ٢٥٥٢)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٦)، من حديث صهيب بن سنان ﷺ.

(٢) يونس: الآية (٢٦).

(٣) النجم: الآية (٣١).

(٤) النجم: الآية (٣٢).

(٥) أضواء البيان (٧/ ١٩٥-١٩٦).

(٦) أخرجه: البخاري (٥/ ٤٩٤/ ٢٧٦٦)، ومسلم (١/ ٩٢/ ٨٩)، وأبو داود (٣/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٢٨٧٤)، والنسائي ٦/ ٥٦٨/ ٣٦٧٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٤)، والبخاري (٨/ ٦٣١/ ٤٧٦١)، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦)، والترمذي (٥/ ٣١٤/ ٣١٨٢)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٤)، والبخاري (١٠/ ٤٩٤/ ٥٩٧٣)، ومسلم (١/ ٩٢/ ٩٠)، وأبو داود (٥/ ٣٥٢/ ٥١٤١)، والترمذي (٤/ ٢٧٦/ ١٩٠٢)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ.

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٣)، والبخاري (١/ ١٤٧/ ٤٨)، ومسلم (١/ ٨١/ ٦٤)، والترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٣)، والنسائي (٧/ ١٣٨/ ٤١٢٠)، وابن ماجه (١/ ٢٧/ ٦٩)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

الكبائر. وفي بعض الروايات «أن من الكبائر الوقوع في عرض المسلم، والسبتين بالسبة»[١]. وفي بعض الروايات «أن منها جمع الصلاتين من غير عذر»[٢]. وفي بعضها «أن منها اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»[٣] ويدل عليهما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٤]. وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[٥].

وفي بعضها «أن منها سوء الظن بالله»[٦] ويدل له قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾[٧].

وفي بعضها «أن منها الإضرار في الوصية»[٨]. وفي بعضها أن منها الغلول[٩]، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[١٠]. . وفي بعضها أن من أهل الكبائر الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا[١١]، ويدل له قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٢] ولم نذكر أسانيد هذه الروايات ونصوص متونها

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/ ١٩٣/ ٤٨٧٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (١/ ٣٥٦/ ١٨٨)، وأبو يعلى ٥/ ١٣٦/ ٢٧٥١)، والحاكم (١/ ٢٧٥)، من حديث ابن عباس ﷺ. في سنده حنش قال الترمذي: وحنش هذا هو أبو علي الرحبي وهو حسين بن قيس وهو ضعيف عند أهل الحديث، ضعفه أحمد وغيره، وتعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه للحديث وتوثيقه لحنش بقوله: بل ضعفوه.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٥٩-٤٦٠/ ١٩٧٠١)، والطبراني (٩/ ١٥٦/ ٨٧٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠/ ١٠٥٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤)، وقال: إسناده صحيح. كلهم من حديث ابن مسعود ﷺ موقوفا.

(٤) يوسف: الآية (٨٧). (٥) الأعراف: الآية (٩٩).

(٦) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٣٦٤/ ١٤٦٩)، من حديث ابن عمر ﷺ، وعزاه الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٠٤) لابن مردويه وضعف سنده. (٧) الفتح: الآية (٦).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٠٩٣٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٩/ ٨٨/ ١٦٤٥٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٠/ ١١٠٩٢)، والبيهقي (٦/ ٢٧١)، وصححه من حديث ابن عباس ﷺ موقوفا.

(٩) أخرجه مطولا الطبراني (١٢/ ٢٥٢-٢٥٤/ ١٣٠٢٣)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢٧١-٢٧٢/ ٢٩١)، عن ابن عباس موقوفا. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٥-١١٦) وقال: إسناده حسن.

(١٠) آل عمران: الآية (١٦١). (١١) انظر ما قبله.

(١٢) آل عمران: الآية (٧٧).

خوف الإطالة، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر، لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة، من كتاب اللَّه أو سنة رسوله ﷺ.

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة. فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حدًا من حدود اللَّه.

وقال بعضهم: هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين.

وعن ابن عباس: أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع. وعنه أيضًا أنها أقرب إلى سبعمائة منها إلى سبع.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: التحقيق أنها لا تنحصر في سبع، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضي انحصارها في ذلك العدد؛ لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم، وهو مفهوم لقب، والحق عدم اعتباره.

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضًا؛ لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق.

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع، والمنطوق مقدم على المفهوم، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم.

والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده.

مع أن بعض أهل العلم قال: إن كل ذنب كبيرة. وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] الآية. وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[2] يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر، وبعضها صغائر، والمعروف عند أهل العلم: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

* * *

(١) النساء: الآية (٣١). (٢) النجم: الآية (٣٢). (٣) أضواء البيان (٧/ ١٩٧-٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون على من ظلمهم، وخصّ الغضب بالغفران؛ لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلاّ من شرح اللّه صدره، وخصه بمزية الحلم، ولهذا أثنى اللّه سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه؛ بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[4]»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحذر من الغضب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[6].

---

(١) الشورى: الآية (٣٧).
(٢) آل عمران: الآية (١٣٤).
(٣) فتح القدير (٤/ ٧٥٧).
(٤) فصلت: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢١).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٤/ ٢٦٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٥/ ١٠٢٢٦).

★ **غريب الحديث:**

الصُّرَعَة: بضم الصاد وفتح الراء: المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب، والصُّرْعة بالسكون هو الذي يصرعه الناس، وكذلك هُزَأَةٌ وهُزْأَةٌ، وسُخَرَةٌ وسُخْرَةٌ[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «أراد ﷺ أن الذي يقوى على ملك نفسه عند الغضب ويردها عنه هو القوي الشديد، والنهاية في الشدة لغلبته هواه المردي الذي زينه له الشيطان المغوي، فدل هذا أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأن النبي ﷺ جعل للذي يملك نفسه عند الغضب من القوة والشدة ما ليس للذي يغلب الناس ويصرعهم»[(٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه كظم الغيظ وإمساك النفس عند الغضب عن الانتصار والمخاصمة والمنازعة»[(٣)].

* عن سليمان بن صرد قال: «استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: **إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد**، لو قال: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم. فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه أن الغضب في غير اللَّه تعالى من نزغ الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيذ فيقول: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم، وأنه سبب لزوال الغضب، وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه: هل ترى بي من جنون؟ فهو كلام من لم يفقه في دين اللَّه تعالى، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من نزغات

---

(١) النهاية (٣/ ٢٣-٢٤)، والمفهم (٦/ ٥٩٦).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٢٩٦) بتصرف يسير. (٣) شرح مسلم (١٦/ ١٣٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩٤)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٥) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠١٥/ ٢٦١٠)، وأبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٤-١٠٥/ ١٠٢٢٥).

الشيطان، ولهذا يخرج الإنسان من اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب؛ ولهذا قال النبي ﷺ للذي قال له أوصني: «**لا تغضب**» فردد مرارًا قال: «**لا تغضب**»[1] فلم يزده في الوصية على (لا تغضب) مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ منه»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: **لا تغضب**، فردد مرارًا قال: **لا تغضب**»[3].

★فوائد الحديث:

قال أبو عمر رحمه الله: «هذا من الكلام القليل الألفاظ، الجامع للمعاني الكثيرة والفوائد الجليلة. ومن كظم غيظه ورد غضبه أخزى شيطانه وسلمت مروءته ودينه، ولقد أحسن القائل:

لا يُعرف الحلم إلا ساعة الغضبِ

وقال علي بن ثابت:

العقل آفته الإعجاب والغضب ... والمال آفته التبذير والنهب

وقال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين خبرتهم ... عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضبِ

وكل هؤلاء إنما حاولوا ودندنوا حول معنى هذا الحديث»[4].

قال الحافظ ابن حجر: «قال بعض العلماء: خلق اللَّه الغضب من النار، وجعله غريزة في الإنسان، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما اشتعلت نار الغضب وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدم؛ لأن البشرة تحكي لون ما وراءها، وهذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) شرح مسلم (١٦/ ١٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٦)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٦) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢٠) وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٤) التمهيد كما في فتح البر (١٠/ ٤٥٤-٤٥٥).

من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفر اللون حزنًا، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر، ويترتب على الغضب تغيير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن غير ترتيب واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته، واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، أما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل، ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضًا في الفعل بالضرب أو القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه، رجع إلى نفسه فيمزق ثوبه ويلطم خده، وربما سقط صريعًا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: «لا تغضب» من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني»[1].

تنبيه: تقدم ذكر هذه الأحاديث وغيرها مع زيادة فوائد في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

* عن عائشة ﵂ أنها قالت: «ما خُيِّرَ رسول اللَّه ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول اللَّه ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة اللَّه فينتقم لله بها»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «في هذا الحديث دليل على أن على العالم أن يتجافى عن الانتقام لنفسه ويعفو، ويأخذ بالفضل إن أحب أن يتأسى بنبيه ﷺ، وإن لم يطق كلًّا فبعضًا،

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٣٧-٦٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٤و١١٦)، والبخاري (٦/ ٧٠٢/ ٣٥٦٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧ [٧٧])، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥)، والترمذي في الشمائل (٣٠٠).

وكذلك السلطان. . وعلى العالم أن يغضب عند المنكر ويغيره، إذا لم يكن لنفسه، وفي معنى هذا الحديث أن لا يقضي الإنسان لنفسه، ولا يحكم لها، ولا لمن في ولايته. وهذا ما لا خلاف فيه، والله أعلم»[1].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث الحث على العفو والحلم واحتمال الأذى والانتصار لدين الله تعالى ممن فعل محرمًا أو نحوه، وفيه أنه يستحب للأئمة والقضاة وسائر ولاة الأمور التخلق بهذا الخلق الكريم، فلا ينتقم لنفسه، ولا يهمل حق الله تعالى»[2].

* * *

(١) التمهيد كما في فتح البر (١٠/٢٥٨-٢٥٩).
(٢) شرح مسلم (١٥/٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين أجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيده، والإقرار بوحدانيته والبراءة من عبادة كل ما يعبد دونه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بحدودها في أوقاتها»[٢].

قال السعدي: «أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة للّه، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها»[٣].

قال ابن عاشور: «وأما الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله؛ لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي ﷺ فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلِّغًا عن اللَّه، فكأنَّ اللَّه دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته. والسين والتاء في ﴿اسْتَجَابُوا﴾ للمبالغة في الإجابة، أي هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد.

ولام له للتقوية يقال: استجاب له كما يقال: استجابه، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة، وعبد اللَّه بن مسعود وسعد بن أبي وقاص، ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة»[٤].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٣٨).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ٣٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢١-٦٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢] ولهذا كان -عليه الصلاة والسلام- يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم»[٣].

قال ابن العربي: «مدح اللّه المشاور في الأمور، ومدح القوم الذين يمتثلون ذلك، وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الأمور المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآثار كثير، ولم يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند اللّه على جميع الأقسام: من الفرض، والندب، والمكروه، والمباح، والحرام.

فأما الصحابة بعد استئثار اللّه به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام، ويستنبطونها من الكتاب والسنة؛ وإن أول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه.

وقال عمر: نرضى لدنيانا من رضيه رسول اللّه ﷺ لديننا. وتشاوروا في أمر الردة، فاستقر رأي أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجد وميراثه، وفي حد الخمر وعدده على الوجوه المذكورة في كتب الفقه. وتشاوروا بعد رسول اللّه ﷺ في الحروب، حتى شاور عمر الهرمزان حين وفد عليه مسلما في المغازي، فقال له

---

(١) الشورى: الآية (٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٩٧-١٩٨).

الهرمزان: إن مثلها ومثل من فيها من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وله جناحان ورجلان، فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس، وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس، وإن شدخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان، والرأس كسرى والجناح الواحد قيصر، والآخر فارس. فمر المسلمين فلينفروا إلى كسرى وذكر الحديث إلى آخره»[١].

قال السعدي: «﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم، فمن كمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيرهما، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية»[٢].

تنبيه: تقدم مبحث الشورى وما ورد فيها من الأحاديث في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[٣].

* * *

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٦٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٢).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ومن الأموال التي رزقناهم ينفقون في سبيل الله ويؤدون ما فرض عليهم من الحقوق لأهلها من زكاة ونفقة على من تجب عليه نفقته»[2].

قال ابن عاشور: «وأثنى عليهم بأنهم ينفقون مِما رزقهم الله، وللأنصار الحظ الأوفر من هذا الثناء، وهو كقوله فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3]. وذلك أن الأنصار كانوا أصحاب أموال وعمل، فلما آمنوا كانوا أول جماعة من المؤمنين لهم أموال يعينون بها ضعفاء المؤمنين منهم ومن المهاجرين الأولين قبل هجرة النبي ﷺ. فأما المؤمنون من أهل مكة فقد صادر المشركون أموالهم لأجل إيمانهم»[4].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٣٨).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ٣٧).

(٣) الحشر: الآية (٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن العربي: «فيها مسألتان:

المسألة الأولى: ذكر اللّه الانتصار في البغي في معرض المدح، وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر في معرض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدهما رافعا للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالتين: إحداهما أن يكون الباغي معلنا بالفجور، وقحا في الجمهور، مؤذيا للصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل.

وفي مثله قال إبراهيم النخعي: يكره للمؤمنين أن يذلوا أنفسهم، فيجترئ عليهم الفساق.

الثاني: أن تكون الفلتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة، ويسأل المغفرة، فالعفو هاهنا أفضل، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾[2]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[3].

المسألة الثانية: قال السدي: إنما مدح اللّه من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به، يعني كما كانت العرب تفعله؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فبين في آخر الآية المراد منها، وهو أمر محتمل، والأول أظهر»[4].

قال ابن عطية: «مدح اللّه تعالى في هذه الآية قومًا بالانتصار من البغي، ورجح ذلك قوم من العلماء وقالوا: الانتصار بالواجب تغيير منكر، ومن لم ينتصر مع إمكان

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٧).

(٢) المائدة: الآية (٤٥).

(٣) النور: الآية (٢٢).

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٦٦٩).

الانتصار فقد ترك تغيير المنكر، واختلف الناس في المراد بالآية بعد اتفاقهم على أن من بغي عليه وظلم فجائز له أن ينتصر بيد الحق وحاكم المسلمين، فقال مقاتل: الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص. وقالت فرقة: إنها نزلت في بغي المشرك على المؤمن، فأباح اللّه لهم الانتصار منهم دون تعدٍّ، وجعل العفو والإصلاح مقرونًا بأجر، ثم نسخ ذلك بآية السيف، وقالت هذه الفرقة وهي الجمهور؛ إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه، فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه بنفسه ويجازيه على ظلمه، مثال ذلك: أن يخون الإنسان آخر ثم يتمكن الإنسان من خيانته، فمذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن لا يفعل، وهو مذهب جماعة عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من هذا المعنى، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[1]. وهذا القول أنزه وأقرب إلى اللّه تعالى. وقالت طائفة من أهل العلم: هذه الآية عامة في المشركين والمؤمنين، ومن بغي عليه وظلم فجائز له أن ينتصف لنفسه، ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه، وقالوا: إن الحديث: «**ولا تخن من خانك**»، إنما هو في رجل سأل رسول اللّه ﷺ هل يزني بحرمة من زنا بحرمته؟ فقال له النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك يريد به الزنا، وكذلك ورد الحديث في معنى الزنا، ذكر ذلك الرواة، أما أن عمومه ينسحب في كل شيء»[2].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة؛ بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾[3] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه»[4].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٥/ ٣٥٣٥)، والترمذي (٣/ ٥٦٤/ ١٢٦٤)، وقال: حسن غريب والحاكم (٢/ ٤٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٩-٤٠).

(٣) يوسف: الآية (٩٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «هذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها، وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم، والشرع منزّه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾[2] وقوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾[3] والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[5] فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله»[6].

قال ابن عاشور: «وقد شملت هذه الآية بموقعها الاعتراضي أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم، وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي تخويل حق انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفًا من أن يأخذ المظلوم بحقه، فالمعتدي يحسب لذلك حسابه حين الهمّ بالعدوان.

وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه، كيلا تنثلِم في آحاد جزئياتها؛ بل تزداد بالعفو متانة، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[7].

---

(١) النحل: الآية (١٢٦).
(٢) غافر: الآية (٤٠).
(٣) البقرة: الآية (١٧٨).
(٤) المائدة: الآية (٤٥).
(٥) البقرة: الآية (١٧٩).
(٦) التفسير الكبير (٢٧/ ١٧٩-١٨٠).
(٧) فصلت: الآية (٣٤).

على أن اللَّه تعالى لَمْ يهمل جانب ردع الظالم، فأنبأ بتحقيق أنه بمحل من غضب اللَّه عليه إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا ينحصر ما في طي هذا من هول الوعيد»[1].

قال السعدي: «ذكر اللَّه في هذه الآية، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم. فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرًا، وشرط اللَّه في العفو والإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي على اللَّه مما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله اللَّه به، فكما يحب أن يعفو اللَّه عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه اللَّه، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عفو المظلوم

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المستبّان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم»[3].

★ **غريب الحديث:**

المستبّان: تثنية المستب، من السب: وهو الشتم والذم.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٦-١١٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٣-٦٢٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥و٤٨٨و٥١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٠٠/ ٢٥٨٧)، وأبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٤)، والترمذي (٤/ ٣١٠/ ١٩٨١) وقال: «حسن صحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى الكلام أن المبتدئ بالسب هو المختص بإثم السب؛ لأنه ظالم به؛ إذ هو مبتدئ من غير سب ولا استحقاق، والثاني منتصر فلا إثم عليه ولا جناح، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]. لكن السب المنتصر به وإن كان مباحًا للمنتصر فعليه إثم من حيث هو سب، لكنه عائد إلى الجاني الأول؛ لأنه هو الذي أحوج المنتصر إليه وتسبب فيه، فيرجع إثمه عليه، ويسلم المنتصر من الإثم؛ لأن الشرع قد رفع عنه الإثم والمؤاخذة، لكن ما لم يكن من المنتصر عدوان إلى ما لا يجوز له، كما قال: «**ما لم يعتد المظلوم**»؛ أي: ما لم يجاوز ما سُب به إلى غيره، إما بزيادة سب آخر أو بتكرار مثل ذلك السب، وذلك أن المباح في الانتصار: أن يرد مثل ما قال الجاني، أو يقاربه؛ لأنه قصاص، فلو قال له: يا كلب -مثلًا- فالانتصار أن يرد عليه بقوله: بل هو الكلب، فلو كرر هذا اللفظ مرتين أو ثلاثا لكان معتديًا، بالزائد على الواحدة، فله الأولى، وعليه إثم الثانية، وكذلك لو رد عليه بأفحش من الأولى، فيقول له: خنزير -مثلًا- كان كل واحد منهما مأثومًا؛ لأن كلا منهما جاز على الآخر، وهذا كله مقتضى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2] وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وكل ما ذكرناه من جواز الانتصار، إنما هو فيما إذا لم يكن القول كذبًا أو بهتانًا، فلا يجوز أن يتكلم بذلك لا ابتداءً ولا قصاصًا، وكذلك لو كان قذفًا، فلو رده كان كل واحد منهما قاذفًا للآخر، وكذلك لو سب المبتدئ أبا المسبوب، أو جده لم يجز له أن يرد ذلك؛ لأنه سب لمن لم يجن عليه فيكون عدوانًا لا قصاصًا، قال بعض علمائنا: إنما يكون الانتصار فيما إذا كان السب مما يجوز سب المرء به عند التأديب كالأحمق والجاهل والظالم؛ لأن أحدًا لا ينفك عن بعض هذه الصفات إلا الأنبياء والأولياء»[3].

---

(١) الشورى: الآية (٤١).

(٢) البقرة: الآية (١٩٤).

(٣) المفهم (٦/ ٥٦٦-٥٦٧).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قالوا: وإذا انتصر المسبوب استوفى ظلامته وبرئ الأول من حقه وبقي عليه إثم الابتداء أو الإثم المستحق لله تعالى. وقيل: يرتفع عنه جميع الإثم بالانتصار منه ويكون معنى على البادئ؛ أي: عليه اللوم والذم لا الإثم»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلًا شتم أبا بكر رضي الله عنه، والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر، رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول اللَّه، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله، غضبت وقمت؟ قال: **إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله، وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان، ثم قال: يا أبا بكر! ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعز اللَّه بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده اللَّه بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده اللَّه بها قلة**»[٢].

★ غريب الحديث:

فيغضي: غضوتُ على الشيء وعلى القذى وأغضيتُ: سكتُّ، ويجوز أن يكون من أغضى، كقولهم: عذاب أليم وضربٌ وجيع، والأول أجود. والإغضاء: إدناء الجفون، وغضى الرجل وأغضى: أطبق جفنيه على حدقته. وأغضى عينًا على قذى: صبر على أذى، وأغضى عنه طرفَهُ: سده أو صده. والمعنى: أنه لم يقابل المظلمة بمثلها، بل يعفو عمن ظلمه[٣].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**فلما أكثر، رد عليه بعض قوله**» قال القاري: «عملًا بالرخصة المجوّزة للعوام، وتركًا للعزيمة المناسبة لمرتبة الخواص، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ١١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٦)، وأبو داود (٥/ ٢٠٤/ ٤٨٩٧)، وصححه الألباني رحمه اللَّه، انظر «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٦).

(٣) اللسان (١٥/ ١٢٨) والفتح الرباني (١٩/ ٨٢).

(٤) الشورى: الآيتان (٣٩و٤٠).

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1]، وهو ﷺ وإن كان جمع بين الانتقام عن بعض حقه وبين الصبر عن بعضه، لكن لما كان المطلوب منه الكمال المناسب لمرتبته من الصديقية ما استحسنه ﷺ، وهذا معنى قوله: فغضب النبي ﷺ»[2].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الانتصار عن المظالم جائز، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ولكن الصبر أجمل، قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾»[4].

* عن عبد اللَّه بن مغفل رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال اللَّه تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول اللَّه ﷺ وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول اللَّه ﷺ لعلي رضي اللَّه تعالى عنه: اكتب: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، فأخذ سهيل بن عمرو بيده فقال: ما نعرف (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب: (باسمك اللهم)، فكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه ﷺ أهل مكة فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب، وأنا رسول اللَّه، فكتب، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول اللَّه ﷺ فأخذ اللَّه ﷻ بأبصارهم، فقدمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانًا؟ فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[5]»[6].

---

(١) النحل: الآية (١٢٦).
(٢) المرقاة (٨/ ٨٢٢-٨٢٣).
(٣) النساء: الآية (١٤٨)
(٤) شرح السنة (١٣/ ١٦٤).
(٥) الفتح: الآية (٢٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٦-٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٤/ ١١٥١١)، والبيهقي (٦/ ٣١٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي. وأصل القصة في الصحيحين.

★ فوائد الحديث:

قال البنا: «إنما سألهم النبي ﷺ لأنه لو كان لهم عهد أو أمان من أحد الصحابة بعد فعلهم هذا لوجب العفو عنهم، وقد ظهر باعترافهم أنه ليس معهم أمان ولا عهد، فكانوا يستحقون القتل أو الدخول في الإسلام، ومع هذا فقد عفا عنهم وخلّى سبيلهم، وهذا من كرم أخلاقه ومزيد حلمه وحسن سياسته ﷺ»[١].

* عن جابر رضي الله عنه: «أنه غزا مع رسول اللَّه ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول اللَّه ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول اللَّه ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول اللَّه ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول اللَّه ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: اللَّه -ثلاثًا-، ولم يعاقبه، وجلس»[٢].

★ غريب الحديث:

العضاه: شجر أم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك، الواحدة: عضةٌ بالتاء، وأصلها: عضهة، وقيل: واحدتها: عضاهة، وعضهتُ العضاه: إذا قطعتُها[٣].

اخترط سيفي: أي: سلّه من غمده، وهو افتعل من الخرط[٤].

صلتًا: أي: مجردًا. يقال: أصلت السيفَ: إذا جرّده من غمده، وضربه بالسيف صَلتًا وصُلتًا[٥].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «فيه ترك الإمام معاقبة من جفا عليه وتوعده إن شاء، والعفو عنه إن أحب. وفيه: صبر الرسول وحلمه وصفحه عن الجهال. وفيه: شجاعته وبأسه وثبات نفسه صلى اللَّه عليه، ويقينه أن اللَّه ينصره ويظهره على الدين كله»[٦].

---

(١) الفتح الرباني (١٨/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١١-٣٦٤)، والبخاري (٦/ ١٢٠/ ٢٩١٠)، ومسلم (١/ ٥٧٦/ ٨٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٧/ ٨٨٥٢).

(٣) النهاية (٣/ ٢٥٥).

(٤) النهاية (٢/ ٢٣).

(٥) النهاية (٣/ ٤٥).

(٦) شرح ابن بطال (٥/ ١٠١).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ سُحِر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا. فقال: يا عائشة، أعلمت أن اللَّه قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعونة في بئر ذروان، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال: **هذه البئر التي أريتها، وكأن مائها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين**. قال: فاستخرج. قالت: فقلت: أفلا -أي تنشرت-؟ فقال: **أما واللَّه فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا**»[(١)].

★ غريب الحديث:

مطبوب: رجل مطبوب: أي: مسحور، كنوا بالطب عن السحر تفاؤلًا بالبرء، كما كنوا بالسليم عن اللديغ[(٢)].

مُشاطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط[(٣)].

جف طلعة ذكر: الجُفّ: وعاء الطلع، وهو الغشاء الذي يكون فوق طلع النخل، ويطلق على الذكر والأنثى، فلهذا قيده في الحديث بقوله: طلعة ذكر، وهو بإضافة طلعة إلى ذكر[(٤)].

رعوفة: حجر يوضع على رأس البئر لا يستطاع قلعه، يقوم عليه المستقي. وقد يكون في أسفل البئر، قال أبو عبيد: هي صخرة تنزل في أسفل البئر إذا حفرت، يجلس عليها الذي ينظف البئر، وهو حجر يوجد صلبًا لا يستطاع نزعه فيترك[(٥)].

ذروان: هي بئر بالمدينة في بستان بني زريق[(٦)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣)، والبخاري (١٠/ ٢٨٥/ ٥٧٦٥)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠/ ٧٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

(٢) النهاية (٣/ ١١٠).

(٣) النهاية (٤/ ٣٣٤).

(٤) النهاية (١/ ٢٧٨)، وشرح مسلم (١٤/ ١٤٩).

(٥) الفتح (١٠/ ٢٨٧).

(٦) شرح مسلم (١٤/ ١٤٩).

نقاعة الحناء: بضم النون وتخفيف القاف، والحناء معروف، وهو بالمد؛ أي: أن لون ماء البئر لون الماء الذي ينقع فيه الحناء[(١)].

كأن نخلها رؤوس الشياطين: فيه قولان: أحدهما: أنه مستدقه كرؤوس الحيات، والحية يقال لها: الشيطان، والآخر: أنها وحشة المنظر سمجة الأشكال كأنها في ما يتصور استبشاعًا لها واستقباحًا لصورها رؤوس الشياطين المشوهة الخلق الهائلة المنظر[(٢)].

تنشرت: النُّشْرة معروفة، وهي ضرب من علاج المصاب بمس الجن، وعمل السحر، يُنشَّر به ذلك القارض تنشيرًا، وقد يُجَلّل صاحبه بصبوب من مياه مختلفة المواضع يُنفث فيه ويرقى به[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «كان النبي ﷺ لا ينتقم لنفسه ما لم تنتهك لله حرمة، وكان يصبر على أذى المنافقين واليهود، وقد سحره لبيد بن الأعصم وناله من ضرر السحر مالم ينله من ضرر السم في الشاة ولم يعاقب الذى سحره؛ لأن اللَّه تعالى كان قد ضمن لنبيه ﷺ أنه لا يناله مكروه وأن لا يموت حتى يبلغ دينه ويصدع بتأدية شريعته، وكان معصوما من ضرر الأعداء قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[(٤)] وغيره من الناس بخلافه فهذا الفرق بينه وبين غيره ﷺ»[(٥)].

قال القاضي عياض في حديثه عن عظيم عفوه ﷺ، وأنه لم يؤاخذ لبيذ بن الأعصم إذ سحره وقد أعلم به، وأوحي إليه بشرح أمره: ولا عتب عليه فضلا عن معاقبته»[(٦)].

قال الحافظ: «قال ابن بطال: لا يقتل ساحر أهل الكتاب عند مالك والزهري إلا أن يقتل بسحره فيقتل، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وعن مالك إن أدخل بسحره ضررا على مسلم لم يعاهد عليه نقض العهد بذلك فيحل قتله، وإنما لم يقتل

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٨٢).
(٢) أعلام الحديث (٢/ ١٥٠٠).
(٣) أعلام الحديث (٢/ ١٥٠٤).
(٤) المائدة: الآية (٦٧).
(٥) شرح البخاري (٩/ ٤٥٢).
(٦) الشفا (١/ ٢٢٤).

النبي ﷺ لبيد بن الأعصم لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ولأنه خشي إذا قتله أن تثور بذلك فتنة بين المسلمين وبين حلفائه من الأنصار، وهو من نمط ما راعاه من ترك قتل المنافقين، سواء كان لبيد يهوديا أو منافقا»[(١)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فقيل: ألا نقتلها؟ قال: لا، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

لهوات: بفتح اللام: جمع لهاة، وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: هي أقصى الحلق، وقيل: ما يبدو من الفم عند التبسم.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «كان ﷺ لا ينتقم لنفسه تواضعًا لله، وكان لا يقتل أحدًا من المنافقين المناصبين له بالعدواة والغوائل؛ لأنه كان على خلق عظيم من الصفح والإغضاء والصبر»[(٣)].

* عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

تواضع: التواضع: الانكسار والتذلل، ونقيضه: التكبر والترفع.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «**«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**، فيه وجهان: أحدهما: أن الله تعالى يمنحه ذلك في الدنيا جزاء على تواضعه له، وأن تواضعه يثبت له في القلوب محبة ومكانة وعزة، والثاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه، وهذه الوجوه كلها في الدنيا ظاهرة موجودة، وقد صدق عليه السلام فيما

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٩٠)، وانظر شرح البخاري لابن بطال (٥/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٨)، والبخاري (٥/ ٢٨٧/ ٢٦١٧)، ومسلم (٤/ ١٧٢١/ ٢١٩٠)، وأبو داود (٤/ ٦٤٧/ ٤٥٠٨).

(٣) شرح ابن بطال (٥/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥-٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٠/ ٢٠٢٩).

أخبر منها، وقد يكون جمع الوجهين في جميعها»[1].

قال القرطبي: «التواضع يقتضي متواضَعًا له، فإن كان المتواضَع له هو اللَّه تعالى، أو من أمر اللَّه بالتواضع له كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضع الواجب المحمود، الذي يرفع اللَّه تعالى به صاحبه في الدنيا والآخرة. وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه: أنه محمود، ومندوب إليه، ومرغَّب فيه إذا قُصد به وجه اللَّه، ومن كان كذلك رفع اللَّه تعالى قدره في القلوب، وطيّب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة. وأما التواضع لأهل الدنيا، ولأهل الظلم، فذلك هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها، بل يترتب عليها ذل الآخرة، وكل صفقة خاسرة، نعوذ باللَّه من ذلك»[2].

* * *

---

(١) إكمال المعلم (٨/ ٥٩).

(٢) المفهم (٦/ ٥٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولمن انتصر ممن ظلمه ممن بعد ظلمه إياه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يقول: فأولئك المنتصرون منهم لا سبيل للمنتصر منهم عليهم بعقوبة لا أذى؛ لأنهم انتصروا منهم بحقّ، ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد، لم يظلم فيكون عليه سبيل»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ دليل على أن له أن يستوفي ذلك بنفسه.

وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصا في بدن يستحقه آدمي، فلا حرج عليه إن استوفاه من غير عدوان، وثبت حقه عند الحكام، لكن يزجره الامام في تفوته بالقصاص لما فيه من الجرأة على سفك الدم. وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين اللَّه حرج، وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب.

القسم الثاني: أن يكون حد اللَّه تعالى لا حق لآدمي فيه كحد الزنى وقطع السرقة، فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نظر، فان كان قطعا في سرقة سقط به الحد لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حق لأن التعزير أدب، وإن كان جلدا لم يسقط به الحد لتعديه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه.

القسم الثالث: أن يكون حقا في مال، فيجوز لصاحبه أن يغالب على حقه حتى يصل إليه إن كان ممن هو عالم به، وإن كان غير عالم نظر، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرار بأخذه.

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٣٩).

وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة لجحود من هو عليه من عدم بينة تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه، وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع، وهو قول أبي حنيفة»[١].

قال السعدي: «أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك. ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه. وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز انتصار المسلم ممن ظلمه

* عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة: ما علمت حتى دخلت علي زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: أحسبك إذا قلبت لك بنية أبي بكر ذريعيها، ثم أقبلت إلي فأعرضت عنها حتى قال النبي ﷺ: **دونك فانتصري**، فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يبس ريقها في فمها ما ترد علي شيئًا، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه»[٤].

★ غريب الحديث:

ذريعتيها: هي تصغير ذراع.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «كانت زينب لما بدأتها العتب واللوم كانت كأنها ظالمة، فجاز لعائشة أن تنتصر لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾»[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٨). (٢) الشورى: الآية (٣٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٤).
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٨) مختصرا وابن ماجه (١/ ٦٣٧/ ١٩٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٠/ ٨٩١٥)، قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات، وزكريا بن أبي زائدة كان يدلس»، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٥/ ١٢٦)، وأصل القصة في الصحيحين بسياق أطول.
(٥) المفهم (٦/ ٣٢٦).

قال صاحب بلوغ الأماني: «إنما أذن ﷺ لعائشة بالانتصار من زينب لكونه رآها زادت في الاعتداء، وعائشة ساكتة لا ترد عليها»(١).

وقال: وإنما أمر النبي ﷺ بقول عائشة لما رأى فيها من الذكاء والحكمة في القول والشجاعة التي لم توجد في غيرها من النساء»(٢).

* * *

---

(١) بلوغ الأماني (٢٢/ ١١٥).

(٢) بلوغ الأماني (٢٢/ ١١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تبارك وتعالى-: إنما الطريق لكم أيها الناس على الذين يتعدّون على الناس ظلما وعدوانا، بأن يعاقبوهم بظلمهم، لا على من انتصر ممن ظلمه، فأخذ منه حقه.

وقوله: ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يقول: ويتجاوزون في أرض اللّه الحدّ الذي أباح لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحق. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: فهؤلاء الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، لهم عذاب من اللّه يوم القيامة في جهنم مؤلم موجع»[١].

قال ابن العربي: «هذه الآية مقابلة الآية المتقدمة في براءة وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[٢] فكما نفى اللّه السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها على من ظلم»[٣].

قال السعدي: «أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٠).
(٢) التوبة: الآية (٩١).
(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٦٧٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ولمن صبر على إساءة من أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر ابتغاء وجه اللَّه وجزيل ثوابه. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه، لمن عزم الأمور التي ندب إليها عباده، وعزم عليهم العمل به»[1].

قال القرطبي: «أي: صبر على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ أي: ترك الانتصار لوجه اللَّه تعالى، وهذا فيمن ظلمه مسلم. ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن رحمه اللَّه فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله! وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبا إليه كما تقدم، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشة ﵂ بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «**دونك فانتصري**» خرجه مسلم في صحيحه بمعناه»[2].

قال السعدي: «﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما صدر منهم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث اللَّه عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره اللَّه عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان اللَّه على ذلك، ثم إذا

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٠).

ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه»[١].

قال ابن عاشور: «وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى، وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجّح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[2]»[3].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإصلاح وأنه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يتولى أمره ويهديه»[4].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٤٤).

(٢) الكهف: الآية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٠١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وترى الكافرين بالله يا محمد يوم القيامة لما عاينوا عذاب الله يقولون لربهم: ﴿هَلۡ﴾ لنا يا رب ﴿إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ وذلك كقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾[2] . . الآية، استعتب المساكين في غير حين الاستعتاب»[3].

قال البقاعي: «لما كان مبنى أمر الضال على الندم ولو بعد حين، قال عاطفًا على نحو: فترى الظالمين قبل رؤية العذاب في غاية الجبروت والبطر والتكذيب بالقدرة عليهم، فهم لذلك لا يرجون حسابًا ولا يخافون عقابًا: ﴿وَتَرَى﴾ وقال: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضع ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ لبيان أن الضال لا يضع شيئًا في موضعه، ولما كان عذابهم حتمًا، عبر عنه بالماضي فقال: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي المعلوم مصير الظالم إليه رؤية محيطة بظاهره وباطنه، يتمنون الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات من الطاعات الموجبة للنجاة ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: مكررين مما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾ أي رد إلى دار العمل وزمانه عظيم مخلص من هذا العذاب ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ »[4].

قال السعدي: «﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ مرأى ومنظرا فظيعا صعبا شنيعا، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن»[5].

---

(١) الشورى: الآية (٤٤).
(٢) السجدة: الآية (١٢).
(٣) جامع البيان (٢٥/ ٤٠).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٢).
(٥) تيسير الكريم الحمن (٦/ ٦٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل، ثم قال: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه، ويملأ عينيه منه، كما يفعل في نظره إلى المحبوبات، فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار إنهم يحشرون عميًا فكيف قال هاهنا إنهم ينظرون من طرف خفي؟ قلنا: لعلّهم يكونون في الابتداء هكذا، ثم يجعلون عميًا أو لعلّ هذا في قوم، وذلك في قوم آخرين»[2].

قال البقاعي: «ولما أثبت رؤيتهم العذاب، أثبت دنوهم من محله، وبين حالهم في ذلك الدنو فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ أي يا أكمل الخلق ويا أيها المتشوف إلى العلم بحالهم بعينك حال كونهم ﴿يُعْرَضُونَ﴾ أي يجدد عرضهم ويكرر، وهو إلجاؤهم إلى أن يقارنوها بعرضهم الذي يلزم محاذاتهم لها أيضًا بطولهم؛ ليعلموا أنها مصيرهم، فلا مانع لها منهم ﴿عَلَيْهَآ﴾ أي النار التي هي دار العذاب مكررًا، عرضهم في طول الموقف مع ما هم فيه من تلك الأهوال بمقاساة ما عليهم من الأحمال الثقال حال كونهم ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي في غاية الضعة والإلقاء باليد خشوعًا هو ثابت لهم.

ولما كان الخشوع قد يكون محمودًا قال: ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ لأنهم عرفوا إذ ذاك ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه.

---

(١) الشورى: الآية (٤٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٨٣).

ولما كان الذل ألوانًا، صوره بأقبح صورة فقال معبرًا بلفظ النظر الذي هو مماسة البصر لظاهر المبصر: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي يبتدئ نظرهم المتكرر ﴿مِن طَرْفٍ﴾ أي تحريك للأجفان ﴿خَفِيٍّ﴾ يعرف فيه الذل؛ لأنه لا يكاد من عدم التحديق يظن أنه يطرف؛ لأنهم يسارقون النظر مسارقة كما ترى الإنسان ينظر إلى المكاره، والصبور ينظر إلى السيف الذي جرد له، فهو بحيث لا يحقق منظورًا إليه؛ بل ربما تخيله بأعظم مما هو عليه»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٢-٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يقولون يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها»[1].

قال القرطبي: «أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حل بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم في العذاب المخلد، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم»[2].

قال ابن عاشور: «وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا، عارفين بِرِبْحِ تجارتهم، ومقابلين بالضد حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببًا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر: أن المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين، فيزيد الظالمين تلهيبًا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم. فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرّة والبهجة بالسلامة مما لحق الظالمين، أي قالوه تحدثًا بالنعمة واغتباطًا بالسلامة، يقوله كل أحد منهم أو يقوله بعضهم لبعض»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولم يكن لهؤلاء الكافرين حين يعذبهم اللَّه يوم القيامة أولياء يمنعونهم من عذاب اللَّه، ولا ينتصرون لهم من ربهم على ما نالهم به من العذاب من دون اللَّه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يقول: ومن يخذله عن طريق الحق فما له من طريق إلى الوصول إليه؛ لأن الهداية والإضلال بيده دون كلّ أحد سواه»[1].

قال ابن عطية: «﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها واعتقدت ذلك دينًا، المعنى: فما بالهم يوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع، ولكن من يضلل اللَّه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ هدى ونجاة»[2].

قال السعدي: «كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب اللَّه لم يدفع عنهم. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٧).

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال، والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، -تبارك وتعالى-؛ بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾[(١)].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[(٣)] وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة اللَّه إليهم»[(٤)].

قال ابن عطية: «أمر تعالى نبيه أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة اللَّه وشريعته، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يرد أحد بعده إلى عمل، والذي لا ملجأ ولا منجا لأحد فيه إلا إلى العلم باللَّه تعالى والعمل الصالح في الدنيا، فأخبرهم أنه

---

(١) القيامة: الآيات (١٠-١٢).

(٢) البقرة: الآية (٢٧٢).

(٣) الرعد: الآية (٤٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٠٢).

لا ملجأ لهم ولا نكير.. وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تأنيس لمحمد ﷺ وإزالة لهمه بهم، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ وتوصيل الحجة»[١].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه؛ بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا ﴿يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنٍ ﴿٣٣﴾﴾[٢] وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه؛ بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه. وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جئتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ﴾ فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها»[٣].

قال محمد تقي الدين الهلالي: «كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله فإنه لم يستجب لربه وهو متعرض للمصائب كما تقدم في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَبَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[٤] ونحن نرى اليوم هذه الشعوب التي استجاب أسلافها لربهم فأطاعوا الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، لما أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله أصابتهم مصائب شتى، وهم يقاسونها ويعذبون بها، ولم يهتدوا سبيلا إلى التخلص منها بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله؛ بل هم مستمرون في ضلالتهم، ومن أسباب إعراضهم عن الكتاب والسنة، التقليد والتعصب واتباع الطرائق القدد»[٥].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٢).

(٢) الرحمن: الآية (٣٣).

(٣) تيسير الكريم الحمن (٦/ ٦٢٧-٦٢٨).

(٤) النساء: الآية (٦٢).

(٥) سبيل الرشاد (٤/ ٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من عندنا سعة، وذلك هو الرحمة التي ذكرها -جل ثناؤه-، ﴿فَرِحَ بِهَا ۖ﴾ يقول: سر بما أعطيناه من الغنى، ورزقناه من السعة وكثرة المال. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ يقول: وإن أصابتهم فاقة وفقر وضيق عيش. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول: بما أسلفت من معصية اللَّه عقوبة له على معصيته إياه، جحد نعمة اللَّه، وأيس من الخير ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإن الإنسان جحود نعم ربه، يعدد المصائب ويجحد النعم»[1].

قال الرازي: «بين السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة، والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾ ونعم اللَّه في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوقًا، فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصابتهم سيئة أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما فإنه يظهر منه الكفر، وهو معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ والكفور الذي يكون مبالغًا في الكفران، ولم يقل فإنه كفور، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٤).

التي أرشد اللَّه إليها»[1].

قال ابن عاشور: «اختلفت محامل المفسرين للآية، فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر باللَّه مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنَسفي وابنِ كثير، ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع، وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشْف، ومنهم من عكس وهي طريقة الكَواشي في تلخيصه. وعلى الوجهين فالمراد بـ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ في الموضع الأول والموضِع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المرادُ به الاستغراق، أي إذا أذقنا الناس، وأن الناس كفُورون، ويكون استغراقًا عرفيًا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان؛ لأن أكثر نوع الإنسان يومئذٍ مشركون، وهذا هو المناسب لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: شديد الكفر قويّه، ولقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من الكفر. وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أن هذا الخُلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام، فالذين لم يسلموا باقون عليه، وذلك أدخل في التسلية؛ لأن اسم الإنسان اسم جنس يتضمن أوصاف الجنس المسمى به على تفاوت في ذلك وذلك لغلبة الهوى. وقد تكرر ذلك في القرآن مرارًا كقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾[3] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[4]. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد لمناسبة التسلية بأن نُزِّل السامع الذي لا يشك في وقوع هذا الخبر منزلة المتردد في ذلك لاستعظامه إعراضهم عن دعوة الخيْر، فشبّه بالمتردد على طريقة المكنية»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أخبار اللئام

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «.. وأريت النار فلم أر كاليوم

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٨٤-١٨٥).
(٢) المعارج: الآية (١٩).
(٣) العاديات: الآية (٦).
(٤) الكهف: الآية (٥٤).
(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣٤-١٣٥).

منظرًا قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»(١).

★ غريب الحديث:

أفظع: فظع بالأمر فظعًا وفظاعة: استعظمه وهاله، ويقال: فظِعَ منه وفَظُعَ الأمرُ فظاعةً: اشتدت شناعته؛ أي: لم أر منظرًا فظيعًا كاليوم. وقيل: أراد: لم أر منظرًا أفظع منه، فحذفها، وهو في كلام العرب كثير(٢).

العشير: قال أهل اللغة: العشير: المخالط، من المعاشرة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾(٣)»(٤).

الدهر: اسم للزمان الطويل، ومدة الحياة الدنيا(٥).

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وأما قوله: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان**» فالعشير في هذا الموضع عند أهل العلم: الزوج، والمعنى عندهم في ذلك: كفر النساء لحسن معاشرة الزوج، ثم عطف على ذلك كفرهن بالإحسان جملة، في الزوج وغيره»(٦).

قال ابن بطال: «قال المهلب: إنما استحق النساء النار بكفرانهن العشير من أجل أنهن يكثرن ذلك الدهر كله، ألا ترى أن النبي ﷺ فسره فقال: «**لو أحسنت إلى إحداهن الدهر**» لجازت ذلك بالكفران الدهر كله، فغلب استيلاء الكفران على دهرها، فكأنها مصرة أبدًا على الكفر، والإصرار من أكبر أسباب النار.

قال ابن بطال: وفي هذا الحديث تعظيم حق الزوج على المرأة، وأنه يجب

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٢/ ٦٨٦/ ١٠٥٢)، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٩٠٧)، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩) والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٤/ ١٤٩٢). وهو جزء من حديث طويل في الكسوف.

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ٦٩٥)، والنهاية (٣/ ٤٥٩).

(٣) الحج: الآية (١٣).

(٤) التمهيد كما في فتح البر (١٠/ ٢٤٥).

(٥) النهاية (٢/ ١٤٤).

(٦) التمهيد كما في فتح البر (١٠/ ٢٤٥).

عليها شكره والاعتراف بفضله، لستره لها، وصيانته، وقيامه بمؤنتها، وبذله نفسه في ذلك، ومن أجل هذا فضل اللَّه الرجال على النساء في غير موضع من كتابه، فقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ﴾[1] الآية. وقال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2] وقد أمر ﷺ من أُسديت إليه نعمة أن يشكرها، فكيف نعم الزوج التي تنفك المرأة منها دهرها كله؟!»[3].

قال القاضي عياض: «فيه ذم كفران الإحسان، وفيه أن سوء عشرة الزوجين، وترك حق قضاء الزوج، وعقوقه موجب للعقاب»[4].

قال الحافظ: «وفيه تحريم كفران الحقوق، ووجوب شكر المنعم»[5].

❁ ❁ ❁

---

(١) النساء: الآية (٣٤).

(٢) البقرة: الآية (٢٢٨).

(٣) شرح ابن بطال (٧/ ٣١٩).

(٤) الإكمال (٣/ ٣٤٨-٣٤٩) بتصرف.

(٥) فتح الباري (٢/ ٦٩٠).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «الآية الأولى آية اعتبار دال على القدرة والملك المحيط بالجميع، وأن مشيئته -تبارك وتعالى- نافذة في جميع خلقه، وفي كل أمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع، فإنما هو اللَّه -تبارك وتعالى-، وهو الذي يقسم الخلق فيهب الإناث لمن يشاء، أي يجعل بنيه نساء، ويهب الذكور لمن يشاء على هذا الحد، أو ينوعهم مرة يهب ذكرًا ويهب أنثى، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ . . وبدئ في هذه الآية بذكر الإناث تأنيسًا بهن وتشريفًا لهن، ليتهمم بصونهن والإحسان إليهن»[١].

قال ابن القيم: «قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه، وبدأ سبحانه بذكر الإناث فقيل: جبرا لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهن، وقيل: وهو أحسن إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدونهن، أي هذا النوع المؤخر عندكم مقدم عندي في الذكر، وتأمل كيف نكر سبحانه الإناث وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٤٣).

المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الصنفين معا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

المراد أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾[1] وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾[2]»[3].

قال السعدي: «هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى من عمومه أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه؛ أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأولاد هبة من الله ﷻ وثواب الصبر على البنات والعناية بهن وأسباب الإذكار والإيناث

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن أولادكم هبة الله لكم يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها»**[5].

* عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي اجتاح مالي فقال: **«أنت ومالك لأبيك»**. وقال رسول الله ﷺ: **«إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من أموالهم»**[6].

---

(١) النحل: الآيتان (٥٨-٥٩).
(٢) الزخرف: الآية (١٧).
(٣) تحفة المودود (ص: ٧٧-٧٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٢٩).
(٥) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٨٤) وصححه ووافقه الذهبي. البيهقي (٧/ ٤٨٠).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٤)، وأبو داود (٣/ ٨٠١-٨٠٢/ ٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٢) واللفظ له وصححه الألباني رحمه الله في المشكاة (٣٣٥٤).

★ **غريب الحديثين:**

اجتاح مالي: معناه: يستأصله ويأتي عليه، والعرب تقول: جاحهم الزمان، واجتاحهم إذا أتى على أموالهم، ومنه الجائحة: وهي الآفة التي تصيب المال فتهلكه[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي: «يعني أن أباك كان سبب وجودك، ووجودك سبب وجود مالك، فصار له بذلك حق كان به أولى منك بنفسك، فإذا احتاج فله أن يأخذ منه قدر الحاجة، فليس المراد إباحة ماله له حتى يستأصله بلا حاجة، ولوجوب نفقة الأصل على فرعه شروط مبينة في الفروع، فكأنه لم يذكرها في الخبر لكونها معلومة عندهم، أو متوفرة في هذه الواقعة المخصوصة»[٢].

قال الطحاوي: «ذهب قوم إلى أن ما كسبه الابن من مال فهو لأبيه، واحتجوا في ذلك بهذه الآثار، وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا: ما كسبه الابن من شيء فهو له خاصة دون أبيه. وقالوا: قول النبي ﷺ هذا ليس على التمليك منه للأب كسبَ الابن، وإنما هو على أنه لا ينبغي للابن أن يخالف الأب في شيء من ذلك، وأن تجعل أمره فيه نافذًا كأمره في ما يملك، ألا تراه يقول: «**أنت ومالك لأبيك**»، فلم يكن الابن مملوكًا لأبيه بإضافة النبي ﷺ إياه، فكذلك لا يكون مالكًا لماله بإضافة النبي ﷺ إليه»[٣].

قال الخطابي: «ويشبه أن يكون ما ذكره السائل من اجتياح والده ماله إنما هو سبب النفقة عليه، وإن مقدار ما يحتاج إليه للنفقة عليه شيء كثير لا يسعه عفو ماله، والفضل منه إلا بأن يجتاح أصله ويأتي عليه، فلم يعذره النبي ﷺ ولم يرخص له في ترك النفقة عليه، وقال له: أنت ومالك لوالدك، على معنى أنه إذا احتاج إلى مالك أخذ منك قدر الحاجة كما يأخذ من مال نفسه، وإذا لم يكن لك مال وكان لك كسب لزمك أن تكتسب وتنفق عليه، فإما أن يكون أراد به إباحة ماله وخلاّه واعتراضه حتى يحتاجه ويأتي عليه لا على هذا الوجه فلا أعلم أحدًا ذهب إليه من الفقهاء،

(١) معالم السنن (٣/ ١٤١).
(٢) فيض القدير (٣/ ٤٩-٥٠).
(٣) شرح المعاني (٤/ ١٥٨).

والله أعلم»[١].

قال ابن حبان: «معناه أنه ﷺ زجر عن معاملته أباه بما يعامل به الأجنبيين، وأمره ببره والرفق به في القول والفعل معًا، إلى أن يصل إليه ماله، فقال له: «**أنت ومالك لأبيك**»، لا أن مال الابن يملكه الأب، في حياته من غير طيب نفس من الابن به»[٢].

قال الخطابي: «فيه من الفقه: أن نفقة الوالدين واجبة على الولد إذا كان واجدًا لها، واختلفوا في صفة من تجب لهم النفقة من الآباء والأمهات، فقال الشافعي: إنما يجب ذلك للأب الفقير الزَّمِن، فإن كان له مال أو كان صحيح البدن غير زمن، فلا نفقة له عليه، وقال سائر الفقهاء: نفقة الوالدين واجبة على الولد، ولا أعلم أحدًا منهم اشترط فيه الزمانة، كما اشترطها الشافعي»[٣].

* **عن عائشة قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار»[٤].**

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «إنما سماه ابتلاء لأن الناس يكرهونهن في العادة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾[٥]»[٦].

قال ابن بطال: «فيه دليل أن أجر القيام على البنات أعظم من أجر القيام على البنين، إذ لم يذكر ﷺ مثلا في القيام على البنين، وذلك والله أعلم من أجل أن مؤنة البنات، والاهتمام بأمورهن أعظم من أمور البنين؛ لأنهن عذرات لا يباشرن أمورهن، ولا يتصرفن تصرف البنين»[٧].

---

(١) معالم السنن (٣/ ١٤١). (٢) الإحسان (٢/ ١٤٣).

(٣) معالم السنن (٣/ ١٤١).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣). والبخاري (٣/ ٣٦١/ ١٤١٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٧/ ٢٦٢٩[١٤٧])، والترمذي (٤/ ٢٨٢/ ١٩١٥)، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢١٠/ ٣٦٦٨)، بغير هذا السياق.

(٥) النحل: الآية (٥٨). (٦) شرح مسلم (١٦/ ١٤٧).

(٧) شرح البخاري (٩/ ٢١٣).

قال الحافظ: «في الحديث تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالبا عن القيام بمصالح أنفسهن، بخلاف الذكور لما فيهم من قوة البدن، وجزالة الرأي، وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال»[١].

* عن أنس ﷺ قال: بلغ عبد اللّه بن سلام مقدم رسول اللّه ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله، فقال رسول اللّه ﷺ: **«خبرني بهن آنفا جبريل»**، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول اللّه ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها»**، قال: أشهد أنك رسول الله[٢].

* عن عائشة أن امرأة قالت للنبي ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟ فقال: **«نعم»**. فقالت لها عائشة: تربت يداك، فقال النبي ﷺ: **«دعيها وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك؟ إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهه»**[٣].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «وقد بنى القاضي أبو بكر ابن العربي على اختلاف هذه الأحاديث فقال: إن للماءين أربعة أحوال:

الأول: أن يخرج ماء الرجل أولا.

والثاني: أن يخرج ماء المرأة أولا.

والثالث: أن يخرج ماء الرجل أولا ويكون أكثر.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٨)، والبخاري (٦/ ٤٤٧/ ٣٣٢٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٦-٢٨٧/ ١٠٩٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٩٢) واللفظ له، ومسلم (١/ ٢٥١/ ٣١٤[٣٣])، وأبو داود (١/ ١٦٢-١٦٤/ ٢٣٧)، والنسائي (١/ ١٢١-١٢٢/ ١٩٦)، كلهم من حديث عائشة ﷺ.

والرابع: أن يخرج ماء المرأة أولا ويكون أكثر.

ويتم التقسيم: بأن يخرج ماء الرجل أولا، ثم يخرج ماء المرأة بعده، فيكون أكثر، أو بالعكس، وبالعكس فإذا خرج ماء الرجل أولا وكان أكثر، جاء الولد ذكرا بحكم السبق، وأشبه الولد أعمامه بحكم الكثرة، وإن خرج ماء المرأة أولا وكان أكثر، جاء الولد أنثى، بحكم السبق، وأشبه أخواله بحكم الغلبة، وإن خرج ماء الرجل أولا لكن لما خرج ماء المرأة بعده كان أكثر؛ كان الولد ذكرا بحكم السبق، وأشبه أخواله بحكم غلبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل. وقال: وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن هذه الأحاديث»[1].

قال الحافظ: «وينقسم ذلك ستة أقسام: الأول: أن يسبق ماء الرجل ويكون أكثر فيحصل له الذكورة والشبه، والثاني: عكسه، والثالث: أن يسبق ماء الرجل ويكون ماء المرأة أكثر فتحصل الذكورة والشبه للمرأة، والرابع: عكسه، والخامس: أن يسبق ماء الرجل ويستويان فيذكر ولا يختص بشبه، والسادس: عكسه»[2].

قال ابن القيم: «ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهلة من الطبائعيين في سبب الإذكار والإيناث، وإحالة ذلك على الأمور الطبيعية التي لا تكاد تصدق في هذا الموضع إلا اتفاقا، وكذبها أكثر من صدقها، وليس استناد الإذكار والإيناث إلا على محض المرسوم الإلهي الذي يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول: **«يا رب ذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، فما الرزق فما الأجل، فيوحي ربك ما يشاء ويكتب الملك»** فإذا كان للطبيعة تأثيرا في الإذكار والإيناث فلها تأثير في الرزق والأجل، والشقاوة والسعادة، وإلا فلا، إذ مخرج الجميع ما يوحيه الله إلى الملك، ونحن لا ننكر أن لذلك أسبابا أخر، ولكن تلك من الأسباب التي استأثر الله بها دون البشر، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال:

---

(١) المفهم (١/ ٥٧٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٤٨).

إحداها: من تلد الإناث فقط.

الثانية: من تلد الذكور فقط.

الثالثة: من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا، أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرا أو أنثى.

الرابعة: العقيم التي لا تلد أصلا، ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر، ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي، ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول اللّه، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول اللّه ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**، **قال اليهودي**: **جئت أسألك**، **فقال رسول اللّه** ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك؟**»، قال: أسمع بأذني، فنكت رسول اللّه ﷺ بعود معه فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**». قال: فمن أول الناس إجازة؟. قال: «**فقراء المهاجرين**» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: «**زيادة كبد النون**» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين تسمى سلسبيلا**» قال: صدقت. وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «**ينفعك إن حدثتك؟**» قال أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة ذكر بإذن اللّه، وإن علا مني المرأة مني الرجل أنثى بإذن اللّه**»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف فقال رسول اللّه ﷺ: «**لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه، ومالي علم به حتى أتاني اللّه به**»[(١)]»[(٢)].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٣١٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٨٧-١٩١).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحيا يوحي الله إليه كيف شاء، أو إلهاما وإما غيره ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولا إما جبرائيل، وإما غيره ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء؛ يعني: ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي»[1].

قال السعدي: «لما قال المكذبون لرسل الله الكافرون بالله ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾[2] من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وبين أن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ وَحْيًا بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاها.

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاها، لكن ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كليم الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، فـ ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى علي الذات، علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٥).

(٢) البقرة: الآية (١١٨).

المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الوحي وأنواعه

* عن عائشة: «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم، وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[٢].

★ **غريب الحديث:**

الوحي: الإعلام في خفاء، وفي اصطلاح الشرع: إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام أو إلهام، وقد يجيء بمعنى الأمر، نحو: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[٣] وبمعنى التسخير، نحو: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[٤] أي: سخرها لهذا الفعل، وهو اتخاذها من الجبال بيوتًا، إلخ.. وقد يعبر عن ذلك بالإلهام، لكن المراد به هدايتها لذلك، وإلا فالإلهام حقيقة إنما يكون لعاقل. والإشارة، نحو: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٥] وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة، من إطلاق المصدر على المفعول، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[٦]. قال في النهاية: يقع الوحي على الكتابة والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، يقال: وحيتُ إليه الكلامَ وأوحيتُ[٧].

صلصلة: الصلصلة بمهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين، وقيل: هو صوت متدارك لا يدرك من أول وهلة[٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٨)، والبخاري (١/ ٢٣-٢٤/ ٢)، ومسلم (٤/ ١٨١٦-١٨١٧/ ٢٣٣٣)، والترمذي (٥/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٣٦٣٤)، والنسائي (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٩٣٣).

(٣) المائدة: الآية (١١١).

(٤) النحل: الآية (٦٨).

(٥) مريم: الآية (١١).

(٦) النجم: الآية (٤).

(٧) تحفة الأحوذي (١٠/ ٧٨).

(٨) الفتح (١/ ٢٦).

فيفصم: بفتح أوله وسكون الفاء وكسر المهملة: أي: يقلع ويتجلى ما يغشاني[١].

ليتفصد: الفصد: هو قطع العرق لإسالة الدم، شُبّه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «وهو أشده علي» يفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها، وهو واضح؛ لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود، والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية، وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني، والأول أشد بلا شك، وقال شيخنا شيخ الإسلام البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به.. وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات»[٣].

وقال أيضًا: «وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر»[٤].

وقال أيضًا: «وفي قولها: «في اليوم الشديد البرد» دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ زائد على الطباع البشرية»[٥].

قال القسطلاني: «وإنما كان ذلك كذلك ليبلو صبره فيرتاض لاحتمال ما كُلِّفه من أعباء النبوة»[٦].

قال النووي: «قال العلماء: ذكر في هذا الحديث حالين من أحوال الوحي، وهما مثل صلصلة الجرس، وتمثل الملك رجلًا، ولم يذكر الرؤيا في النوم، وهي من الوحي؛ لأن مقصود السائل بيان ما يختص به النبي ﷺ ويخفى فلا يعرف إلا من

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٧).
(٢) الفتح (١/ ٢٨).
(٣) فتح الباري (١/ ٢٦-٢٧).
(٤) فتح الباري (١/ ٢٧).
(٥) فتح الباري (١/ ٢٨).
(٦) إرشاد الساري (١/ ١٠٢).

جهته، وأما الرؤيا فمشتركة معروفة»[١].

* عن جابر بن عبد اللَّه يقول: «لقيني رسول اللَّه ﷺ فقال لي: **يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟** قلت: يا رسول اللَّه استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالًا ودينًا، قال: **أفلا أبشرك بما لقي اللَّه به أباك؟** قال: قلت: بلى يا رسول اللَّه. قال: **ما كلم اللَّه أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي! تمنّ علي أعطك، قال: يا رب! تحييني فأقتل فيك ثانية، فقال الرب ﷻ: إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون.** قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾[٢]»[٣].

⋆ **فوائد الحديث:**

في الحديث منقبة جليلة لوالد جابر رضي الله عنه، وهي تكليم اللَّه إياه كفاحًا، ولكن كما قال ابن كثير: «هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا»[٤].

تنبيه: تقدم هذا الحديث مع فوائده عند قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ يومًا: «**يا عائش! هذا جبريل يقرئك السلام**». فقلت: وعليه السلام ورحمة اللَّه وبركاته، ترى ما لا أرى. تريد رسول اللَّه ﷺ[٦].

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ٧٢).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٦١) مختصرا، والترمذي (٥/ ٢١٤-٢١٥/ ٣٠١٠) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ٩٣٦/ ٢٨٠٠)، والحاكم (٣/ ٢٠٣-٢٠٤) وصححه وسكت عنه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٥/ ٤٩٠-٤٩١/ ٧٠٢٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٠٤).

(٥) آل عمران: الآيتان (١٦٩-١٧٠).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٨)، والبخاري (٧/ ١٠٦/ ٣٧٦٨)، ومسلم (٤/ ١٨٩٥/ ٢٤٤٧)، وأبو داود (٥/ ٣٩٩/ ٥٢٣٢)، والترمذي (٥/ ٦٦٢/ ٣٨٨١)، والنسائي (٧/ ٨٠/ ٣٩٦٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٨/ ٣٦٩٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذه فضيلة عظيمة لعائشة، غير أن ما ذكر من تسليم اللَّه ﷻ على خديجة أعظم لأن ذلك سلام من اللَّه وهذا سلام من جبريل»(١).

قال ابن القيم رحمه اللَّه معددًا مراتب الوحي: «المرتبة الأولى: مرتبة تكليم اللَّه ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران، صلوات اللَّه وسلامه على نبينا وعليه. قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾(٢)، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذُكر في أول الآية. ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر كلم وهو التكليم رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم.. المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختصة بالأنبياء، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾(٣) وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ الآية، فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم. وجعله في آية (النساء) قسمًا للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.. المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه عن اللَّه ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم، ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلًا يراه عيانًا ويخاطبه، وقد يراه على صورته التي خلق عليها، وقد يدخل فيه الملك ويوحي إليه ما يوحيه ثم يفصم عنه؛ أي: يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكمل اللَّه له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

---

(١) المفهم (٦/ ٣٣٣).

(٢) النساء: الآية (١٦٤).

(٣) النساء: الآية (١٦٣).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٧-٣٩).

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»**[١].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له[٢]، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها[٣].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في النجم.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦-٢٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٧٩/ ٣٤٣٣٢)، وابن أبي الدنيا في القناعة (ص: ٣٨)، والحاكم (٢/ ٤)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٣-٣٠٥/ ٤٠١١و٤٠١٣)، وأخرجه من حديث جابر رضي الله عنه ابن ماجه (٢/ ٧٢٥/ ٢١٤٤)، وصححه الحاكم (٢/ ٤)، وابن حبان الإحسان (٨/ ٣٢/ ٣٢٣٩)، وانظر الصحيحة (٢٨٦٦).

(٢) كما في حديث عمر بن الخطاب في صحيح مسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وفيه: أن النبي ﷺ قال: «يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وفي مسند الإمام أحمد (٢/ ١٠٧)، وإملاء النسائي (ص: ٨٠)، وصححه الحافظ في الإصابة (٢/ ٣٨٥) عن ابن عمر قال: كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٠-١٩١)، والبخاري (٨/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٤٥٩٢)، وأبو داود (٣/ ٢٤-٢٥/ ٢٥٠٧)، والترمذي (٥/ ٢٢٦/ ٣٠٣٣)، والنسائي (٦/ ٣١٥-٣١٦/ ٣٠٩٩-٣١٠٠)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم اللَّه له كفاحا من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه -تبارك وتعالى-، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة؛ بل كلهم مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعا للصحابة»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٧٨-٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وكما كنا نوحي في سائر رسلنا كذلك أوحينا إليه يا محمد هذا القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ يقول: وحيا ورحمة من أمرنا»[٢].

قال السعدي: «﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير. وهو محض منة اللَّه على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم»[٣].

قال تقي الدين الهلالي: «أوحى اللَّه هذه الروح الذي هو القرآن به حياة من اتبعه، وبتركه موت من تركه، وقد بلغه النبي ﷺ إلينا بأقواله وأفعاله وأخلاقه، فقامت علينا حجة اللَّه وجعله نورا ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[٤] ومن لم يتبع القرآن والسنة فقد خرج عن صراط اللَّه وصار كل ما في السموات والأرض أعداء له، ولله جنود السموات والأرض»[٥].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٥٢).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٣٠-٦٣١).

(٤) المائدة: الآية (١٦).

(٥) سبيل الرشاد (٤/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: ما كنت تدري يا محمد أي شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعطيناكهما.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ يقول: ولكن جعلنا هذا القرآن، وهو الكتاب نورا، يعني ضياء للناس، يستضيئون بضوئه الذي بين الله فيه، وهو بيانه الذي بين فيه، مما لهم فيه في العمل به الرشاد، ومن النار النجاة ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول: نهدي بهذا القرآن، فالهاء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ من ذكر الكتاب.

ويعني بقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾: نسدد إلى سبيل الصواب، وذلك الإيمان بالله ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يقول: نهدي به من نشاء هدايته إلى الطريق المستقيم من عبادنا»[٢].

قال الشنقيطي: «يبين الله -جل وعلا- فيه مِنَّته على هذا النبي الكريم، بأنه علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك.

فقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾: أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم حتى علمتكه، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي حتى علمتكه.

ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد.

---

(١) الشورى (٥٢).

(٢) جامع البيان (٢٥/ ٤٦).

وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها: حديث وفد عبد القيس المشهور[١]، ومنها حديث: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»[٢] الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيمانًا، وحديث «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»[٣]، وفي بعض رواياته «**بضع وستون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**».

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة، ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في شعب الإيمان، فهو صلوات اللَّه وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها، ولا صوم رمضان، وما يجوز فيه وما لا يجوز، ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة، ولا ما تجب فيه، ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه، ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب اللَّه، جاء في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[٤] الآية. وقوله -جل وعلا-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾[٥].

فقوله في آية يوسف هذه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ كقوله هنا: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[٦] على

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٣٤/ ١٧٩٨) ومسلم (١/ ٤٦-٤٧/ ١٧) وأبو داود (٤/ ٩٤-٩٥/ ٣٦٩٢) والترمذي (٤/ ١٣٠/ ١٥٩٩) مختصرا دون ذكر موضع الشاهد، والنسائي (٨/ ٤٩٥-٤٩٦/ ٥٠٤٦) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨١) والبخاري (٤/ ٣١٤/ ٢٠٠٨) ومسلم (١/ ٥٢٣/ ٧٥٩) وأبو داود (٢/ ١٠٢-١٠٣/ ١٣٧١) والترمذي (٣/ ١٧١-١٧٢/ ٨٠٨) والنسائي (٤/ ٤٦٥/ ٢١٩٤) وابن ماجه (١/ ٤٢٠/ ١٣٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٤)، والبخاري (١/ ٧١/ ٩)، ومسلم (١/ ٦٣/ ٣٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥-٥٦/ ٤٦٧٦)، والترمذي (٥/ ٤١٢/ ٢٦١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٨٣-٤٨٤/ ٥٠١٩)، وابن ماجه (١/ ٢٢/ ٥٧).

(٤) النساء: الآية (١١٣).

(٥) يوسف: الآية (٣).

(٦) الضحى: الآية (٧).

أصح التفسيرات كما قدمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾[(١)] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾، الضمير في قوله: جعلناه راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نورًا نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

وسمي القرآن نورًا؛ لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾[(٥)].

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نورًا يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل، ويميز به بين الهدى والضلال، والحسن والقبيح.

فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويمتثل أوامره ويجتنب ما نهى عنه، ويعتبر بقصصه وأمثاله.

والسنة كلها داخلة في العمل به، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(٦)]»[(٧)].

قال السعدي: «﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾

---

(١) الشعراء: الآية (٢٠).
(٢) النساء: الآية (١٧٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٥٧).
(٤) المائدة: الآيتان (١٥-١٦).
(٥) التغابن: الآية (٨).
(٦) الحشر: الآية (٧).
(٧) أضواء البيان (٧/ ٢٠١).

أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية؛ بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم»[١].

قال ابن القيم: «سمى وحيه وأمره روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورا لما يحصل به من الهدى، واستنارة القلوب، والفرقان بين الحق والباطل، وقد اختلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ فقيل: يعود على الكتاب، وقيل: على الإيمان، والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحا ونورا وهدى، ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٣١).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٣١-٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، وهو الإسلام، طريق اللّٰه الذي دعا إليه عباده، الذي له ملك جميع ما في السموات وما في الأرض، لا شريك له في ذلك. والصراط الثاني: ترجمة عن الصراط الأول.

وقوله -جل ثناؤه-: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ألا إلى اللّٰه أيها الناس تصير أموركم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل.

فإن قال قائل: أو ليست أمورهم في الدنيا إليه؟ قيل: هي وإن كان إليه تدبير جميع ذلك، فإن لهم حكاما وولاة ينظرون بينهم، وليس لهم يوم القيامة حاكم ولا سلطان غيره، فلذلك قيل: إليه تصير الأمور هنالك وإن كانت الأمور كلها إليه وبيده قضاؤها وتدبيرها في كلّ حال»[1].

قال الرازي: «قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فبيّن تعالى أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، وبيّن أنه يهدي إلى صراط مستقيم، وبيّن أن ذلك الصراط هو ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نبّه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير اللّٰه.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وذلك كالوعيد والزجر، فبيّن أن أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى اللّٰه تعالى؛ أي: إلى حيث لا حاكم سواه فيجازي كلًا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٤٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ١٩٢).

قال الشنقيطي: «الصراط المستقيم قد بينه تعالى في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[1].. والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والمستقيم. الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ . ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله، أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره. جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝١٠٩ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات»[4].

* * *

---

(١) الفاتحة: الآيتان (٦-٧).

(٢) هود: الآية (١٢٣).

(٣) آل عمران: الآيتان (١٠٩-١١٠).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٢٠٣-٢٠٤).



سورة الزخرف

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أعظم ما اشتملت عليه هذه السورة من الأغراض: التحدي بإعجاز القرآن؛ لأنه آية صدق الرسول ﷺ فيما جاء به والتنويه به عدة مرات، وأنه أوحى اللَّه به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم، وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم.

وإذ قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن اللَّه خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها. وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم.

وجعلوا بنات لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدرا من الذكور، فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.

وإبطال عبادة كل ما دون اللَّه على تفاوت درجات المعبودين في الشرف، فإنهم سواء في عدم الأهلية للألوهية ولبنوة اللَّه تعالى.

وعرج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفه تخيلاتهم وترهاتهم.

وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذرهم من الاغترار بإمهال اللَّه، وخص رسالة إبراهيم وموسى وعيسى ﷺ، وخص إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه، وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم،

لاعتقادهم أنهم في مأمن بعد الموت.

وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع، وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضتها البلاغة، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه. وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمثل والقوارع، والترغيب والترهيب شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم.

وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير، وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى اللّٰه تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٥٨-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قسم من اللَّه تعالى أقسم بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ لمن تدبَّره وفكَّر في عبره وعظاته وهداه ورشده وأدلته على حقيته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، لا اختلاق من محمد ﷺ ولا افتراء من أحد ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يقول: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا بلسان العرب، إذا كنتم أيها المنذرون به من رهط محمد ﷺ عربًا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يقول: لتعقلوا معانيه وما فيه من مواعظ، ولم ينزله بلسان العجم، فيجعله أعجميا، فتقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه معانيه»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحًا واضحًا، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[2]»[3].

وقال أبو السعود: «أي: جعلنَا ذلكَ الكتاب قُرآنًا عربيًا لكي تفهمُوه وتحيطُوا بما فيهِ من النظمِ الرائقِ والمَعْنى الفائقِ، وتقفُوا على ما يتضمنُّه من الشواهدِ الناطقةِ بخروجِه عن طَوقِ البشرِ، وتعرفُوا حقَّ النعمةِ في ذلك، وتنقطعَ أعذارُكم بالكليةِ»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٤٧و٤٨).
(٢) الشعراء: الآية (١٩٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٦).
(٤) تفسير أبي السعود (٨ / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا الكتاب أصل الكتاب الذي منه نسخ هذا الكتاب عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾: يقول: لذو علوّ ورفعة، حكيم: قد أحكمت آياته، ثم فصلت فهو ذو حكمة»[١].

وقال أبو حيان: «و﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اللوح المحفوظ؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، وهذا فيه تشريف للقرآن، وترفيع بكونه لديه عليًا على جميع الكتب، وعاليًا عن وجوه الفساد حكيمًا: أي: حاكمًا على سائر الكتب، أو محكمًا بكونه في غاية البلاغة والفصاحة وصحة المعاني.

قال قتادة وعكرمة والسدي: اللوح المحفوظ: القرآن فيه بأجمعه منسوخ، ومنه كان جبريل ينزل. وقيل: ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الآيات المحكمات، لقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] ومعناه: أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم. وهُما خبرانِ لإنَّ، وما بينهُمَا بيانٌ لمحلِّ الحكم، كأنَّه قيلَ بعدَ بيانِ اتصافِه بما ذُكِرَ منَ الوصفينِ الجليلينِ: هذا في أمِّ الكتابِ ولدينَا. والجملةُ إمَّا عطفٌ على الجملةِ المقسمِ عليها، داخلةٌ في حُكمها، ففي الإقسامِ بالقرآنِ على علوِّ قدرِه عندَهُ تعالَى براعةٌ بديعةٌ، وإيذانٌ بأنَّه من عُلُو الشأنِ بحيثُ لا يحتاجُ في بيانِه إلى الاستشهادِ عليهِ بالإقسامِ بغيرِهِ؛ بل هُو بذاتِه كافٍ في الشهادةِ على ذلكَ من حيثُ الإقسامُ بهِ، كَما أنَّه كافٍ فيها من حيثُ إعجازُه ورمزٌ إلى أنَّه لا يخطرُ بالبالِ

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٤٨).
(٢) آل عمران: الآية (٧).
(٣) البحر المحيط (٨ / ٧).

عند ذكرِه شيءٌ آخرُ منه بالإقسامِ به. وإمَّا مستأنفةٌ مقررةٌ لعلوِّ شأنِه الذي أنبأَ عنه الإقسامُ به على منهاجِ الاعتراضِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم بريء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾[3] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[4]؛ ولهذا استنبط العلماء رحمهم الله من هاتين الآيتين: أن المُحدِثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى؛ لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾»[5].

وقال ابن القيم: «قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقري عندنا. قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله، والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾[6]، وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب

---

(١) الواقعة: الآية (٧٦).

(٢) تفسير أبي السعود (٨ / ٣٩).

(٣) الواقعة: الآيات (٧٧-٨٠).

(٤) عبس: الآيات (١١-١٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٦و٢١٧).

(٦) البروج: الآيتان (٢١و٢٢).

ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب، وقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب؛ أي: أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس، ويجوز أن يكون من صلة الخبر، أنه علي حكيم عندنا ليس هو كما عند المكذبين به؛ أي: وإن كذبتم به، وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام»[1].

* * *

(١) شفاء العليل (١ / ١٢٠و١٢١).

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

صفحا: إعراضًا، يقال: صفحت عن فلان: إذا أعرضت عن ذنبه.

مسرفين: الإسراف: مجاوزة الحد في سائر الأفعال. والمسرفون: هم المتجاوزون حدود اللَّه من أوامره ونواهيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدي، واختاره ابن جرير.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ واللَّه لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن اللَّه عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء اللَّه من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم -وهو القرآن- وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي به من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته»[1].

وقال أبو السعود: «أفننحيهِ عنكُم جانبًا ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ أي: لأنْ كنتُم منهمكينَ في الإسرافِ، مصرِّينَ عليهِ عَلى مَعْنى أنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تخليتَكُم وشأنَكُم حتَّى تموتُوا على الكفرِ والضلالةِ، وتبقوا في العذابِ الخالدِ، لكنا لسعةِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٧).

رحمتِنا لا نفعلُ ذلكَ؛ بلْ نهديكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرسولِ الأمينِ، وإنزالِ الكتابِ المبينِ»[١].

وقال شيخ الإسلام: «﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ وهذا استفهام إنكار؛ أي: لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر، ونعرض عن إرسال الرسل ومن كره إرسالهم، فإن الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمن بغضهم، وكراهة ما جاؤوا به، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾[٢] وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾[٣]. وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن من ظن أن اللَّه لا يرسل إليه رسولا، وأنه يترك سدى مهملا لا يؤمر ولا ينهى، فهذا أيضًا مما ذمه اللَّه، إذ كان لابد من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه أيضًا لابد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة. ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝٢٨﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨٦﴾[٦] وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾[٧] وقال عن أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾[٨] ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي والثواب والعقاب والمعاد مما لابد منه، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع. وهذا متفق عليه بين أهل

---

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٤٠).
(٢) محمد: الآية (٩).
(٣) غافر: الآية (٣٤).
(٤) ص: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٥) المؤمنون: الآية (١١٥).
(٦) الحجر: الآيتان (٨٥و٨٦).
(٧) الجاثية: الآية (٢٢).
(٨) آل عمران: الآية (١٩١).

الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر، فإن اللَّه أخبر بذلك، وخبره صدق، فلابد من وقوع مخبره، وهو واجب بحكم وعده وخبره، فإنه إذا علم أن ذلك سيكون، وأخبر أنه سيكون، فلابد أن يكون، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه، وأخبر به وكتبه وقدره. وأيضًا فإنه قد شاء ذلك، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا بد أن يقع كل ما شاءه»[1].

وقال ابن القيم: «أي: نترككم فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. وتأمل لطف خطاب نذر الجن لقومهم وقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]»[3].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦ / ٤٩٥-٤٩٧).
(٢) الأحقاف: الآية (٣١).
(٣) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

بطشا: قوة.

مثل: المثل: الخبر والوصف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال -جل وعلا- مسلّيًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي: في شيع الأولين، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝﴾ أي: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾[1] والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم؛ أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ۝﴾[2]. وكقوله جلت عظمته: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾[3] وقال ﷻ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[4]»[5].

---

(١) غافر: الآية (٨٢).
(٢) الزخرف: الآية (٥٦).
(٣) غافر: الآية (٨٥).
(٤) الأحزاب: الآية (٦٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٧).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾ يا محمد في القرون الأولين الذين مضوا قبل قرنك الذي بعثت فيه، كما أرسلناك في قومك من قريش. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ يقول: وما كان يأتي قرنا من أولئك القرون، وأمة من أولئك الأمم الأولين لنا من نبيّ يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق، إلا كان الذين يأتيهم ذلك من تلك الأمم نبيهم الذي أرسله إليهم يستهزئون سخرية منهم بهم كاستهزاء قومك بك يا محمد.

يقول: فلا يعظمن عليك ما يفعل بك قومك، ولا يشقنّ عليك، فإنهم إنما سلكوا في استهزائهم بك مسلك أسلافهم، ومنهاج أئمتهم الماضين من أهل الكفر بالله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأهلكنا أشدّ من هؤلاء المستهزئين بأنبيائهم بطشا إذا بطشوا فلم يعجزونا بقواهم وشدة بطشهم، ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا إذ أتاهم، فالذين هم أضعف منهم قوة أحرى أن لا يقدروا على الامتناع من نقمنا إذا حلّت بهم.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ومضى لهؤلاء المشركين المستهزئين بك ولمن قبلهم من ضربائهم مثلنا الذي مثلناه لهم في أمثالهم من مكذّبي رسلنا الذين أهلكناهم، يقول: فليتوقع هؤلاء الذين يستهزئون بك يا محمد من عقوبتنا مثل الذي أحللناه بأولئك الذين أقاموا على تكذيبك»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ (كم) هنا خبرية، والمراد بها التكثير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾[2] أي: ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: لم يكن يأتيهم نبي ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك. يعزي نبيه محمدا ﷺ ويسليه. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوما أشد منهم قوة. ؛ أي: فقد أهلكنا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتهم»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥١).
(٢) الدخان: الآية (٢٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٦٣و٦٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الضمير في قوله: ﴿مِّنْهُم﴾ عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾[1]، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة.. والمعنى: فأهلكنا قومًا أشد بطشًا من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تكذيبهم رسلهم، فليحذر الكفار الذين كذبوك أن نهلكهم بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بطشًا؛ أي: أكثر منهم عَددًا وعُددًا وجلدًا. فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: صفتهم التي هي إهلاكهم المستأصل، بسبب تكذيبهم الرسل. وقول من قال: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتهم وسنتهم راجع في المعنى إلى ذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمدًا ﷺ، بأن اللَّه أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] الآية. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[4] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[6].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمدًا ﷺ بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التي

---

(١) الزخرف: الآية (٥).
(٢) الروم: الآية (٩).
(٣) غافر: الآية (٨٢).
(٤) الأنعام: الآية (٦).
(٥) سبأ: الآية (٤٥).
(٦) فاطر: الآية (٤٤).

هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] الآية. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[4]»[5].

قال الرازي: «والمعنى: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يعني: أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشًا من قريش يعني أكثر عددًا وجلدًا، ثم قال: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمعنى: أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم، فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾[6] وكقوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[7]، والله أعلم»[8].

* * *

(١) فاطر: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٢) غافر: الآيات (٨٣-٨٥).
(٣) الكهف: الآية (٥٥).
(٤) الزخرف: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٥) أضواء البيان (٧ / ٢٠٧-٢٠٩).
(٦) الفرقان: الآية (٣٩).
(٧) إبراهيم: الآية (٤٥).
(٨) التفسير الكبير (٢٧ / ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

مهدًا: فراشًا وبساطًا.

سبلًا: طرقًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك: من خلق السموات السبع والأرضين، فأحدثهن وأنشأهن؟ ليقولنّ: خلقهنّ العزيز في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليم بهن وما فيهنّ من الأشياء، لا يخفى عليه شيء.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ يقول: الذي مهد لكم الأرض، فجعلها لكم وطاءً تطأونها بأقدامكم، وتمشون عليها بأرجلكم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يقول: وسهل لكم فيها طرقًا تتطرّقونها من بلدة إلى بلدة، لمعايشكم ومتاجركم»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ولئن سألت -يا محمد- هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشًا قرارًا ثابتة، تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتنصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٢).

بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقًا بين الجبال والأودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم»[1].

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية ابتداء احتجاج على قريش يوجب عليهم التناقض في أمرهم، وذلك أنهم يقرون أن الخالق الموجد لهم وللسموات والأرض هو اللَّه تعالى، وهم مع ذلك يعبدون أصنامًا ويدعونها آلهتهم، ومقتضى جواب قريش أن يقولوا «خلقهن الله» فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن اللَّه بـ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش»[2].

وقال أبو حيان: «الظاهر أن: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ نفس المحكي من كلامهم، ولا يدل كونهم ذكروا في مكان خلقهن اللَّه، أن لا يقولوا في سؤال آخر: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . و﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ : من كلام اللَّه، خطابًا لهم بتذكير نعمه السابقة. وكرر الفعل في الجواب في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، مبالغة في التوكيد. وفي غير ما سؤال اقتصروا على ذكر اسم اللَّه، إذ هو العلم الجامع للصفات العلا، وجاء الجواب مطابقًا للسؤال من حيث المعنى، لا من حيث اللفظ؛ لأن من مبتدأ. فلو طابق في اللفظ كان بالاسم مبتدأ، ولم يكن بالفعل. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ : أي: إلى مقاصدكم في السفر، أو تهتدون بالنظر والاعتبار»[3].

وقال الشنقيطي: «وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه جعل الأرض لبني آدم مهدًا؛ أي: فراشًا، وأنه جعل لهم فيها سبلًا؛ أي: طرقًا ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل الأرض فراشًا لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق، لينفذوا من قطر إلى قطر، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾[4] وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٨).
(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٤٦).
(٣) البحر المحيط (٨ / ٨).
(٤) نوح: الآيتان (١٩-٢٠).

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[١].

وذكر كون الأرض فراشًا لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[٤] الآية. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (النحل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[٥]»[٦].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن المشركين أنك لو ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ اللَّه وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!

ثم ذكر أيضًا من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قرارا للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم أيضًا تهتدون في الاعتبار بذلك والادكار فيه»[٧].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٣١).
(٢) الذاريات: الآية (٤٨).
(٣) البقرة: الآية (٢٢).
(٤) غافر: الآية (٦٤).
(٥) النحل: الآية (١٥).
(٦) أضواء البيان (٧ / ٢١٠).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٣٤و٦٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنشرنا: أحييناها من بعد موتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني: ما نزل -جل ثناؤه- من الأمطار من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ يقول: بمقدار حاجتكم إليه، فلم يجعله كالطوفان، فيكون عذابا كالذي أنزل على قوم نوح، ولا جعله قليلا لا ينبت به النبات والزرع من قلته، ولكنه جعله غيثا مغيثا، وحيًا للأرض الميتة محييا. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يقول -جل ثناؤه-: فأحيينا به بلدة من بلادكم ميتا، يعني مجدبة لا نبات بها ولا زرع، قد درست من الجدوب، وتعفنت من القحوط ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها وقحوطها النبات والزرع، كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتًا بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي كنتم بها قبل مماتكم»[١].

وقال القرطبي: «قال ابن عباس: أي: لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم؛ بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشا لكم ولأنعامكم.

﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أحيينا. ﴿بِهِ﴾ أي: بالماء. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: مقفرة من النبات. ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: من قبوركم، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٦٤و٦٥).

وقال ابن عاشور: «انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تُنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

وأعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتمامًا يجعلها مستقلة، فلا يخطر حضورها بالبال عند حظور الصلتين اللتين قبلها، فلا جامع بينها وبينهما في الجامع الخيالي»[1].

وقال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ جاء موضحًا في آيات كثيرة قد قدمناها في سورة (البقرة) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[2] مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضًا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾[3]، وفي غير ذلك من المواضع..

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بِقَدَرٍ﴾. قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء. وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جدًّا فيكون طوفانًا فيهلكهم، ولم يجعله قليلًا دون قدر الكفاية؛ بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[5]»[6].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٧٠و١٧١).
(٢) البقرة: الآية (٢٢).
(٣) النحل: الآية (١٠).
(٤) المؤمنون: الآية (١٨).
(٥) الحجر: الآيتان (٢١و٢٢).
(٦) الأضواء (٧ / ٢١٠و٢١١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

الفلك: السفينة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك أي من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها، وركوبكم ظهورها»[1].

وقال أبو حيان: «و﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: الأنواع من كل شيء. قيل: وكل ما سوى الله فهو زوج، كفوق وتحت، ويمين وشمال، وقدام وخلف، وماض ومستقبل، وذوات وصفات، وصيف وشتاء، وربيع وخريف؛ وكونها أزواجًا تدل على أنها ممكنة الوجود، ويدل على أن محدثها فرد، وهو الله المنزه عن الضد والمقابل والمعارض»[2].

وقال ابن عاشور: «ولما كان المتبادرُ من الأزواج بادئ النظر أزواجَ الأنعام، وكان من أهمها عندهم الرواحل، عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برًّا، وأدمج معها وسائل السفر بحرًا. فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فالمراد بـ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ بالنسبة إلى الأنعام هو الإبل؛ لأنها وسيلة الأسفار قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3] وقد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٨).

(٢) البحر المحيط (٨ / ٨و٩).

(٣) يس: الآيتان (٤١و٤٢).

قالوا: الإبلُ سفائن البر»[١].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: والله الذي خلق الأزواج. قال سعيد بن جبير: أي الأصناف كلها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسموات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى، قاله ابن عيسى. وقيل: أراد أزواج النبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٢] و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[٣].

وقيل ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر، وإيمان وكفر، ونفع وضر، وفقر وغنى، وصحة وسقم.

قلت: وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه»[٤].

وقال الشنقيطي: «وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله. قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٧] أي: من كل صنف حسن من أصناف النبات. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[٨]. ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾[٩]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[١٠]»[١١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٧٢).
(٢) ق: الآية (٧).
(٣) لقمان: الآية (١٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٦٥).
(٥) يس: الآية (٣٦).
(٦) طه: الآية (٥٣).
(٧) الحج: الآية (٥).
(٨) لقمان: الآية (١٠).
(٩) ص: الآية (٥٨).
(١٠) طه: الآية (١٣١).
(١١) أضواء البيان (٧ / ٢١١و٢١٢).

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

منقلبون: راجعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1] وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾[2]»[3].

وقال القرطبي: «﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذكَّر الكناية لأنه رده إلى ما في قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، قاله أبو عبيد. وقال الفراء: أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند، فلذلك ذكَّر، وجمع الظهور، أي على ظهور هذا الجنس.

---

(١) البقرة: الآية (١٩٧).

(٢) الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢١٨و٢١٩).

قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها، وهو الصحيح لقوله ﷺ: «**بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث**» فقال النبي ﷺ: «**آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر وما هما في القوم**»[١]. وقد مضى هذا في أول سورة (النحل) مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا. ولأن الفلك إنما تركب بطونها، ولكنه ذكرهما جميعًا في أول الآية وعطف آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرها باطنها؛ لأن الماء غمره وستره وباطنها ظاهرا، لأنه انكشف للظاهرين وظهر للمبصرين»[٢].

وقال ابن عاشور: «وقد جُعل قوله: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ توطئة وتمهيدًا للإشارةِ إلى ذكر نعمة اللَّه في قوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: حينئذٍ، فإن ذكر النعمة في حال التلبّس بمنافعها أوقع في النفس وأدعَى للشكر عليها. وأجدر بعدم الذهول عنها؛ أي: جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكر بالفكر لا الذكر باللسان.

وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلبوا في نعم اللَّه وشكروا غيره، إذ اتخذوا له شركاء في الإلهية، وهم لم يشاركوه في الإنعام. وذكْرُ النعمة كناية عن شكرها؛ لأن شكر المنعِم لازم للإنعام عرفًا، فلا يَصرف عنه إلاّ نسيانُه فإذا ذكره شكر النعمة.

وعطف على ﴿تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ قوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ أي: لتشكروا اللَّه في نفوسكم وتُعلِنوا بالشكر بألسنتكم، فلقنهم صيغةَ شكر عناية به، كما لقّنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة وصيغةَ الدعاء في آخر سورة البقرة.

وافتتح هذا الشكر اللّساني بالتسبيح؛ لأنه جامع للثناء إذ التسبيح تنزيه اللَّه عما لا يليق، فهو يدلّ على التنزيه عن النقائص بالصريح، ويدلّ ضمنًا على إثبات الكمالات لله في المقام الخطابي. واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح حتى يصير الحمد الذي أفادهُ التسبيح شكرًا لتعليله بأنه في مقابلة التسخير لنا..

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٨٢)، والبخاري (٥ / ٩ / ٢٣٢٤)، ومسلم (٤ / ١٨٥٧-١٨٥٨ / ٢٣٨٨)، والترمذي (٥ / ٥٧٥ / ٣٦٧٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٦٥و٦٦).

وخُتم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأن مرجعنا إلى اللَّه؛ أي: بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث، وفيه تعريض بسؤال إرجاع المسافر إلى أهله، فإن الذي يقدر على إرجاع الأموات إلى الحياة بعد الموت يُرْجَى لإرجاع المسافر سالمًا إلى أهله.

والانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي يفارقه. والجملة معطوفة على جملة التنزيه عطف الخبر على الإنشاء. وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين على كفران نعمة اللَّه بالإشراك، وبنسبة العجز عن الإحياء بعد الموت؛ لأن المعنى: وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتشكروا بالقلب واللّسان فلم تفعلوا، ولملاحظة هذا المعنى أُكد الخبر. وفيه تعريض بالمؤمنين بأن يقولوا هذه المقالة كما شكروا لله ما سخر لهم من الفلك والأنعام. وفيه إشارة إلى أن حق المؤمن أن يكون في أحواله كلها ملاحظًا للحقائق العالية، ناظرًا لتقلبات الحياة نظر الحكماء الذين يستدلون ببسائط الأمور على عظيمها»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ يعني -جل وعلا- أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ﴿لِتَسْتَوُۥا۟﴾ أي: يرتفعوا معتدلين على ظهوره، ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات، ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ قد قدمنا في أول سورة (بني إسرائيل) معناه بإيضاح، وأنه يدل على تنزيه اللَّه -جل وعلا- أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾ راجعة إلى لفظ ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وجمع الظهور نظرًا إلى معنى ﴿مَا﴾؛ لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن؛ لأن الأنعام لو لم يذللها اللَّه لهم لما قدروا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذلّله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٧٤-١٧٦).

لما قدروا على شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين. والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقًا له كفؤًا للقيام به، من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في حبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها فتجرها؛ لأن الضعيف إذا لز في القرن أي: الحبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته..

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذلّله اللَّه لهم لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبينًا في آيات أخر. قال تعالى في ركوب الفلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[2] الآية. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3] الآية. وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[4] الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[5] الآية. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[6] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[7] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات»[9].

---

(١) يس: الآيتان (٤١و٤٢).

(٢) النحل: الآية (١٤).

(٣) الجاثية: الآية (١٢).

(٤) إبراهيم: الآية (٣٢).

(٥) البقرة: الآية (١٦٤).

(٦) الحج: الآية (٦٥).

(٧) يس: الآية (٧٢).

(٨) الحج: الآيتان (٣٦و٣٧).

(٩) أضواء البيان (٧/ ٢١٢-٢١٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء السفر والركوب وما في معنى ذلك

* عن ابن عمر ﭬ أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، كبر ثلاثا ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في المال والأهل، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: «آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»[(١)].

* عن علي بن ربيعة قال: «شهدت عليًّا ﭬ وأتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم اللَّه، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. ثم قال: الحمد ثلاث مرات، ثم قال: اللَّه أكبر، ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك فقيل: يا أمير المؤمنين، من أيّ شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك، فقلت يا رسول اللَّه، من أيّ شيء ضحكت؟ قال: إن ربك يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري»[(٢)].

★ **غريب الحديثين:**

مقرنين: أي مطيقين، واشتقاقه من قولك: أنا لفلان مقرن؛ أي: مطيق.

وعثاء السفر: أي شدته ومشقته. وأصله الوعث، وهو الرمل، والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ١٥٠)، ومسلم (٢ / ٩٧٨ / ١٣٤٢) واللفظ له، وأبو داود (٣ / ٧٥ / ٢٥٩٩)، والترمذي (٥ / ٤٦٨ / ٣٤٤٧) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦ / ١٤١ / ١٠٣٨٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١ / ٩٧)، وأبو داود (٣ / ٧٧ / ٢٦٠٢) واللفظ له، والترمذي (٥ / ٤٦٧ / ٣٤٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥ / ٢٤٧ / ٨٧٩٩)، والحاكم (٢ / ٩٨-٩٩) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (٦ / ٤١٤ / ٢٦٩٧).

كآبة المنظر: تغير النفس بالانكسار من شدة الهم والحزن. يقال: كئب كآبة واكتأب، فهو كئيب ومكتئب. المعنى أنه يرجع من سفره بأمر يحزنه، إما أصابه في سفره، وإما قدم عليه مثل أن يعود غير مقضي الحاجة، أو أصابت ماله فاقة، أو يقدم على أهله فيجدهم مرضى، أو قد فقد بعضهم.

المنقلب: أي: الانقلاب من السفر، والعود إلى الوطن. يعني أنه يعود إلى بيته فيرى فيه ما يحزنه. والانقلاب: الرجوع مطلقا.

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن علان: «وكأن وجه مناسبة الإتيان بهذا الذكر وافتتاحه بـ(سبحان) الموضوعة للتنزيه، أن تسخير الدواب لنا نعمة عظيمة لا يقدر عليها غيره، فناسب شهود تنزيهه عن شريك حينئذ»[1].

قال المباكفوري: ««اللهم أنت الصاحب في السفر» أي: الحافظ والمعين، والصاحب في الأصل الملازم، والمراد مصاحبة اللّه إياه بالعناية والحفظ والرعاية، فنبه بهذا القول على الاعتماد عليه والاكتفاء به عن كل مصاحب سواه.

«والخليفة في الأهل»: الخليفة من يقوم مقام أحد في إصلاح أمره. قال التوربشتي: المعنى أنت الذي أرجوه وأعتمد عليه في سفري بأن يكون معيني وحافظي، وفي غيبتي عن أهلي أن تلم شعثهم، وتداوي سقمهم، وتحفظ عليهم دينهم وأمانتهم»[2].

قال النووي: «وفي هذا الحديث استحباب الذكر عند ابتداء الأسفار كلها»[3].

قال القرطبي: «علمنا اللّه سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾[4] فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا. فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور واتصالا بأسباب من

---

(١) الفتوحات (٥ / ١٢٦).
(٢) تحفة الأحوذي (٩ / ٢٨٠).
(٣) شرح مسلم (٩ / ٩٤).
(٤) هود: الآية (٤١).

أسباب التلف أمر ألا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى اللَّه ﷻ غير منفلت من قضائه. ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء اللَّه بإصلاحه من نفسه. والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم اللَّه وهو غافل عنه»[1].

وقال العيني: «إن اللَّه لما لقن عبده شكر ما أنعم به عليه من التسخير والتمليك، وأمره بالاعتراف لكونه قاصرا عن تسخير ما سخر له من مراكب البر والبحر؛ بل اللَّه بفضله ورحمته سخر له ذلك، وأعانه عليه، جعل من تمام شكره أن يتذكر عاقبة أمره، ويعلم أن استواءه على مركب الحياة كاستوائه على ظهر ما سخر له، لم يكن في المبدأ مطيقا له، ولا يجد في المنتهى بدا من النزول عنه، ثم ليتذكر بركوب مركب الأحياء، ومنه معدل ركوب مركب الأموات، ولا محيد عنه»[2].

* عن حمزة بن عمرو الأسلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**فوق ظهر كل بعير شيطان، وإذا ركبتموهن فاذكروا اسم اللَّه، لا تقصروا عن حاجة**»[3].

* عن أبي لاس الخزاعي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من بعير إلا على ذروته شيطان، فاذكروا اسم اللَّه عليه إذا ركبتموه كما أمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل اللَّه**»[4].

★ غريب الحديث:

الذروة: ذروة كل شيء أعلاه، والمراد هنا سنام البعير.

امتهنوهن: من المهنة أي استخدموهن بركوبكم وحمل أثقالكم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٤٥). (٢) العلم الهيب ص: (٤٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣ / ٤٩٤)، الدارمي (٢ / ٢٨٥-٢٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦ / ١٣٠ / ١٠٣٣٨)، الطبراني في الكبير (٣ / ١٧٦ / ٢٩٩٣)، وفي الأوسط (٢ / ٥٥١ / ١٩٤٥)، الحاكم (١ / ٤٤٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي واللفظ له. ابن حبان (الإحسان ٤ / ٦٠٢-٦٠٣ / ١٧٠٣) وصححه، وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٣١): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة.

(٤) أخرجه: أحمد (٤ / ٢٢١)، والبخاري تعليقا (٣ / ٤٢٢)، وابن خزيمة (٤ / ٧٣ / ٢٣٧٧) واللفظ له، الحاكم (١ / ٤٤٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. الطبراني في الكبير (٢٢ / ٣٣٤ / ٨٣٧-٨٣٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٣١): «رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع في أحدها».

★ **فوائد الأحاديث:**

قال المناوي: قال في البحر: «إن معناه أن الإبل خلقت من الجن، وإذا كانت من جنس الجن جاز كونها هي من مراكبها، والشيطان من الجن، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾[(١)] فهما من جنس واحد، ويجوز كون الخبر بمعنى العز والفخر والكبر والعجب لأنها من أجل أموال العرب، ومن كثرت عنده لم يؤمن عليه الإعجاب، والعجب سبب الكبر، وهو صفة الشيطان. فالمعنى: على ظهر كل بعير سبب يتولد منه الكبر»[(٢)].

قال أحمد عبد الرحمن البنا: «يحتمل إجراء اللفظ على حقيقته، فيكون على ظهر كل بعير شيطان حقيقة يحمله على النفور ليوقع الأذى بصاحبه الآدمي الذي هو عدو الشيطان، ويحتمل أن النفور والشر من طبع الإبل؛ فهي إذا نفرت صارت كأن على ظهرها شيطان»[(٣)].

وقال المناوي: «**فامتهنوهن بالركوب**» لتلين وتذل، وقد يكون بها نار من جهة الخلقة يطفئها الركوب لأن المؤمن إذا ركب حمد الله وسبحه قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فكأنه قال: سكنوا هذا الكبر بالركوب المقرون بذكر الله المنفر للشيطان «**فإنما يحمل الله تعالى**» يعني: كيف يعجب الإنسان بحملها والحامل هو الله، فمن تحقق يرى من العجب، فكيف يمكن ركوب الجن ومزاحمة الشيطان ومقاربة النار، لولا أن الله هو الذي يحمل بفضله فيطفئ النار ويسخر الجن ويقمع الشيطان، فسبحان المنعم المنان[(٤)].

وقال أحمد عبد الرحمن البنا: «يعني: لا يقعدنكم عن ركوبها واستخدامها في حوائجكم وجود الشيطان على ظهورها أو شدة نفورها، بل سموا الله ﷻ واستخدموها فالله تعالى يذللها وشيطانها ببركة اسمه ﷻ»[(٥)].

وقال عند قوله: «**فإنما يحمل الله** ﷻ»: «أي: يوجد لها قوة وصبرًا على حمل الأثقال، والله أعلم»[(٦)].

---

(١) الكهف: الآية (٥٠).
(٢) االفيض (٤ / ٣٢٢).
(٣) بلوغ الأماني (٥ / ٦٩).
(٤) الفيض (٤ / ٣٢٢).
(٥) بلوغ الأماني(٥ / ٦٩).
(٦) بلوغ الأماني (٥ / ٧٠).

* عن عبد اللّه بن مغفل قال: «رأيت رسول اللّه ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «إنما أراد بهذا الباب ليدل أن القراءة على الدابة سنة موجودة، وأصل هذه السنة في كتاب اللّه تعالى وهو قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾»[٢].

قال محمد بن قاسم جسوس: «في هذا الحديث جواز القراءة على الدابة خلافا لمن كرهه من السلف لما يقال: إنه يثقل على الدابة، أو لأنه لا يتمكن من القراءة على وجهها»[٣].

وقال المناوي: «فيه ملازمة المصطفى ﷺ للعبادة؛ لأنه حال ركوب الناقة وهو يسير لم يترك العبادة للتلاوة، وفي جهره رمز إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواطن أفضل من الإسرار، وهو عند التعظيم وإيقاظ الغافل ونحو ذلك»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥ / ٥٥)، والبخاري (٩ / ٨٣ / ٥٠٣٤)، ومسلم (١ / ٥٤٧ / ٧٩٤)، وأبو داود (٢ / ١٥٤ / ١٤٦٧)، والترمذي في الشمائل رقم (٣٢٦)، والنسائي في الكبرى (٥ / ٢٢ / ٨٠٥٥).

(٢) شرح البخاري (١٠ / ٢٦٨-٢٦٩).

(٣) الفوائد الجلية البهية على الشمائل المحمدية (ص: ٣٠٢).

(٤) هامش جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢ / ١١٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جزءًا: نصيبًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «عجَّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو اللَّه، ثم جعلوا له شريكًا أو ولدًا، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى، كما ذكر اللَّه ﷻ عنهم في سورة (الأنعام)، في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[٢]. وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[٣]. وقال -جل وعلا- ههنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾»[٤].

قال الشنقيطي: «الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا رَحِمَهُ اللَّهُ غير صواب في الآية. لأن المجعول لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث والأنعام، والمجعول له في آية الزخرف هذه جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام. وبين الأمرين فرق واضح كما ترى. وأن قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٦٩).
(٢) الأنعام: الآية (١٣٦).
(٣) النجم: الآيتان (٢١-٢٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢١).

العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضًا؛ لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب.

أما كون المراد بالجزء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية. وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين: أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مرادًا به البنات، ويقولون: أجزأت المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا ومنه قول الشاعر:

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانًا

وقول الآخر:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل

.. وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾. قال أبو إسحاق: يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات اللَّه تعالى وتقدس عما افتروا، قال: وقد أنشدت بيتًا يدل على أن معنى جزءًا معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع؟

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب

والمعنى في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: جعلوا نصيب اللَّه من الولد الإناث، قال: ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزأت المرأة ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة: زوجتها من بنات الأوس مجزئة انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان.

وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم: أجزأت المرأة إذا ولدت الإناث معروف، ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له.

والوجه الثاني: وهو التحقيق إن شاء اللَّه أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء، لأن الفرع كأنه جزء من أصله، والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة؛ لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه

الذي أنكره اللّه إنكارًا شديدًا، وقرع مرتكبه تقريعًا شديدًا في قوله تعالى بعده: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا للّه تعالى ولدا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، واللّه تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون للّه تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات اللّه، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من اللّه، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون للّه ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في وصفها، وفي منطقها وبيانها»[3].

* * *

---

(١) الزخرف: الآيات (١٦-١٨).

(٢) أضواء البيان (٧ / ٢١٥-٢١٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٣٧).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أصفاكم: اختار لكم، وآثركم بهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «عجب من إضافتهم إلى الله اختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين، وهو مقدس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه اتخذ لنفسه ولدا، فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين وله الأخس؟ وهذا كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «﴿أَمِ﴾ للإضراب وهو هنا انتقالي لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاص حقيقة الإلهية، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية. والكلام بعد ﴿أَمِ﴾ استفهام، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾. ومحل الاستدلال أن الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناءً إناثًا وهلَّا جعلوها ذكورًا. وليست لهم معذرة عن الفساد المنجرّ إلى معتقدهم بالطريقتين لأن الإبطال الأول نظري يقيني، والإبطال الثاني جدليّ بديهي قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾. فهذه حجة ناهضة عليهم لاشتهارها بينهم.

ولما ادَّعت سَجَاح بنتُ الحارث النبوءة في بني تميم أيام الردة، وكان قد ادّعى النبوءةَ قبلها مُسَيْلمةُ الحنفي، والأسود العَنْسي، وطُليحة بن خويلد الأسدي، قال عُطاردُ بن حاجب التميمي:

أضحت نبيئتُنا أنثى نُطيف بها وأصبحتْ أنبياء النّاس ذكرانا»[(٣)].

---

(١) النجم: الآيتان (٢١-٢٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٧٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٧٧و١٧٨).

قال الشنقيطي: «﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى استفهام الإنكار، فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات اللَّه أنكر اللَّه عليهم أشد الإنكار، موبخًا لهم أشد التوبيخ، حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى كما قال هنا: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهي النصيب الأدنى من الأولاد، وأصفاكم أنتم؛ أي: خصكم وآثركم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد.

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله هنا ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ يعني الأنثى، كما أوضحه بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾[1] يعني فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسودًا، يعني من الكآبة، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ حزنًا وغمًا، وكقوله تعالى هنا: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) النحل: الآية (٥٨).

(٢) الزخرف: الآية (١٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٢١٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾

★ **غريب الآية:**

مسودا: كناية عن شدة الحزن والغم.

كظيم: حزين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول -تبارك وتعالى-: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله ﷻ؟»[١].

قال ابن القيم: «احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتا، فكيف تجعلونها لي كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[٢]»[٣].

قال القرطبي: «ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله، لأن الولد من جنس الوالد وشبهه. ومن اسود وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضى، أولى من أن يسود وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه، فكيف إلى الله ﷻ!»[٤].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢١).

(٢) النحل: الآية (٦٢).

(٣) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٨٣و٤٨٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٧١).

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾

★ **غريب الآية:**

ينشأ: يربى ويشب، والنشوء التربية، يقال: نشأت في بني فلان: إذا شببت فيهم، ونشئ وأنشئ بمعنى واحد.

الحلية: الزينة.

الخصام: المجادلة والحجاج.

غير مبين: غير مفهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أو من ينبت في الحلية ويزين بها ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾ يقول: وهو في مخاصمة من خاصمه عند الخصام غير مبين، ومن خصمه ببرهان وحجة، لعجزه وضعفه، جعلتموه جزء اللَّه من خلقه وزعمتم أنه نصيبه منهم»[1].

قال الرازي: «المراد من قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ التنبيه على نقصانها، وهو أن الذي يربى في الحلية يكون ناقص الذات؛ لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية، ثم بيّن نقصان حالها بطريق آخر، وهو قوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين، وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها، ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها، فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه!»[2].

وقال أيضًا: دلت الآية على أن التحلي مباح للنساء، وأنه حرام للرجال؛ لأنه

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٣).

تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذل وذلك حرام، لقوله ﷺ: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»[١] وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله، والتزين بزينة التقوى، قال الشافعي:

تدرعت يومًا للقنوع حصينة ... أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا

ولم أحذر الدهر الخئون وإنما ... قصاراه أن يرمي بي الموت والفقرا

فأعددت للموت الإله وعفوه ... وأعددت للفقر التجلد والصبرا»[٢].

وقال ابن كثير: «أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عَيِيَّة، أوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله ﷻ؟! فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحلي إلا زينَةٌ من نقيصةٍ ... يتمّمُ من حُسْن إذا الحُسْن قَصَّرا

وأمّا إذَا كان الجمالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزَوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: (ما هي بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة)»[٣].

وقال ابن عاشور: «نَشْءُ الشيء في حالةٍ أن يكون ابتداءُ وجوده مقارنًا لتلك الحالة، فتكون للشيء بمنزلة الظرف. ولذلك اجتلب حرف (في) الدّالة على الظرفية، وإنما هي مستعارة لِمعنى المصاحبة والملابسة، فمعنى ﴿مَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ مَن تُجعل له الحلية من أول أوقات كونه ولا تفارقُه، فإن البنت تُتَّخذُ لها الحلية من أول عمرها، وتستصحب في سائر أطوارها، وحسبك أنها شُقّت طرفا أذنيها لتجعل لها فيهما الأقراط، بخلاف الصبي فلا يُحلّى بمثل ذلك وما يستدام له.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥ / ٤٠٥)، والترمذي (٤ / ٤٥٣ / ٢٢٥٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢ / ١٣٣١-١٣٣٢ / ٤٠١٦)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة رقم (٦١٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢١).

والنَّشْءُ في الحلية كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العُرفية فيه. والمعنى: أن لا فائدة في اتخاذ اللَّه بنات لا غناء لهن، فلا يحصل له باتخاذها زيادة عِزّة، بناء على متعارفهم، فهذا احتجاج إقناعي خطابي.

و﴿ٱلْخِصَامِ﴾ ظاهره: المجادلة والمنازعة بالكلام والمحاجّة، فيكون المعنى: أن المرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجتها. وعن قتادة: ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتْها على نفسها، وعنه: ﴿مَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ هنّ الجواري يسفّههن بذلك، وعلى هذا التفسير درج جميع المفسرين.

والمعنى عليه: أنّهن غير قوادر على الانتصار بالقول، فبالأولى لا يقدرْنَ على ما هو أشد من ذلك في الحرب، أي فلا جدوى لاتّخاذهن أولادًا.

ويجوز عندي: أن يحمل الخصامُ على التقاتل والدّفاع باليد، فإن الخصم يطلق على المُحارب، قال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[1] فُسِّر بأنهم نفر من المسلمين مع نفر من المشركين تقاتلوا يوم بدر. فمعنى ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غيرُ محقق النصر..

والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل وأنهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم، وإلا لكانوا حين جعلوا لله بنوة أن لا يجعلوا له بنوة الإناث، وهم يُعدّون الإناث مكروهات مستضعفات»[2].

قال الشنقيطي: «ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افترائهم عليه -جل وعلا- الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي، ينشأ في الحلية من الحلي والحلل وأنواع الزينة، من صغره إلى كبره ليجبر بتلك الزينة نقصه الخلقي الطبيعي، وهو في الخصام غير مبين؛ لأن الأنثى غالبًا لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها»[3].

* * *

---

(١) الحج: الآية (١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨١و١٨٢).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢١٧و٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعل هؤلاء المشركون بالله ملائكته الذين هم عباد الرحمن.

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة «الذين هم عند الرحمن» بالنون، فكأنهم تأولوا في ذلك قول الله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] فتأويل الكلام على هذه القراءة: وجعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه إناثا، فقالوا: هم بنات الله جهلا منهم بحق الله، وجرأة منهم على قيل الكذب والباطل.

وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة والبصرة ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ بمعنى: جمع عبد. فمعنى الكلام على قراءة هؤلاء: وجعلوا ملائكة الله الذين هم خلقه وعباده بنات الله، فأنثوهم بوصفهم إياهم بأنهم إناث.

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وذلك أن الملائكة عباد الله وعنده.

واختلفوا أيضًا في قراءة قوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ فقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة «أشهدوا خلقهم» بضم الألف، على وجه ما لم يسمّ فاعله، بمعنى: أأشهد الله هؤلاء المشركين الجاعلين ملائكة الله إناثا، خلق ملائكته الذين هم عنده، فعلموا ما هم، وأنهم إناث، فوصفوهم بذلك، لعلمهم بهم، وبرؤيتهم إياهم، ثم رد ذلك إلى ما لم يسمّ فاعله. وقرئ بفتح الألف، بمعنى: أشهدوا هم ذلك فعلموه؟

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ

(١) الأعراف: الآية (٢٠٦).

القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ستكتب شهادة هؤلاء القائلين: الملائكة بنات اللَّه في الدنيا، بما شهدوا به عليهم، ويسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة أن يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أربع مسائل: الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث زاعمين أنهم بنات اللَّه.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخًا شديدًا وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ يعني: هل حضروا خلق اللَّه لهم فعاينوهم إناثًا؟

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها: وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثًا، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾[٢]. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾[٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية: وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتقريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا أنهم خلقوا إناثًا فقد ذكرها في قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[٥] الآية.

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٨).
(٢) الإسراء: الآية (٤٠).
(٣) النجم: الآية (٢٧).
(٤) الصافات: الآيتان (١٤٩و١٥٠).
(٥) الكهف: الآية (٥١).

وأما المسألة الثالثة: التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾[1] وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾[5] الآية. وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[6].

وأما المسألة الرابعة: وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾[7] وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾[9] وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات»[11].

قال ابن كثير: «أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ﴾ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد»[12].

قال ابن عطية: «ومعنى الآية: التوبيخ وإظهار فساد عقولهم، وادعائهم وأنها مجردة من الحجة، وهذا نظير الآية الرادة على المنجمين وأهل الطبائع، وهي قوله تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[13]»[14].

* * *

---

(١) الانفطار: الآيات (١٠-١٢).
(٢) الجاثية: الآية (٢٩).
(٣) الزخرف: الآية (٨٠).
(٤) يونس: الآية (٢١).
(٥) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).
(٦) مريم: الآية (٧٩).
(٧) العنكبوت: الآية (١٣).
(٨) الحجر: الآيتان (٩٢و٩٣).
(٩) الزخرف: الآية (٤٤).
(١٠) النحل: الآية (٥٦).
(١١) أضواء البيان (٧ / ٢١٩و٢٢٠).
(١٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢١).
(١٣) الكهف: الآية (٥١).
(١٤) المحرر الوجيز (٥ / ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يخرصون: يكذبون، وأصل الخرص: الحدس والحرز، ومنه خرص النخل، وهو أن تحرز ما على رؤوسها من تمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لو أراد اللَّه لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات اللَّه، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من اللَّه ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَرا، والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) النحل: الآية (٣٦).

رُسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[١] وقال في هذه الآية -بعد أن ذكر حجتهم هذه-: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويتقولون»[٢].

قال ابن عطية: «ذكر اللَّه تعالى احتجاج الكفار لمذهبهم ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال اللَّه لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلًا على أنه يرضى عبادة الأصنام دينًا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى اللَّه عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويخرصون ويخمنون، وهذا هو الخرص والتخرص»[٣].

قال السعدي: «فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلا وشرعا. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعا، فإن اللَّه تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن اللَّه تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ولهذا قال هنا: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يتخرصون تخرصًا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء»[٤].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره اللَّه عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن اللَّه لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[٧] الآية. وقال تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٩].

(١) الزخرف: الآية (٤٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢١و٢٢٢).
(٣) المحرر والوجيز (٥ / ٥٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٣٨و٦٣٩).
(٥) الأنعام: الآية (١٠٧).
(٦) الأنعام: الآية (٣٥).
(٧) السجدة: الآية (١٣).
(٨) الأنعام: الآية (١٤٩).
(٩) يونس: الآية (٩٩).

وهذا الإشكال المذكور في آية (الزخرف) هو بعينه واقع في آية (الأنعام)، وآية (النحل).

أما آية (الأنعام) فهي قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾[١]. وأما آية (النحل)، فهي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾[٢] الآية.

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل: أن ما قاله الكفار حق، وأن اللَّه لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئًا، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريبًا.

فاعلم أن وجه الإشكال، أن اللَّه صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية (الزخرف): ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون، وقال في آية (الأنعام): ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[٣]، وقال في آية (النحل): ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٤].

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر باللَّه والكذب على اللَّه، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ مرادهم به أن اللَّه لما كان قادرًا على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم. قالوا: لأنه لو لم يكن راضيًا به، لصرفنا عنه، فتكذيب اللَّه لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به، واللَّه -جل وعلا- يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٥].

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية تستلزم الرضى، وهو زعم باطل، وهو

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٨).
(٢) النحل: الآية (٣٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٤٨).
(٤) النحل: الآية (٣٥).
(٥) الزمر: الآية (٧).

الذي كذبهم الله فيه من الآيات المذكورة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية (الزخرف): ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] أي: آتيناهم كتابًا يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبينًا أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. فقوله عنهم: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ هو مصب التكذيب، لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال. فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريبًا إن شاء الله.

وقال تعالى في آية (النحل) بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾. فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضيًا بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولًا، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده، ويجتنبوا الطاغوت؛ أي: يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه. وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة؛ أي: ثبت عليه الكفر والشقاء.

وقال تعالى في آية (الأنعام): ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[3]. فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة، لأنه لم يكن له ذلك دينًا علينا ولا واجبًا مستحقًا يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل. وحاصل هذا: أن الله -تبارك وتعالى- قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قومًا صائرون إلى الشقاء وقومًا صائرون إلى السعادة، فريق في الجنة وفريق في السعير. وأقام الحجة على الجميع، ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبسًا، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك.

---

(١) الزخرف: الآية (٢١).

(٢) الزخرف: الآية (٢٢).

(٣) الأنعام: الآية (١٤٩).

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء.

فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا طائعين مختارين، غير مجبورين ولا مقهورين، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(1). ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

وادعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضروري السقوط عند عامة العقلاء. ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية، كحركة المرتعش فرقًا ضروريًا لا ينكره عاقل.

وأنك لو ضربت من يدعى أن الخلق مجبورون، وفقأت عينه مثلًا، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر، فقلت له: أنا مجبور ولا إرادة لي في هذا السوء الذي فعلته بك، بل هو فعل اللَّه، وأنا لا دخل لي فيه، فإنه لا يقبل منك هذه الدعوى بلا شك. بل يبالغ في إرادة الانتقام منك قائلًا: إن هذا بإرادتك ومشيئتك.

ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة اللَّه ومشيئته، أنه لا يمكن أحد أن ينكر علم اللَّه بكل شيء قبل وقوعه، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر. وسبق علم اللَّه بما يقع من العبد قبل وقوعه، برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى.

وإيضاح ذلك أنك لو قلت للقدري: إذا كان علم اللَّه في سابق أزله تعلق بأنك تقع منك السرقة أو الزنا في محل كذا في وقت كذا، وأردت أنت بإرادتك المستقلة في زعمك دون إرادة اللَّه أن لا تفعل تلك السرقة أو الزنا الذي سبق بعلم اللَّه وقوعه، فهل يمكنك أن تستقل بذلك؟ وتُصيِّر علم اللَّه جهلًا، بحيث لا يقع ما سبق في علمه وقوعه في وقته المحدد له؟

والجواب بلا شك: هو أن ذلك لا يمكن بحال كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

---

(١) الإنسان: الآية (٣٠).

ولا إشكال البتة في أن اللَّه يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك، ثم يصرف اللَّه بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه، فيأتيه العبد طائعًا مختارًا غير مقهور ولا مجبور، وغير مستقل به دون قدرة اللَّه وإرادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ .

والمناظرة التي ذكرها بعضهم بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبد الجبار المعتزلي توضح هذا.

وهي أن عبد الجبال قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله؛ لأنه في زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرًا عليه، أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالرديء، دعاني وسد الباب دوني؟ أتراه أحسن أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقًّا واجبًا لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: واللَّه ما لهذا جواب.

ومضمون جواب أبي إسحاق هذا الذي أفحم به عبد الجبار، هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ . وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابي فشكا إليه أن دابته سرقت وطلب منه أن يدعو اللَّه ليردها إليه. فقال عمرو ما معناه: اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها؛ لأنك أنزه وأجل من أن تدبر هذا الخنا. فقال الأعرابي: ناشدتك اللَّه يا هذا، إلا ما كففت عني من دعائك هذا الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد، ولا ثقة لي برب يقع في ملكه ما لا يشاؤه، فألقمه حجرًا»[1].

---

(١) أضواء البيان (٧ / ٢٢٠-٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما آتينا هؤلاء المتخرّصين القائلين لو شاء الرحمن ما عبدنا الآلهة كتابا بحقيقة ما يقولون من ذلك، من قبل هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد. ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يقول: فهم بذلك الكتاب الذي جاءهم من عندي من قبل هذا القرآن، مستمسكون يعملون به، ويدينون بما فيه، ويحتجون به عليك»[1].

قال الرازي: «يعني أن القول الباطل الذي حكاه اللَّه تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2]، وأما إثباته بالنقل فهو أيضًا باطل لقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ والضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن أو للرسول، والمعنى أنهم هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزّل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه، وأن يتمسكوا به، والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لا دليل عقلي ولا دليل نقلي وجب أن يكون القول به باطلًا»[3].

قال الشنقيطي: «﴿أَمْ﴾ هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار، يعني -جل وعلا- أن هذا الذي يزعم الكفار من أنهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم الملائكة بنات اللَّه، لا دليل لهم عليه. ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتابًا يحل فيه ذلك، وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من اللَّه، فأنكر عليهم هذا هنا إنكارًا دالًا على النفي للتمسك بالكتاب المذكور، مع التوبيخ والتقريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من اللَّه،

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٩).

(٢) الزخرف: الآية (٢٠).

(٣) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٧).

ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة (فاطر): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾[1] الآية. وقوله تعالى في (الأحقاف): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾[2]. وقوله تعالى في (الروم): ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾[3]. وقوله تعالى في (الصافات): ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾[4]. وقوله تعالى في (النمل): ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾[5]. وقوله تعالى في (الحج) و(لقمان): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾[6]. وقوله تعالى في (الأنعام): ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[7]»[8].

قال السعدي: «﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمدًا نذيرًا إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره؛ أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثَمَّ إلا الباطل. نعم، لهم شبهة من أوهى الشُّبَه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل»[9].

* * *

---

(١) فاطر: الآية (٤٠).

(٢) الأحقاف: الآية (٤).

(٣) الروم: الآية (٣٥).

(٤) الصافات: الآيتان (١٥٦و١٥٧).

(٥) النمل: الآية (٦٤).

(٦) الحج: الآية (٨) ولقمان: الآية (٢٠).

(٧) الأنعام: الآية (١٤٨).

(٨) أضواء البيان (٧ / ٢٢٦و٢٢٧).

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٣٩).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

على أمة: على طريقة ومذهب ودين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما آتينا هؤلاء القائلين: لو شاء الرحمن ما عبدنا هؤلاء الأوثان بالأمر بعبادتها كتابا من عندنا، ولكنهم قالوا: وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا يعبدونها، فنحن نعبدها كما كانوا يعبدونها، وعنى -جل ثناؤه- بقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾. بل وجدنا آباءنا على دين وملة، وذلك هو عبادتهم الأوثان.. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول: وإنا على آثار آبائنا فيما كانوا عليه من دينهم مهتدون؛ يعني لهم متبعون على منهاجهم»[1].

قال ابن كثير: «أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: ورائهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل»[3].

قال الرازي: «المقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول ألبتة، بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض»[4].

قال ابن عاشور: «هذا إضراب إبطال عن الكلام السابق من قوله تعالى: ﴿فَهُم

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٥٩و٦٠).

(٢) الأنبياء: الآية (٩٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٣).

(٤) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٧).

بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ فهو إبطال للمنفي لا للنفي، أي ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل. فكان هذا الكلام مسوقًا مساق الذمّ لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرّسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميّز ما يُلقَى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق.

والأمة هنا بمعنى الملة والدّين، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وقول النابغة:

وهل يأثمن ذو أُمة وهو طائع

أي: ذو دِين»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾

★ غريب الآية:

مترفوها: متنعموها المنغمسون في شهواتهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وهكذا كما فعل هؤلاء المشركون من قريش فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله، وقالوا مثل قولهم، لم نرسل من قبلك يا محمد في قرية، يعني إلى أهلها رسلا تنذرهم عقابنا على كفرهم بنا، فأنذروهم وحذروهم سخطنا، وحلول عقوبتنا بهم ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، وهم رؤساؤهم وكبراؤهم وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ يقول: قالوا: إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعل كالذي فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون؛ يقول -جل ثناؤه- لمحمد ﷺ: فإنما سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم من إخوانهم من أهل الشرك بالله في إجابتهم إياك بما أجابوك به، وردّهم ما ردّوا عليك من النصيحة، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل»[1].

قال ابن كثير: «بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾[2]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٦١). (٢) الذاريات: الآيتان (٥٢-٥٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٣).

قال ابن عاشور: «جملة معترضة لتسلية النبي ﷺ على تمسك المشركين بدين آبائهم والإشارة إلى المذكور من قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ومثل قولهم ذلك، قال المترفون من أهل القُرى المرسل إليهم الرسل من قبلك. والواو للعطف أو للاعتراض وما الواو الاعتراضية في الحقيقة إلا تعطف الجملة المعترضة على الجملة التي قبلها عطفًا لفظيًا.

والمقصود أن هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين، قد استووا فيه كما استووا في مَثاره وهو النظر القاصر المخطئ، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾؛ أي: بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان. ويتضمن هذا تسليةً للرّسول ﷺ على ما لقيه من قومه، بأن الرّسل من قبله لَقُوا مثل ما لَقي»[1].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى في (البقرة): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾[2]، وكقوله تعالى في (المائدة): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾[3].

وأوضح تعالى في آية (لقمان) أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾[4] كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[6] والآيات بمثل ذلك كثيرة»[7].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٨).
(٢) البقرة: الآية (١٧٠).
(٣) المائدة: الآية (١٠٤).
(٤) لقمان: الآية (٢١).
(٥) الصافات: الآيتان (٦٩و٧٠).
(٦) الأنبياء: الآيات (٥١-٥٤).
(٧) أضواء البيان (٧ / ٢٢٨و٢٢٩).

قال الرازي: «لو لم يكن في كتاب اللَّه إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد، وذلك لأنه تعالى بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل، ومما يدل عليه أيضًا من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق، وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقًا إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقًّا، ومعلوم أن ذلك باطل»[1].

وقال أيضًا: «إنه تعالى بيّن أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه، إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا، وحب الكسل والبطالة، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدينا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب اللَّه والدار الآخرة»[2].

قال الشوكاني: «وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير، ولا حجة واضحة، بل بمجرّد قال وقيل: لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة باطلة، قالوا: بما قاله المترفون من هذه الملل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ، أو بما يلاقي معناه معنى ذلك.

فإن قال لهم الداعي إلى الحقّ: قد جمعتنا الملة الإسلامية، وشملنا هذا الدين المحمدي، ولم يتعبدنا اللَّه ولا تعبدكم وتعبد آباءكم من قبلكم إلاّ بكتابه الذي أنزله على رسوله، وبما صحّ عن رسوله، فإنه المبين لكتاب اللَّه الموضح لمعانيه،

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٧).

الفارق بين محكمه ومتشابهه، فتعالوا نردّ ما تنازعنا فيه إلى كتاب اللَّه وسنّة رسوله، كما أمرنا اللَّه بذلك في كتابه بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، فإن الردّ إليهما أهدى لنا ولكم من الردّ إلى ما قاله أسلافكم، ودرج عليه آباؤكم، نفروا نفور الوحوش، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر ومدر، كأنهم لم يسمعوا قول اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾[2]، ولا قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾[3].

فإن قال لهم القائل: هذا العالم الذي تقتدون به وتتبعون أقواله، هو مثلكم في كونه متعبدًا بكتاب اللَّه وسنّة رسوله، مطلوبًا منه ما هو مطلوب منكم، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك رخصة له لا يحلّ أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز له العمل بها، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده، وها أنا أوجدتكموه في كتاب اللَّه، أو فيما صحّ من سنّة رسوله، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا نعمل بهذا، ولا سمع لك ولا طاعة، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب والسنّة، ولم يسلموا ذلك، ولا أذعنوا له، وقد وهب لهم الشيطان عصى يتوكئون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم إلى الكتاب والسنّة، وهي أنهم يقولون: إن إمامنا الذي قلدناه واقتدينا به أعلم منك بكتاب اللَّه وسنّة رسوله، وذلك لأن أذهانهم قد تصوّرت من يقتدون به تصورًا عظيمًا بسبب تقدّم العصر، وكثرة الأتباع، وما علموا أن هذا منقوض عليهم، مدفوع به في وجوههم، فإنه لو قيل لهم: إن في التابعين من هو أعظم قدرًا، وأقدم عصرًا من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصرًا، وأجلّ قدرًا، فإن أبيتم ذلك، ففي الصحابة ﷺ من هو أعظم قدرًا من صاحبكم علمًا وفضلًا، وجلالة قدر، فإن أبيتم ذلك، فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدرًا، وأجلّ خطرًا، وأكثر أتباعًا، وأقدم عصرًا، وهو: محمد بن عبد اللَّه نبينا ونبيكم، ورسول اللَّه إلينا وإليكم، فتعالوا، فهذه سنّته موجودة في دفاتر

(١) النساء: الآية (٥٩).
(٢) النور: الآية (٥١).
(٣) النساء: الآية (٦٥).

الإسلام، ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرنًا بعد قرن، وعصرًا بعد عصر، وهذا كتاب ربنا خالق الكل، ورازق الكل، وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت، وبيد كل مسلم لم يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقص، ولا تحريف ولا تصحيف، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه، ويتعقل معانيه، فتعالوا لنأخذ الحقّ من معدنه، ونشرب صفو الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا سمع ولا طاعة، إما بلسان المقال، أو بلسان الحال، فتدبر هذا، وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف، وشعبة من خير، ومزعة من حياء، وحصة من دين، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللَّه العليّ العظيم»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٤ / ٧٧٣و٧٧٤).

قوله تعالى: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ أيها القوم من عند ربكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ إلى طريق الحق، وأدل لكم على سبيل الرشاد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ﴾ أنتم عليه آبائكم من الدين والمِلَّة. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ يقول: فقال ذلك لهم، فأجابوه بأن قالوا له كما قال الذين من قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها لأنبيائها: إنا بما أرسلتم به يا أيها القوم كافرون؛ أي: جاحدون منكرون»[1].

قال الرازي: «قال تعالى لرسوله: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: بدين أهدى من دين آبائكم، فعند هذا حكى اللّه عنهم أنهم قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة»[2].

قال الشنقيطي: «قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: قُلْ أو لو جئتكم بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر.

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم، ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى: قل لهم يا نبي اللّه أتقتدون بآبائكم في الكفر والضلال، ولو جئتكم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آبائكم، وصيغة

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٦١و٦٢).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٧و٢٠٨).

التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن آباءهم لا شيء عندهم من الهداية أصلًا، وعلى قراءة ابن عامر وحفص: فالمعنى قال هو: أي رسول اللَّه ﷺ»[١].

* * *

(١) أضواء البيان (٧ / ٢٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فانتقمنا من هؤلاء المكذّبة رسلها من الأمم الكافرة بربها، بإحلالنا العقوبة بهم، فانظر يا محمد كيف كان عقبى أمرهم، إذ كذّبوا بآيات اللَّه. ويعني بقوله: ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آخر أمر الذين كذبوا رسل اللَّه إلام صار، يقول: ألم نهلكهم فنجعلهم عبرة لغيرهم؟»[1].

قال ابن عطية: «الآية وعيد لقريش، وضرب مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها كما كذبت هي بمحمد ﷺ»[2].

قال الشوكاني: «وذلك الانتقام ما أوقعه اللَّه بقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من تلك الأمم، فإن آثارهم موجودة»[3].

قال البقاعي: «ولما علم بهذا أن أمرهم وصل إلى العناد المسقط للاحتجاج، سبب عنه قوله موعظة لهذه الأمة وبيانًا لما خصها به من الرحمة: ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ أي: بما لنا من العظمة التي استحقوا بها ﴿مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم بعذاب الاستئصال، وعظم أثر النقمة بالأمر بالنظر فيها في قوله: ﴿فَانظُرْ﴾ أي بسبب التعرف لذلك وبالاستفهام إشارة إلى أن ذلك أمر هو جدير لعظمه بخفاء سببه فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أي: آخر أمر ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إرسالنا فإنهم هلكوا أجمعون، ونجا المؤمنون أجمعون، فليحذر من رد رسالتك من مثل ذلك»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ٦٢).
(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٥١).
(٣) فتح القدير (٤ / ٧٧٥).
(٤) نظم الدرر (١٧ / ٤١٣و٤١٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

براء: يستعمل البراء للواحد فما فوق، تقول: أنا براء منك، ونحن براء، والمعنى أنا ذو براء منك.

عقبه: نسله وذريته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بيّن أنه طريق باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم ﷺ أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول: إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرمًا أو جائزًا، فإن كان محرمًا فقد بطل القول بالتقليد، وإن كان جائزًا فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم ﷺ، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول: إنه ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء، ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد، وإذا ثبت هذا فنقول: فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلًا، فوجب أن يكون

القول بالتقليد باطلًا، فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد، وهو المراد بهذه الآية.

الوجه الثاني: في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين، أنه تعالى بيّن أن إبراهيم ﵇ لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل لا جرم جعل اللَّه دينه ومذهبه باقيًا في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خير ولا أثر، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة اللَّه تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه اللَّه من ذرية إبراهيم ﵇، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها»[2].

قال ابن عاشور: «وخُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبلَ ذكر قومه وما هو إلا واحد منهم اهتمامًا بذكره؛ لأن براءة إبراهيم مما يَعبُد أبُوه أدَلُّ على تجنب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها، ولو كان الذي يعبدها أقربَ النّاس إلى موحّد اللَّه بالعبادة مثل الأبِ، ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3] أي: فما كان لكم أن تقتدوا بآبائكم المشركين، وهلا اقتديتم بأفضل آبائكم وهو إبراهيم»[4].

وقال أيضًا: «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ عطف على ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أعلن تلك المقالة في قومه معاصريه، وجعلها كلمة باقية في عقبه

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٨و٢٠٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٤).
(٣) الممتحنة: الآية (٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٩٢).

ينقلونها إلى معاصريهم من الأمم. إذ أوصى بها بنيه وأن يوصوا بَنِيهم بها، قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾[١] فبتلك الوصية أبقى إبراهيم توحيد اللّٰه بالإلهية والعبادة في عقبه يبثونه في النّاس. ولذلك قال يوسف لصاحبيه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[٢] وقال لهما: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]»[٤].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل ﷺ، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الذين اتخذوا من دون اللّٰه آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مبغض له، مجتنب معاد لأهله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، فـ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة للّٰه وحده، والتبرّي من عبادة ما سواه.

﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه -كإسحاق ويعقوب- لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[٥] إلى آخر الآيات. فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته ﷺ حتى دخلهم الترف والطغيان»[٦].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها، من دون اللّٰه أي: يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي

---

(١) البقرة: الآيتان (١٣١-١٣٢).
(٢) يوسف: الآية (٣٩).
(٣) يوسف: الآيات (٣٧-٤٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٩٣).
(٥) البقرة: الآية (١٣٠).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٤١و٦٤٢).

خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى في هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝﴾[1] الآية. وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾[2].

وزاد -جل وعلا- في سورة (الممتحنة) براءته أيضًا من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[3].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ ذكر نحوه في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[5].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: خلقني. يدل على أنه لا يستحق العبادة إلا الخالق وحده -جل وعلا-.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[6] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[9] الآية، وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ

---

(١) الشعراء: الآيات (٧٥-٧٨).
(٢) الأنعام: الآيتان (٧٨و٧٩).
(٣) الممتحنة: الآية (٤).
(٤) الصافات: الآية (٩٩).
(٥) الأنعام: الآية (٧٧).
(٦) البقرة: الآية (٢١).
(٧) الشعراء: الآية (١٨٤).
(٨) الرعد: الآية (١٦).
(٩) النحل: الآية (١٧).
(١٠) الأعراف: الآية (١٩١).

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[١] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

وقال أيضًا: «الضمير المنصوب في ﴿جَعَلَهَا﴾ على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا اللَّه، المذكورة في قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لأن لا إله إلا اللَّه نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير اللَّه في جميع أنواع العبادات.

وهذا المعنى جاء موضحًا في قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾. ومعنى الإثبات منها هو إفراد اللَّه وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله.

وهذا المعنى جاء موضحًا في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾. وضمير الفاعل المستتر في قوله: ﴿جَعَلَهَا﴾. قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق. وقال بعضهم: هو راجع إلى اللَّه تعالى.

فعلى القول الأول فالمعنى صيَّر إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه أي: ولده وولد ولده. وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين: أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾[٣] الآية.

والأمر الثاني هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾[٤]؛ أي: واجعل من ذريتي أيضًا أئمة، وقوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾[٥]، وقوله عنه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[٦]، وقوله عنه هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا

---

(١) الفرقان: الآيتان (٢-٣).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٢٢٩-٢٣٠).
(٣) البقرة: الآيات (١٣٠-١٣٢).
(٤) البقرة: الآية (١٢٤).
(٥) إبراهيم: الآية (٤٠).
(٦) إبراهيم: الآية (٣٥).

وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[١] إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٢].

وقد أجاب اللَّه دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمدًا ﷺ. ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم»[٣]. وقد جعل اللَّه الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[٤]، وقال عنه وعن نوح في سورة (الحديد): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[٥] الآية.

وعلى القول الثاني أن الضمير عائد إلى اللَّه تعالى فلا إشكال. وقد بين تعالى في آية (الزخرف) هذه، أن اللَّه لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه؛ لأن كفار مكة الذين كذبوا بنبينا ﷺ من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه ﷺ وقالوا: إنه ساحر، وكثير منهم مات على ذلك. وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٦].

وما دلت عليه آية (الزخرف) هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل اللَّه الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى في (البقرة): ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الظالمين من ذرية إبراهيم. وقوله تعالى في (الصافات): ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾[٧]. فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك. وقوله تعالى في (النساء): ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[٨].

---

(١) البقرة: الآية (١٢٨).

(٢) البقرة: الآية (١٢٩).

(٣) أخرجه: ابن عساكر في التاريخ (٣ / ٣٩٣)، من حديث عبادة ابن الصامت ﷺ، وفي الباب عن أبي أمامة الباهلي وخالد بن معدان عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ وغيرهم ﷺ، وانظر الصحيحة رقم (١٥٤٥و١٥٤٦).

(٤) العنكبوت: الآية (٢٧).

(٥) الحديد: الآية (٢٦).

(٦) الزخرف: الآية (٣٠).

(٧) الصافات: الآية (١١٣).

(٨) النساء: الآيتان (٥٤و٥٥).

وقد بين تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق ما دام قائمًا في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم؛ لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضلال.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وفي الكلام تقديم وتأخير. والمعنى: فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي قال لهم: يتوبون عن عبادة غير اللَّه. اهـ منه.

وإيضاح كلامه، أن المعنى أن إبراهيم قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق. والضمير في قوله: لعلهم يرجعوا على هذا راجع إلى أبيه وقومه. وعلى ما ذكرناه أولًا فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه، لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب. فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه، وهذا القول هو ظاهر السياق، والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في معنى لا إله إلا الله

* عن أبي مالك عن أبيه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من قال: لا إله إلا اللَّه، وكفر بما يعبد من دون اللَّه، حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «واختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا اللَّه، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان، ومن لا يقر بالصانع ولا يوحده، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيره

---

(١) الحديد: الآية (٢٦). (٢) أضواء البيان (٧ / ٢٣١-٢٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣ / ٤٧٢)، ومسلم (١ / ٥٣ / ٢٣).

ممن يقر بالتوحيد والصانع فلا يكتفى في عصمة دمه بقوله ذلك، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: «**وأني رسول اللَّه، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة**»»[١].

قال سليمان بن عبد اللَّه آل الشيخ: «اعلم أن النبي ﷺ في هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين: الأول: قول لا إله إلا اللَّه.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون اللَّه، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا اللَّه، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا اللَّه وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون اللَّه، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك، فلا بد في العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٢] والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك، فالقتال باق بحاله، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[٤] فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خلى سبيلهم، ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها، فالقتال باق بحاله إجماعا، ولو قالوا لا إله إلا اللَّه.

وكذلك النبي ﷺ علق العصمة بما علقها اللَّه به في كتابه كما في هذا الحديث. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم**

---

(١) الإكمال (١ / ٢٤٦).
(٢) الأنفال: الآية (٣٩).
(٣) التوبة: الآية (٣٦).
(٤) التوبة: الآية (٥).

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[١] وفي الصحيحين عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله**»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق[٢].

فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق. وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص الكتاب والسنة. وفي الصحيحين أيضًا، عن عبد الله ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[٣].

فهذا الحديث كآية براءة بين فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداء، فإذا فعلوه، وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا فعل الوضوء للصلاة ونحوه، أو تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعا، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان. وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لا تعصم من استباح محرما، أو أبى فعل الوضوء مثلا

---

(١) أخرجه: مسلم (١ / ٥٢ / ٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٣٧)، والبخاري (٦ / ١٣٨ / ٢٩٤٦)، ومسلم (١ / ٥١-٥٢ / ٢٠)، وأبو داود (٢ / ١٩٨-١٩٩ / ١٥٥٦)، والترمذي (٥ / ٥-٦ / ٢٦٠٧)، والنسائي (٥ / ١٦ / ٢٤٤٢)، وابن ماجه (٢ / ١٢٢٥ / ٣٩٢٧).

(٣) أخرجه: البخاري (١ / ١٠٢ / ٢٥)، ومسلم (١ / ٥٣ / ٢٢).

بل يقاتل على ذلك حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك، وفعله، وأحبه، ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل اللَّه كما هو شأن عباد القبور، وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا اللَّه، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد اهـ»[1].

وقال أيضًا: «والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح في كفر عباد القبور، ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافرا يجب قتاله، فكيف بمن أشرك باللَّه ودعي إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير اللَّه، فأبى عن ذلك، واستكبر وكان من الكافرين؟

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا عند قوله: «وحسابه على الله» «أي: إلى اللَّه -تبارك وتعالى- هو الذي يتولى حسابه فإن كان صادقا من قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقا عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا، فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرا، وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يظهر الإسلام، ويسر الكفر، والمشهور في مذهب أحمد ومالك أنها لا تقبل، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾[2] والزنديق لا يتبين رجوعه، لأنه مظهر للإسلام، مسر للكفر، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها، والحديث محمول على المشرك، ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما في الآخرة فإن كان دخل في الإسلام صادقا قبلت. وفيه: وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام، ولو في حال القتال، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك وفيه أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا اللَّه، ولا يكفر بما يعبد من دون اللَّه. وفيه: أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة، والكفر بما

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٤٠ / ١٤٢).

(٢) البقرة: الآية (١٦٠).

يعبد من دون اللَّه مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ. وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصا ونحوه وتغريمه قيمة ما يتلفه»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق المسلمين؛ وإن تكلمت بالشهادتين. فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا. وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة. وكذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق. وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش، أو الزنا، أو الميسر، أو الخمر، أو غير ذلك من محرمات الشريعة. وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة. وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار إلى أن يسلموا ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة واتباع سلف الأمة وأئمتها؛ مثل أن يظهروا الإلحاد في أسماء اللَّه وآياته، أو التكذيب بأسماء اللَّه وصفاته، أو التكذيب بقدره وقضائه، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين، أو الطعن في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، أو مقاتلة المسلمين حتى يدخلوا في طاعتهم التي توجب الخروج عن شريعة الإسلام، وأمثال هذه الأمور»(٢).

* * *

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٤٣و١٤٤)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٥١٠و٥١١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ يا محمد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين من قومك ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: -جل ثناؤه- بالحقّ: هذا القرآن: يقول: لم أهلكهم بالعذاب حتى أنزلت عليهم الكتاب، وبعثت فيهم رسولا مبينا. يعني بقوله: ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: محمدا ﷺ، والمبين: أنه يبين لهم بالحجج التي يحتج بها عليهم أنه لله رسول محقّ فيما يقول ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولما جاء هؤلاء المشركين القرآنُ من عند اللَّه، ورسول من اللَّه أرسله إليهم بالدعاء إليه ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يقول: هذا الذي جاءنا به هذا الرسول سحر يسحرنا به، ليس بوحي من اللَّه ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يقول: قالوا: وإنا به جاحدون، ننكر أن يكون هذا من الله»[1].

قال الرازي: «يعني أهل مكة وهم عقب إبراهيم بالمد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات، وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات، فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا وكفروا به، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة اغتروا بطول الإمهال، وإمتاع اللَّه إياهم بنعيم الدنيا، فأعرضوا عن الحق»[2].

قال ابن عاشور: «إضراب عن قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهو إضراب إبطال؛ أي: لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم

(١) جامع البيان (٢٥ / ٦٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٩).

برعيها. فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته، وهؤلاء هم العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام.

وبعدَ ﴿بَل﴾ كلام محذوف دلّ عليه الإبطال وما بعد الإبطال، وتقديرُ المحذوف: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون إلى التوحيد ولم يتبرأوا من عبَادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية إبراهيم.

وجملة ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا لسائل يسأل عما عاملهم اللّٰه به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم. كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[1]، فأجيب بأن اللّٰه متعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق، وذلك لحكمة علمها اللّٰه يرتبط بها وجود العرب زمنًا طويلًا بدون رسول، وتأخُّرُ مجيء الرّسول إلى الإبان الذي ظهر فيه. وبهذا الاستئناف حصل التخلص إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرسول ﷺ من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم فكان موقع ﴿بَل﴾ في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد:

بل ما تذكر من نوارَ وقد نأت وتَقَطعت أسبابُها ورمَامها

إذ كان انتقاله اقتضابًا وكان هنا تخلصًا حَسنًا.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقريْتُ أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب، ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه، وقد قدّمتهُ عند قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2] في سورة (النساء) وفي مواضع أخرى.

والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنّوا عبادة الأصنام مثل عَمْرو بن لُحَيّ والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيءَ الرّسول فإن مجيئه لهؤلاء. والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدلّ عليه الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ .

والمراد بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ القرآن كما يدل عليه قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وهذه الآية ثناء

(١) الزخرف: الآيات (٢٣-٢٥).
(٢) النساء: الآية (٤١).

راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد ﷺ انتهى التمتيع وأُخذوا بالعذاب تدريجًا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى اللَّه للإسلام من بقي يومَ فتح مكة وأيامَ الوفود. وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] في سورة (هود).

والحق الذي جاءهم هو القرآن، والرّسول المبين: محمد ووصفه بـ﴿مُّبِينٌ﴾ لأنه أوضَحَ الهُدى ونصبَ الأدلةَ وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه. والحكمة في ذلك أن اللَّه أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام، واتباع أفضل الرّسل وأفضل الشرائع، فيجبرَ لأمَّة من عَقِب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم، حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة.

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ۝١٥٧﴾[2]»[3].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «جملة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فإن ﴿لَمَّا﴾ توقيتية فهي في قوة حتى الغائيَّة، كأنه قيل: متعت هؤلاء وآباءهم، فلما جاءهم الحق عقِبَ ذلك التمتيع لم يستفيقوا من غفلتهم وقالوا: هذا سحر، أي كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة وتساهل، فلما جاءهم الحق صاروا مشركين عن عناد ومكابرة.

وجملة: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مقول ثانٍ، أي قالوا: هذا سحر فلا نلتفت إليه وقالوا: إنا به؛ أي: بالقرآن ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: سواء كان سحرًا أم غيره؛ أي:

---

(١) هود: الآية (٤٨).

(٢) الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٦-١٩٨).

فرضوا أنه سحر، ثم ارتقوا فقالوا: إنّا به كافرون؛ أي: كافرون بأنه من عند اللَّه سواء كان سحرًا أم شعرًا أم أساطيرَ الأولين. ولهذا المعنى أكدوا الخبر بحرف التأكيد ليؤيسوا الرسول ﷺ من إيمانهم»[١].

وقال السعدي: «قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياما باهرا، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحا شنيعا، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما متعهم اللّه به وآباءهم»[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٢٥ / ١٩٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٤٢و٦٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

سخريا: خولا وخداما. يقال: سخره: إذا كلفه عملا يقوم به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

وقال الشوكاني: «المراد بالقريتين: مكة والطائف، وبالرجلين: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، كذا قال قتادة وغيره. وقال مجاهد وغيره: عتبة بن ربيعة من مكة، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وقيل غير ذلك. وظاهر النظم أن المراد: رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسوّد في قومه.

والمعنى: أنه لو كان قرآنًا لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين، فأجاب اللَّه سبحانه عنهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني: النبوّة، أو ما هو أعمّ منها، والاستفهام للإنكار. ثم بيّن أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ولم نفوّض ذلك إليهم، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده، وإذا كان اللَّه سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم، ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوّة، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه.. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: أنه فاضل بينهم، فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق، والرياسة، والقوّة، والحرية، والعقل، والعلم، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض، فقال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: ليستخدم بعضهم

بعضًا، فيستخدم الغنيّ الفقير، والرئيس المرءوس، والقويّ الضعيف، والحرّ العبد، والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتمّ مصالحهم، وينتظم معاشهم، ويصل كلّ واحد منهم إلى مطلوبه، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجًا إلى البعض، لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا»[١].

قال السعدي: «وقالوا مقترحين على اللّه بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: معظم عندهم، مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال اللّه ردًّا لاقتراحهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: أهم الخزان لرحمة اللّه، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا، والحال أن رَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من الدنيا. فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد اللّه تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد اللّه تعالى، فاللّه أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينيها ودنيويها بيد اللّه وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند اللّه وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدرًا، وأعلاهم فخرًا، وأكملهم عقلًا، وأغزرهم علمًا، وأجلهم رأيًا وعزمًا وحزمًا،

---

(١) فتح القدير (٤ / ٧٧٦).

وأكملهم خلقًا، وأوسعهم رحمةً، وأشدهم شفقةً، وأهداهم وأتقاهم. وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، إلا من ضل وكابر. فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهى حمقه أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنمًا، أو شجرًا، أو حجرًا، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟ فكيف يجعل مثل هذا عظيما؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[1]»[2].

قال الشنقيطي: «﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: قال كفار مكة، ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين؛ أي: من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف عظيم يعنون بعظمه، كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي ﷺ. وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وعظيم الطائف: هو عروة بن مسعود. وقيل: حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك. وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولًا أن يبعث اللَّه رسولًا من البشر كما أوضحناه مرارًا.

ثم لما سمعوا الأدلة على أن اللَّه لم يبعث إلى البشر رسولًا إلا من البشر تنازلوا

---

(١) يونس: الآية (٥٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٤٣-٦٤٥).

عن اقتراحهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين، وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال والجاه في الدنيا، موجبًا لاستحقاق النبوة، وتنزيل الوحي.

ولذا زعموا أن محمدًا ﷺ ليس أهلًا لإنزال هذا القرآن عليه، لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ. وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحي.

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن، كقوله تعالى في (الدخان): ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1] الآية، وقوله في آخر (القصص): ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[2] الآية، وقوله في آخر (الأنبياء): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وقد قدمنا الآيات الدالة على إطلاق الرحمة والعلم على النبوة في سورة (الكهف)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[4] الآية.

وقدمنا معاني إطلاق الرحمة في القرآن في سورة (فاطر)، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[5] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني: أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معايشهم وحظوظهم في الدنيا، بل تولى هو -جل وعلا- قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنيًا وهذا فقيرًا، وهذا رفيعًا وهذا وضيعًا، وهذا خادمًا وهذا مخدومًا، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها؛ بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه

---

(١) الدخان: الآيتان (٥و٦).
(٢) القصص: الآية (٨٦).
(٣) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٤) الكهف: الآية (٦٥).
(٥) فاطر: الآية (٢).

الوحي؟ فهذا مما لا يعقل، ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ التحقيق إن شاء اللَّه أنه من التسخير. ومعنى تسخير بعضهم لبعض: خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا، يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته -جل وعلا- أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي، فتنتظم المعيشة لكل منهما وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها اللَّه -جل وعلا-، في هذه السورة الكريمة جاءت كلها موضحة في آيات أخر من كتاب اللَّه.

أما زعمهم أن محمدًا ﷺ أنقص شرفًا وقدرًا من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره اللَّه عنهم في ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾[1] الآية.

فقول كفار مكة: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ معناه إنكارهم، أن يخصه اللَّه بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم. وقد قال قوم صالح مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾[2].

فقلوب الكفار متشابهة فكانت أعمالهم متشابهة. كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾[4].

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة (الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ﴾[5]، وقوله تعالى في (المدثر): ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ

(١) ص: الآية (٨).
(٢) القمر: الآية (٢٥).
(٣) البقرة: الآية (١١٨).
(٤) الذاريات: الآية (٥٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٤).

مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾[١] أي: تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قال مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن. وفي الآية قول آخر معروف.

وأما إنكاره تعالى عليهم، اقتراح إنزال الوحي على غير محمد ﷺ، الذي دلت عليه همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ . فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في (الأنعام)؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أتبع ذلك بقوله ردًا عليهم، وإنكارًا لمقالتهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢]. ثم أوعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[٣].

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[٨] الآية.

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل، والتفاوت في الأرزاق والحظوظ، والقوة والضعف، ونحو ذلك بقوله هنا: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ، كما تقدم.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ، يعني أن النبوة والاهتداء بهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها.

وقد أشار اللَّه تعالى إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في سورة (يونس): ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[٩] وقوله

---

(١) المدثر: الآية (٥٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٤) النحل: الآية (٧١).
(٥) الإسراء: الآية (٢١).
(٦) الرعد: الآية (٢٦).
(٧) الشورى: الآية (٢٧).
(٨) النساء: الآية (١٣٥).
(٩) يونس: الآية (٥٨).

تعالى في (آل عمران): ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[(١)]»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دلت هذه الآيات الكريمة المذكورة هنا، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ الآية ونحو ذلك من الآيات، على أن تفاوت الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن اللَّه السماوية الكونية القدرية، لا يستطيع أحد من أهل الأرض ألبتة تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[(٣)].

وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود اللَّه، ولجميع النبوات والرسائل السماوية، إلى ابتزاز ثروات الناس، ونزع ملكهم الخاص، عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس، في معايشهم أمر باطل. لا يمكن بحال من الأحوال.

مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون. وإنما يقصدون استئثارهم بأملاك جميع الناس، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها، كيف شاءوا، تحت ستار كثير من أنواع الكذب، والغرور والخداع، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم، وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم.

فالطغمة القليلة الحاكمة، ومن ينضم إليها، هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد، وغيرهم من عامة الشعب محرومون من كل خير، مظلومون في كل شيء، حتى ما كسبوه بأيديهم، يعلفون ببطاقة، كما تعلف البغال والحمير.

وقد علم اللَّه -جل وعلا- في سابق علمه أنه يأتي ناس يغتصبون أموال الناس بدعوى أن هذا فقير وهذا غني، وقد نهى -جل وعلا- عن اتباع الهوى بتلك الدعوى، وأوعد من لم ينته عن ذلك، بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[(٤)]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك»[(٥)].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٥٧).
(٢) أضواء البيان (٧ / ٢٤٦-٢٥٤).
(٣) فاطر: الآية (٤٣).
(٤) النساء: الآية (١٣٥).
(٥) أضواء البيان (٧ / ٢٥٤-٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سقفًا: واحدها سقف. ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[1].

معارج: المعارج: الدرج، يقال: عرج أي: صعد، ومنه المعراج، وهو السلم.

يظهرون: يرتقون ويصعدون، يقال: ظهرت على البيت أي: علوت على سطحه.

وزخرفًا: الزخرف هنا الذهب، قاله ابن عباس وغيره، وأصله الزينة، يقال: زخرفت الدار: إذا زينتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «معنى الآية أن الدنيا عند اللَّه تعالى من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفار ودرجها وأبوابها ذهبا وفضة، لولا غلبة حب الدنيا على القلوب، فيحمل ذلك على الكفر.

والقدر الذي جعل عند الكفار من الدنيا وعند بعض المؤمنين والأغنياء إنما هو فتنة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[2]»[3].

---

(١) النحل: الآية (٢٦). (٢) الفرقان: الآية (٢٠).

(٣) أحكام القرآن (٤ / ١٦٨٢).

قال القرطبي: «قال العلماء: ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبا وفضة، لولا غلبة حب الدنيا على القلوب فيحمل ذلك على الكفر، قال الحسن: المعنى: لولا أن يكفر الناس جميعًا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند اللَّه ﷻ، وعلى هذا أكثر المفسرين، ابن عباس والسدي وغيرهم»[١].

قال ابن كثير: «أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال -هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم- ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: سلالم ودرجا من فضة قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: وابن زيد، وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: أغلاقًا على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾؛ أي: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ أي: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، وابن زيد. ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند اللَّه تعالى أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند اللَّه -تبارك وتعالى- حسنة يجزيهم بها»[٢].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث وهو أنه تعالى بيّن أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند اللَّه، وبين حقارتها بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمعنى: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم أحدها: أن يكون سقفهم من فضة. وثانيها: معارج أيضًا من فضة عليها يظهرون. وثالثها: أن نجعل لبيوتهم أبوابًا من فضة

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٥٦-٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٥).

وسررًا أيضًا من فضة عليها يتكئون.

ثم قال: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وله تفسيران أحدها: أنه الذهب. والثاني: أنه الزينة، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾[1] فعلى التقدير الأول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهبًا كثيرًا، وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب، ثم بيّن تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا، وإنما سماه متاعًا لأن الإنسان يستمتع به قليلًا ثم ينقضي في الحال، وأما الآخرة فهي باقية دائمة، وهي عند اللَّه تعالى، وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره، فبيّن تعالى أن المال والجاه حقيران عند اللَّه، وأنهما شرف الزوال، فحصولهما لا يفيد حصول الشرف، واللَّه أعلم»[2].

قال السعدي «يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئا، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئًا، لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعا عظيما، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: درجا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى سطوحهم. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرُفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعا عاما أو خاصا لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند اللّه جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند اللّه تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين»[3].

قال الشنقيطي: «إن اللَّه لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. أتبع ذلك ببيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة

---

(١) يونس: الآية (٢٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٤٥-٦٤٦).

بين المؤمنين والكافرين، وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصًا بالمؤمنين دون الكافرين، وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر في نعيم الدنيا بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفارًا، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنيًا وفقيرًا، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين -جل وعلا- اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: خالصة لهم دون غيرهم. وهذا المعنى جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في (الأعراف): ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1]. فقوله: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة؛ أي: خاصة بهم دون الكفار يوم القيامة؛ إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية (الأعراف) هذه: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا. وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف الامتناع، للوجود الذي هو لولا في قوله هنا: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وخصوص طيبات الآخرة بالمؤمنين المنصوص عليه في آية (الأعراف) بقوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ المتقين؛ لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾[2] وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ

(١) الأعراف: الآية (٣٢).
(٢) البقرة: الآية (١٢٦).

﴿٢٤﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[3] والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[6] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[7] على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[8] وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[9].

ودعوى الكفار أن اللَّه ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقًّا أعطاهم خيرًا منه في الآخرة قد ردها اللَّه عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[12]، وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾[13] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾[14] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ

(١) لقمان: الآية (٢٤).
(٢) يونس: الآية (٢٣).
(٣) يونس: الآيتان (٦٩و٧٠).
(٤) القلم: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٥) الأنعام: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٦) الأعراف: الآية (٩٥).
(٧) مريم: الآية (٧٥).
(٨) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٩) الحج: الآية (٤٤).
(١٠) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(١١) سبأ: الآية (٣٧).
(١٢) الأعراف: الآية (٤٨).
(١٣) المسد: الآية (٢).
(١٤) الليل: الآية (١١).

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات»[٢].

قال ابن العربي: «معنى الآية أن الدنيا عند اللَّه تعالى من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفار ودرجها وأبوابها ذهبا وفضة، لولا غلبة حب الدنيا على القلوب، فيحمل ذلك على الكفر.

والقدر الذي جعل عند الكفار من الدنيا وعند بعض المؤمنين والأغنياء إنما هو فتنة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقارة الدنيا وهوانها على الله

* عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ «**يقول اللَّه سبحانه: لولا أن أجعل الناس كلهم كفارًا، لجعلت للكفار لبيوتهم سقفًا من فضة**»[٥].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**»[٦].

★ غريب الحديث:

تعدل: بفتح التاء وكسر الدال أي: تزن وتساوي.

بعوضة: البعوض هو البق، وقيل: هو صغاره، واحدته بعوضة. والبعوض جنس حشرات مضرة من ذوات الجناحين، وهو الناموس.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «أي: لو كان لها أدنى قدر ما متع الكافر منها أدنى تمتع. هذا أوضح دليل وأعدل شاهد على حقارة الدنيا»[٧].

---

(١) الأنعام: الآية (٩٤).
(٢) أضواء البيان (٧ / ٢٤٨-٢٥٠).
(٣) الفرقان: الآية (٢٠).
(٤) أحكام القرآن (٤ / ١٦٨٢).
(٥) أخرجه: البخاري (٨ / ٥٦٥) معلقا بصيغة الجزم، والطبري (٢٥ / ٦٨).
(٦) أخرجه: الترمذي (٤ / ٤٨٥ / ٢٣٢٠) وقال: «صحيح غريب»، وابن ماجه (٢ / ١٣٧٦-١٣٧٧ / ٤١١٠)، والحاكم (٤ / ٣٠٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا بن منظور ضعفوه»، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٦٨٦) بمجموع طرقه.
(٧) فيض القدير (٥ / ٣٢٨).

قال المباركفوري: «والمعنى: أنه لو كان لها أدنى قدر ما سقى كافرا منها؛ أي: من مياه الدنيا «**شربة ماء**» أي: يمتع الكافر منها أدنى تمتع، فإن الكافر عدو الله، والعدو لا يعطي شيئا مما له قدر عند المعطي، فمن حقارتها عنده لا يعطيها لأوليائه»[1].

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «.. فقلت: «**ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئا فقال: أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: قال الطبري: وفيه الإبانة عن أن كل لذة قضاها المرء في الدنيا فيما له مندوحة عنها، فهو استعجال بذلك من نعيم الآخرة الذي لو لم يستعجله في الدنيا كان مدخورًا له في الآخرة، وذلك لقوله ﷺ لعمر «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا**» فأخبر أن ما أوتيه فارس والروم من نعيم الدنيا تعجيل من الله لهم نظير ما دخر لأهل ولايته عنده، فكره لأمته أن تؤتى مثل ما أوتي فارس والروم على سبيل التلذذ والتنعم، فأما على صرفه في وجهه وتفريقه في سبله التي أمر الله بوضعها فيها، فلا شك في فضل ذلك وشرف منزلته، إذ هو من منازل الامتحان والصبر على المحن، مع أن الشكر على النعم أفضل من الصبر على الضراء وحدها»[3].

قال القرطبي: «وقوله حين استوى جالسا: «**أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟**» إنكار منه على عمر لما وقع له من الالتفات إلى الدنيا، ومد عينيه إليها، وقد بالغ رسول الله ﷺ في الجواب والردع بقوله: «**أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم**» وبقوله: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»، وفيه حجة على تفضيل الفقر»[4].

---

(١) تحفة الأحوذي (٦ / ٥٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١ / ٣٤)، والبخاري (٥ / ١٤٤-١٤٦ / ٢٤٦٨)، ومسلم (٢ / ١١٠٥-١١٠٨ / ١٤٧٩)، والترمذي (٥ / ٣٩١-٣٩٤ / ٣٣١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤ / ٤٤٣ / ٣١٣١) دون موضع الشاهد.

(٣) شرح البخاري (٧ / ٣١٣-٣١٤)

(٤) المفهم (٤ / ٢٦٣).

قال النووي: «وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التقلل من الدنيا والزهادة فيها»[١].

قال الحافظ: «وفيه إيثار القناعة وعدم الالتفات إلى ما خص به الغير من أمور الدنيا الفانية»[٢].

* * *

(١) شرح مسلم (١٠ / ٧٩).
(٢) فتح الباري (٩ / ٣٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

* **غريب الآية:**

يعش: يعرض. وأصل العشو: النظر ببصر ضعيف. يقال: عشا: إذا ضعف بصره وأظلمت عينه، كأنه عليها الغشاوة.

نقيض: نتح. مأخوذ من القيض، وهو قشر البيض الأعلى. والمعنى: نتح له شيطانا ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر اللَّه، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله»[1].

وقال أيضًا: «والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا، وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر اللَّه تعالى، ومن صار كذلك صار جليسًا للشيطان، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا، وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا:

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٣).

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، قالوا كلامًا فاسدًا وشبهة باطلة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فقوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب، والسبب فيه أن الناس يقولون المصيبة إذا عمت طابت، وقالت الخنساء في هذا المعنى:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فبيّن تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا.

والسبب فيه وجوه: الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة. الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه، فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة. الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة. فبيّن تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة»[١].

قال ابن كثير: «﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد ههنا: عشا البصيرة، ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[٢]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٣]، وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[٤]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٤و٢١٥).
(٢) النساء: الآية (١١٥).
(٣) الصف: الآية (٥).
(٤) فصلت: الآية (٢٥).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى اللَّه ﷻ يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا. وقرأ بعضهم: (حتى إذا جاءانا) يعني: القرين والمقارن..

والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل ههنا تغليبا، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، والعسران. قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم»[1].

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه، وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر اللَّه، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإن اللَّه لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3] وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٧).
(٢) الإسراء: الآية (١٥).
(٣) النساء: الآية (١٦٥).
(٤) الزخرف: الآية (٧٦).

وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾[1] وهذا كثير في القرآن»[2].

وقال أيضًا: «فأخبر سبحانه أن من عشي عن ذكره وهو كتابه الذي أنزله على رسوله، فأعرض عنه وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره، ومعرفة مراد اللَّه منه، قيض اللَّه له شيطانًا عقوبة له في إعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه لا في الإقامة ولا في المسير، ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولى وبئس العشير.

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ كنت لي في الدنيا أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددتنى عن الحق، وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم، ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبة حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر اللَّه سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع اللَّه سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾»[3].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي

---

(١) الزخرف: الآيات (٥٦-٥٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٠٨و٢٠٩).
(٣) الداء والدواء (ص: ١٧٦و١٧٧).

هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيَّض له الرحمن شيطانًا مريدًا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزًّا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر اللّه، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم. فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر اللّه في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾. كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه. ولن ينفعكم أيضًا، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلَّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك»[2].

---

(١) الفرقان: الآيات (٢٧-٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٤٧-٦٤٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في توكيل الله ﷻ بكل إنسان قرينه من الجن

* عن شريك بن طارق رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله شيطان قالوا: ولك يا رسول الله؟ قال: ولي إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم**»[1].

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ خرج من عندها ليلًا. قالت: فغرت عليه فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: «**مالك يا عائشة أغرت**»؟ فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك**»؟، قلت: يا رسول الله!، أومعي شيطان؟ قال: «**نعم**»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «**نعم**» قلت: ومعك يا رسول الله! قال: «**نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[2].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن**». قالوا: وإياك يا رسول اللَّه، قال: «**وإياي، إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[3].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين**». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**نعم ولكن اللَّه أعانني عليه فأسلم**»[4].

⋆ **غريب الأحاديث:**

غرت: من الغيرة وهي الحمية والأنفة، يقال: رجل غيور، وامرأة غيور.

وكل: على بناء المجهول لأن فاعله معلوم من التوكيل بمعنى التسليط.

---

(١) أخرجه: البخاري في التاريخ الكبير (٤ / ٢٣٩)، الطبراني في الكبير (٧ / ٣٧٠ / ٧٢٢٢-٧٢٢٣)، البزار (كشف الأستار ٣ / ١٤٦ / ٢٤٣٩)، وصححه ابن حبان (١٤ / ٣٢٦ / ٦٤١٦) وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٢٥): رواه الطبراني والبزار ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه: أحمد (٦ / ١١٥)، ومسلم (٤ / ٢١٦٨ / ٢٨١٥)، والنسائي (٧ / ٨٣ / ٣٩٧٠)، مختصرًا.

(٣) أخرجه: أحمد (١ / ٣٨٥-٣٩٧)، ومسلم (٤ / ٢١٦٧-٢١٦٨ / ٢٨١٤) واللفظ له.

(٤) أخرجه: أحمد (١ / ٢٥٧)واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٢ / ١١٠ / ١٢٦٢٠)، والبزار (كشف الأستار ٣ / ١٤٦ / ٢٤٤٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٢٥): «رواه أحمد والطبراني والبزار، ورجاله رجال الصحيح غير قابوس ابن أبي ظبيان، وقد وثق على ضعفه».

★ **فوائد الأحاديث:**

قال النووي: «**فأسلم**» برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح، وهو المختار لقوله ﷺ، «**فلا يأمرني إلا بخير**»، واختلفوا على رواية الفتح قيل: أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم: فاستسلم، وقيل معناه: صار مسلمًا مؤمنًا، وهذا هو الظاهر»[1].

قال القرطبي: «جمهور الرواة يقولون فأسلم بفتح الميم، ويريدون أن الشيطان صار مسلمًا، وكان سفيان بن عيينة يقول: فأسلم، بضم الميم، والمعنى فأسلم أنا من شره، وكان ينكر القول الأول، ويقول: الشيطان لا يسلم.

قلت: هذا له موقع، غير أنه يبعده قوله: «**فلا يأمرني إلا بخير**» فحينئذ يزول عنه اسم الشيطان، ويصير مسلمًا، ويكون هذا مؤيدًا لرواية الجمهور. فالذي لأجله فر سفيان من إسلام الشيطان، يلزمه في كونه لا يأمره إلا بخير، وقد روي هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل بلفظ آخر وقال: «**لا يأمرني إلا بخير**» وأما لفظ عائشة - ﵂- فهو في الوجه الأول واضح، فإنها قالت فيه: «**ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**» والظاهر منه: أن الشيطان هو الذي أسلم، مع أنه يحتمل أن يكون (حتى) بمعنى (كي)، ويكون فيه راجع إلى النبي ﷺ؛ أي: أعانني كي أسلم منه. والله تعالى أعلم»[2].

قال ابن الجوزي: «وقول ابن عيينة حسن، وهو يظهر أثر المجاهدة لمخالفة الشيطان، إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينة.. وظاهره إسلام الشيطان ويحتمل القول الآخر»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان ابن عيينة يرويه «**فأسلم**» بالضم، ويقول: إن الشيطان لا يسلم، لكن قوله في الرواية الأخرى: «**فلا يأمرني إلا بخير**» دل على أنه

---

(١) شرح مسلم (١٧ / ١٣٠).
(٢) المفهم (٧ / ٤٠١-٤٠٢).
(٣) تلبيس إبليس (ص: ٤٦).

لم يبق يأمره بالشر، وهذا إسلامه، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته لا عن إيمانه بالله، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره، وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله، بل يعاقبه على ذلك، فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير، لذلته وعجزه، لا لصلاحه ودينه، ولهذا قال ﷺ: «إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير»»[1].

قال القاضي عياض: «اعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بضروب الوساوس، ولا على لسانه بما لم يقل»[2].

قال النووي: «في هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته، وإغوائه، فأعلمنا أنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان»[3].

* عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يسلط عليه»[4].

★ غريب الحديث:

أتى أهله: أي باشرها، وهو كناية عن الجماع.

لم يسلط عليه: أي لم يمكن منه ويحكم فيه.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: ««لم يضره شيطان أبدا» قيل: معنى لم يضره: لم يصرعه الشيطان، وقيل لا يطعن فيه الشيطان عند ولادته، ويطعن في خاصرة من لا يقال له ذلك، قال القاضي: لم يحمله أحد على العموم في جميع الضرر والإغواء والوسوسة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧ / ٥٢٣). (٢) إكمال المعلم (٨ / ٣٥٠و٣٥١).

(٣) شرح مسلم (١٧ / ١٣٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١ / ٢٨٦)، والبخاري (٦ / ٤١٥ / ٣٢٨٣)، ومسلم (٢ / ١٠٥٨ / ١٤٣٤)، وأبو داود (٢ / ٦١٧ / ٢١٦١)، والترمذي ٣ / ٤٠١ / ١٠٩٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥ / ٣٢٧ / ٩٠٣٠)، وابن ماجه (١ / ٦١٨ / ١٩١٩).

قلت: أما قصره على الصرع وحده فليس بشيء؛ لأنه تحكم بغير دليل مع صلاحية اللفظ له ولغيره، وأما القول الثاني ففاسد بدليل قوله ﷺ: «**كل مولود يطعن الشيطان في خاصرته إلا ابن مريم؛ فإنه جاء يريد أن يطعنه فطعن في الحجاب**»[١] هذا يدل على الناجي من هذا الطعن إنما هو عيسى وحده ﵇، وذلك لخصوص دعوة أم مريم، حيث قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٢] ثم إن طعنه ليس بضرر، ألا ترى أنه قد طعن كثيرًا من الأولياء والأنبياء ولم يضرهم ذلك.

ومقصود هذا الحديث والله تعالى أعلم: أن الولد الذي يقال له ذلك يحفظ من إضلال الشيطان وإغوائه، ولا يكون للشيطان عليه سلطان؛ لأنه يكون من جملة العباد المحفوظين؛ المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٣] وذلك ببركة نية الأبوين الصالحين، وبركة اسم الله تعالى؛ والتعوذ به والالتجاء إليه، وكأن هذا شوب من قول أم مريم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ولا يفهم من هذا نفي وسوسته وتشعيثه وصرعه؛ فقد يكون كل ذلك، ويحفظ الله تعالى ذلك الولد من ضرره في قلبه ودينه، وعاقبة أمره والله تعالى أعلم»[٤].

قال الحافظ: «واختلف في الضرر المنفي بعد الاتفاق على ما نقل عياض على عدم الحمل على العموم في أنواع الضرر، وإن كان ظاهرا في الحمل على عموم الأحوال من صيغة النفي مع التأبيد، وكان سبب ذلك ما تقدم في بدء الخلق: «**إن كل بني آدم يطعن الشيطان في بطنه حين يولد**»، إلا من استثنى. فإن في هذا الطعن نوع ضرر في الجملة، مع أن ذلك سبب صراخه، ثم اختلفوا فقيل: المعنى لم يسلط عليه من أجل بركة التسمية، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، ويؤيده مرسل الحسن المذكور، وقيل: المراد لم يطعن في بطنه، وهو بعيد لمنابذته ظاهر الحديث المتقدم، وليس تخصيصه بأولى من

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ٥٢٣)، والبخاري (٦ / ٤١٥ / ٣٢٨٦) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) آل عمران: الآية (٣٦). (٣) الإسراء: الآية (٦٥).

(٤) المفهم (٤ / ١٥٩و١٦٠).

تخصيص هذا، وقيل: المراد لم يصرعه، وقيل: لم يضره في بدنه، وقال ابن دقيق العيد: يحتمل أن لا يضره في دينه أيضًا، ولكن يبعده انتفاء العصمة، وتعقب بأن اختصاص من خص بالعصمة بطريق الوجوب، لا بطريق الجواز، فلا مانع أن يوجد من لا يصدر منه معصية عمدا، وإن لم يكن ذلك واجبا له.

وقال الداودي: معنى «لم يضره» أي: لم يفتنه عن دينه إلى الكفر، وليس المراد عصمته منه عن المعصية، وقيل: لم يضره بمشاركة أبيه في جماع أمه، كما جاء عن مجاهد: (إن الذي يجامع ولا يسمي يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه)، ولعل هذا أقرب الأجوبة، ويتأيد الحمل على الأول بأن الكثير ممن يعرف هذا الفضل العظيم يذهل عنه عند إرادة المواقعة، والقليل الذي قد يستحضره ويفعله، لا يقع معه الحمل، فإذا كان ذلك نادرا لم يبعد»[(١)].

وقال أيضًا: «فيه الاعتصام بذكر اللَّه تعالى، ودعائه من الشيطان، والتبرك باسمه، والاستعاذة به من جميع الأسواء، وفيه الاستشعار بأنه الميسر لذلك العمل والمعين عليه، وفيه إشارة إلى أن الشيطان ملازم لابن آدم لا ينطرد عنه إلا إذا ذكر الله»[(٢)].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللَّه ولينته**»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائده في سورة (الإسراء) عند قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾[(٤)].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا اللَّه وحده لا**

(١) فتح الباري (٩ / ٢٨٥و٢٨٦).
(٢) فتح الباري (٩ / ٢٨٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٣١)، والبخاري (٦ / ٤١٣-٤١٤ / ٣٢٧٦)، ومسلم (١ / ١١٩ / ١٣٤)، وأبو داود (٥ / ٩١-٩٢ / ٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦ / ١٧٠ / ١٠٤٩٩).
(٤) الإسراء: الآية (٦٤).

شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك»[١].

★ غريب الحديث:

عدل: العدل بالفتح ما عدل الشيء من غير جنسه، وبالكسر المثل.

حرزا: الحرز بالكسر العوذة، والموضع الحصين.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره اللَّه عليه»[٢].

قال القرطبي: «قوله: **«وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي»** يعني أن اللَّه تعالى يحفظه من الشيطان في ذلك اليوم فلا يقدر منه على زلة، ولا وسوسة ببركة تلك الكلمات.

قلت: وهذه الأجور العظيمة، والعوائد الجمة إنما تحصل كاملة لمن قام بحق هذه الكلمات، فأحضر معانيها بقلبه، وتأملها بفهمه، واتضحت له معانيها، وخاض في بحار معرفتها، ورتع في رياض زهرتها»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٠٢)، والبخاري (٦ / ٤١٧ / ٣٢٩٣)، ومسلم (٤ / ٢٠٧١ / ٢٦٩١)، والترمذي (٥ / ٤٧٨-٤٧٩ / ٣٤٦٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦ / ١١ / ٩٨٥٣)، وابن ماجه (٢ / ١٢٤٨ / ٣٧٩٨).

(٢) بدائع الفوائد (٢ / ٢٦٩).

(٣) المفهم (٧ / ٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ من قد سلبه اللَّه استماع حججه التي احتجّ بها في هذا الكتاب فأصمه عنه، أو تهدي إلى طريق الهدى من أعمى اللَّه قلبه عن إبصاره، واستحوذ عليه الشيطان، فزين له الردى ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: أو تهدي من كان في جور عن قصد السبيل، سالك غير سبيل الحقّ، قد أبان ضلاله أنه عن الحقّ زائل، وعن قصد السبيل جائر: يقول -جل ثناؤه-: ليس ذلك إليك، إنما ذلك إلى اللَّه الذي بيده صرف قلوب خلقه كيف شاء، وإنما أنت منذر، فبلغهم النذارة»[1].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي، وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى، وما أحسن هذا الترتيب، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى، فإذا واظب على تلك الحالة أيامًا أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية، روي أنه ﷺ كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغي، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٥و٢١٦).

قال ابن عطية: «لما ذكر تعالى حال الكفرة في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب، اقتضى ذلك أن تشفق النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن عتوها وإعراضها عن أمر اللَّه، رجعت المخاطبة إلى محمد ﷺ على جهة التسلية له عنهم وشبههم بـ(الصم) و(العمي)، إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئًا.

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يريد بذلك قريشًا بأنفسهم، ولذلك لم يقل: «من كان» بل جاء بالواو العاطفة، كأنه يقول: وهؤلاء، ويؤيد ذلك أيضًا عود الضمير عليهم في قوله: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم﴾ ولم يجر لهم ذكر إلا في قوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾»[1].

قال السعدي: «يقول تعالى لرسوله ﷺ مسليا له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: الذين لا يسمعون ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الذين لا يبصرون، أو تهدي ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضلالا مبينا لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم، بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى، فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة»[2].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٥ / ٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الوعيد فقال بعضهم: عني به أهل الإسلام من أمة نبينا عليه الصلاة والسلام.. وقال آخرون: بل عني به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد رأى اللَّه نبيه عليه الصلاة والسلام فيهم.. وهذا القول الثاني أولى التأويلين في ذلك بالصواب، وذلك أن ذلك في سياق خبر اللَّه عن المشركين، فلأن يكون ذلك تهديدا لهم أولى من أن يكون وعيدا لمن لم يجر له ذكر.

فمعنى الكلام: إذ كان ذلك كذلك فإن نذهب بك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين، فنخرجك من بينهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذّبة رسلها. ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يا محمد من الظفر بهم، وإعلائك عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أن نظهرك عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك»[1].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ الآية تتضمن وعيدًا واقعًا، وذهب جمهور العلماء إلى أن المتوعدين هم الكفار، وأن اللَّه تعالى أرى نبيه الذي توعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب الحسن وقتادة إلى أن المتوعدين هم في هذه الأمة، وأن اللَّه تعالى أكرم نبيه على أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته، فوقعت النقمة منهم بعد أن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٥و٧٦).

(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٥٦).

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم، وبين له أنه على صراط مستقيم؛ أي: طريق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم، الذي أوحي إليه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، قد جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه.

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم، فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة (الكهف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[1].

وأما إخباره له ﷺ بأنه على صراط مستقيم فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

وآية الزخرف هذه تدل على أن التمسك بهذا القرآن على هدى من اللَّه، وهذا معلوم بالضرورة»[7].

قال محمد المكي الناصري: «بين كتاب اللَّه أن الحق سبحانه وتعالى قادر على الانتقام من خصوم الرسالة، حتى لو انقطعت عنهم الرسالة بحلول أجل الرسول، وأن تملصهم من الاستجابة لها لا يغنيهم شيئا، كما أنه سبحانه قادر على أن يطيل حياة رسوله حتى يريه رأي العين ما يصيبهم من هزيمة وخذلان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) الكهف: الآية (٢٧).
(٢) الجاثية: الآية (١٨).
(٣) الشورى: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٧٣و٧٤).
(٥) الحج: الآية (٦٧).
(٦) النمل: الآية (٧٩).
(٧) أضواء البيان (٧ / ٢٥٣و٢٥٤).

وفي هذه الغمرة من غمرات الكفاح ضد الشرك والمشركين يتوجه كتاب اللَّه تعالى إلى الرسول ﷺ مخاطبا إياه، وموصيا له بالثبات على ما جاء به من عند اللَّه، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ وهذه دعوة إلى المزيد من الثبات والصمود، وعدم التبرم والضجر، والتصلب في الحق والدفاع عنه إلى آخر رمق، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تأكيدا لما عليه الرسول من ثبات في الفؤاد، ورسوخ في الاعتقاد، فكتاب اللَّه هو المفضي إلى صراط اللَّه المستقيم، والموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، وهذا الخطاب موجه أيضًا بالتبع إلى كل مسلم ومسلمة في القديم والحديث»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مكانة النبي ﷺ

* عن أنس رضي الله عنه قال: «ذهب رسول اللَّه ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير اللَّه نبيه ﷺ في أمته شيئًا يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ»[٢].

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[٣].

★ غريب الحديث:

أمنة: بفتح الهمزة والميم، والأمن والأمان: ضد الخوف.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «وقوله: «**النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد**» يعني في القيامة أنها حينئذ يلحقها الانفطار والتغيير وهلاك

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٥ / ٤٧٦و٤٧٧).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٤٧) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢ / ١٩٧)، وابن جرير (١٣ / ٧٥) عن قتادة مرسلا.

(٣) أخرجه: أحمد (٤ / ٣٩٨و٣٩٩)، ومسلم (٤ / ١٩٦١ / ٢٥٣١).

سكانها، عند تناثر النجوم منها، وإنما هذا تمثيل لقوله بعده: «**وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون**» يريد من الفتن وارتداد من ارتد من الأعراب وجهلة الناس واختلاف قلوبهم، وهو ما أنذر به عليه الصلاة والسلام بقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**»(١) وقوله: «**لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعدك**»(٢) يعني أهل الردة»(٣).

قال ابن حبان: «يشبه أن يكون معنى هذا الخبر أن اللَّه -جل وعلا- جعل النجوم علامة لبقاء السماء وأمنة لها عن الفناء، فإذا غارت واضمحلت أتى السماء الفناء الذي كتب عليها، وجعل اللَّه -جل وعلا- المصطفى أمنة أصحابه من وقوع الفتن، فلما قبضه اللَّه -جل وعلا- إلى جنته أتى أصحابه الفتن التي أوعدوا، وجعل اللَّه أصحابه أمنة أمته من ظهور الجور فيها، فإذا مضى أصحابه أتاهم ما يوعدون من ظهور غير الحق من الجور والأباطيل»(٤).

قال ابن الأثير: «والإشارة في الجُملة إلى مجيء الشَّر عند ذهاب أهل الخير، فإنه لما كان بين أظْهُرِهم كان يُبَيّن لهم ما يختلفون فيه، فلما تُوُفّي جالَت الآراء واخْتلفت الأهْواء، فكان الصحابة ﷺ يُسْنِدُون الأمْر إلى الرسول ﷺ في قولٍ أو فعْل أو دلالة حَال، فلما فُقِد قلَّت الأنوار، وقوِيت الظُّلَم. وكذلك حال السماء عند ذَهاب النُّجوم»(٥).

قال النووي: «قوله: ﷺ: «**وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**» معناه: من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك، وهذه كلها من معجزاته ﷺ»(٦).

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ٨٧)، والبخاري (١٠ / ٦٧٦ / ٦١٦٦)، ومسلم (١ / ٨٢ / ٦٦)، وأبو داود (٥ / ٣٦ / ٤٦٨٦)، والنسائي (٧ / ١٤٣ / ٤١٣٦)، وابن ماجه (٢ / ١٣٠٠ / ٣٩٤٣)، من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (١ / ٢٣٥)، والبخاري (٨ / ٣٦٣ / ٤٦٢٥)، ومسلم (٤ / ٢١٩٤و٢١٩٥ / ٢٨٦٠[٥٨])، والنسائي (٤ / ٤٢٣ / ٢٠٨٦).

(٣) الإكمال (٧ / ٥٦٨).

(٤) صحيح ابن حبان الإحسان (١٦ / ٢٣٥).

(٥) النهاية (١ / ٧٠و٧١).

(٦) شرح مسلم (١٦ / ٦٨).

وقال ابن القيم: «وجه الاستدلال بالحديث أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء، ومن المعلوم أن هذا التشبيه يعطي من وجوب اهتداء الأمة بهم ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم ﷺ، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم، وأيضًا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أمنة لهم وحرزا من الشر وأسبابه، فلو جاز أن يخطئوا فيما أفتوا به ويظفر به من بعدهم لكان الظافرون بالحق أمنة للصحابة وحرزا لهم، وهذا من المحال»[1].

* * *

(١) إعلام الموقعين (٤ / ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا القرآن الذي أوحي إليك يا محمد الذي أمرناك أن تستمسك به لشرف لك ولقومك من قريش ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ يقول: وسوف يسألك ربك وإياهم عما عملتم فيه، وهل عملتم بما أمركم ربكم فيه، وانتهيتم عما نهاكم عنه فيه؟»[١].

قال الرازي: «ولما بيّن تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين بيّن أيضًا تأثيره في منافع الدنيا فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ أي: إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال إن هذا الكتاب العظيم أنزله اللّٰه على رجل من قوم هؤلاء، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن والذكر الجميل، ولو لم يكن الذكر الجميل أمرًا مرغوبًا فيه لما منَّ اللّٰه به على محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[٢] ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة؛ بل الذكر أفضل من الحياة؛ لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل في كل مكان وفي كل زمان»[٣].

قال القرطبي: «يعني: القرآن شرف لك ولقومك من قريش، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيره: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾[٤] أي: شرفكم. فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم، لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عني به من الأمر والنهي، وجميع ما فيه من الأنباء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات، ولذلك سمي عربيا. وقيل: بيان لك

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٦).
(٢) الشعراء: الآية (٨٤).
(٣) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٦).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠).

ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به. وقيل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم»[١].

قال ابن العربي: «والأقوى أن يكون المراد بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ يعني القرآن؛ فعليه ينبني الكلام وإليه يرجع الضمير»[٢].

قال ابن عاشور: «ذكر حظ الرسول ﷺ من الثناء والتأييد في قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ المجعول علة للأمر بالثبات عليه، ثم عُطف عليه تعليل آخر اشتمل على ذكر حظ القرآن من المدح، والنفع بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾، وتشريفه به بقوله: ﴿لَّكَ﴾ وأتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء والانتفاع بقوله: ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ﴾. ثم عَرَّض بالمعرضين عنه والمجافين له بقوله: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، مع التوجيه في معنى كلمة ذِكر من إرادة أن هذا الدّين يكسبه ويكسب قومه حُسن السمعة في الأمم فمن اتبعه نال حظه من ذلك، ومن أعرض عنه عدّ في عداد الحمقى كما سيأتي، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال. فهذه الآية اشتملت على عشرة معان، وبذلك كانت أوفر معانيَ من قول امرئ القيس:

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومَنزل

المعدود أبلغ كلام من كلامهم في الإيجاز، إذ وقَف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مِصراع. وهذه الآية لا تتجاوز مقدار ذلك المِصراع، وعِدة معانيها عشرة في حين كانت معاني مصراع امرئ القيس ستة مع ما تزيد به هذه الآية من الخصوصيات، وهي التأكيد بـ(إنَّ) واللام والكناية ومحسِّن التوجيه»[٣].

قال محمد المكي الناصري: «وإمعانًا في تكريم الرسول والرسالة، وإنعامًا عليه بأعلى درجات التوقير والجلالة، خاطبه ربه قائلًا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ وكلمة الذكر هنا تحتمل معنين لا تعارض بينهما، فكتاب اللَّه يتضمن تذكير الرسول وتذكير عشيرته الأقربين، كما يتضمن تذكير الناس أجمعين، مصداقا لقوله تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٩٣). (٢) أحكام القرآن (٤ / ١٦٨٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٢٠و٢٢١).

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾[1] وكتاب اللَّه في نفس الوقت هو شرف للرسول الذي اصطفاه اللَّه لرسالته، وشرف لقومه ولغته، وشرف لمجموع أمته، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[2].

ولما كان السابقون الأولون أفهم الناس لكتاب اللَّه كانوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: سوف تسألون عن هذا القرآن هل قمتم بحقه، وشكرتم اللَّه على أن خصكم به؟ ومن هنا كان فهم اللسان العربي المبين أكبر عون على فهم الدين، والتمسك به عن بينة ويقين، فهذه الآية الكريمة عند نزولها تنبأت بما سيؤول إليه أمر رسالة الإسلام التي حملها إلى الخلق رسول الهدى والحق، وأن هذه الرسالة سيكون لها وله بفضلها ذكر خالد في العالمين، وسيستمر هذا الذكر العاطر إلى يوم الدين ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن أمراء الخلافة العظمى من قريش

* عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده في وفد من قريش أن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان، فغضب معاوية فقام فأثنى على اللَّه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه بلغني أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب اللَّه، ولا تؤثر عن رسول اللَّه ﷺ فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه اللَّه على وجهه ما أقاموا الدين**»[5].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «إن قريشا كانت في الجاهلية رؤساء العرب وقادتها؛ لأنهم أهل

(١) الأنبياء: الآية (١٠).
(٢) الشرح: الآية (٤).
(٣) الزخرف: الآية (٦٢).
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٥ / ٤٧٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٤ / ٩٤)، والبخاري (٦ / ٦٦١ / ٣٥٠٠)، والنسائي في الكبرى (٥ / ٢٢٨ / ٨٧٥٠).

البيت والحرم، حتى كانت العرب تسميهم: أهل اللّه، وإليهم كانوا يرجعون في أمورهم، ويعتمدون عليهم فيما ينوبهم، ولذلك توقف كثير من العرب عن الدخول في الإسلام قبل أن تدخل فيه قريش، فلما أسلموا؛ ودخلوا فيه؛ أطبقت العرب على الدخول في الدين بحكم أنهم كانوا لهم تابعين، ولإسلامهم منتظرين. كذا ذكره ابن إسحاق وغيره.. ثم لما جاء الإسلام استقر أمر الخلافة والملك في قريش شرعا ووجودا. ولذلك قالت قريش يوم السقيفة للأنصار: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء. قال عمر في كلامه: إن هذا الأمر لا تعرفه الناس إلا لهذا الحي من قريش. فانقادوا لذلك، ولم يخالف فيه أحد. وهو إجماع السلف والخلف. ولا اعتبار بقول النظام، ولا ضرار بن عمرو، وأهل البدع من الخوارج، وغيرهم؛ إذ قالوا بجواز صحتها لغير قريش؛ لأنهم إما مكفر، وإما مفسق. ثم إنهم مسبوقون بإجماع السلف، ومحجوجون بهذه الأحاديث الكثيرة الشهيرة»[1].

قال القاضي عياض: «هذه الأحاديث وما في معناها في هذا الباب حجة أن الخلافة في قريش وهو مذهب كافة المسلمين وجماعتهم وقد عدها الناس في مسائل الإجماع إذ لم يؤثر عن أحد من السلف فيها خلاف»[2].

قال ابن بطال: «هذا يرد قول النظام وضرار ومن وافقهما من الخوارج أن الإمام ليس من شرطه أن يكون قرشيا، قالوا: وإنما استحق الإمامة من كان قائما بالكتاب والسنة من أفناء الناس من العجم وغيرهم. قال ضرار: وإن اجتمع رجلان: قرشي ونبطي ولينا النبطي، لأنه أقل عشيرة، فإذا عصى اللّه وأردنا خلعه كانت شوكته علينا أهون. قال أبو بكر بن الطيب: وهذا قول ساقط لم يعرج المسلمون عليه، وقد ثبت عن النبي أن الخلافة في قريش، وعمل بذلك المسلمون قرنا بعد قرن، فلا معنى لقولهم.. ومما يشهد لصحة هذه الأحاديث احتجاج أبي بكر وعمر بها على رؤوس الأنصار في السقيفة، وما كان من إذعان الأنصار، وخنوعهم لها عند سماعها وإذكارهم بها حتى قال سعد بن عبادة: منا الوزراء، ومنكم الأمراء. ورجعت الأنصار عما كانوا عليه حين تبين لهم الحق بعد أن نصبوا الحرب، وقال الحباب بن المنذر: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب. وانقادوا لأبي بكر

---

(١) المفهم (٤ / ٥-٦).

(٢) الإكمال (٦ / ٢١٤).

مذعنين[١]. ولولا علمهم بصحة هذه الأخبار لم يلبثوا أن يقدحوا فيها، ويتعاطوا ردها، ولا كانت قريش بأسرها تقر كذبا يدعى عليها، لأن العادة جرت فيما لم يثبت من الأخبار أن يقع الخلاف والقدح فيها عند التنازع، ولا سيما إذا احتج به في هذا الأمر العظيم مع إشهار السيوف، واختلاط القول.

ومما يدل على كون الإمام قرشيا اتفاق الأمة في الصدر الأول وبعده من الأعصار على اعتبار ذلك في صفة الإمام قبل حدوث الخلاف في ذلك، فثبت أن الحق في اجتماعها وإبطال قول من خالفها»[٢].

قال الحافظ: «وأما ما احتج به من لم يعين الخلافة في قريش من تأمير عبد اللَّه بن رواحة، وزيد بن حارثة، وأسامة وغيرهم في الحروب، فليس من الإمامة العظمى في شيء، بل فيه أنه يجوز للخليفة استنابة غير القرشي في حياته واللَّه أعلم، واستدل بحديث ابن عمر على عدم وقوع ما فرضه الفقهاء من الشافعية وغيرهم أنه إذا لم يوجد قرشي يستخلف كناني، فإن لم يوجد فمن بني إسماعيل، فإن لم يوجد منهم أحد مستجمع الشرائط فعجمي، وفي وجه جرهمي، وإلا فمن ولد إسحاق، قالوا: وإنما فرض الفقهاء ذلك على عادتهم أن ذكر ما يمكن أن يقع عقلا، وإن كان لا يقع عادة أو شرعا، قلت: والذي حمل قائل هذا القول عليه أنه فهم منه الخبر المحض، وخبر الصادق لا يتخلف، وأما من حمله على الأمر فلا يحتاج إلى هذا التأويل»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «وفي إنكار معاوية ذلك نظر؛ لأن الحديث الذي استدل به مقيد بإقامة الدين، فيحتمل أن يكون خروج القحطاني إذا لم تقم قريش أمر الدين وقد وجد ذلك، فإن الخلافة لم تزل في قريش والناس في طاعتهم إلى أن استخفوا بأمر الدين فضعف أمرهم وتلاشى إلى أن لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد في بعض الأقطار دون أكثرها»[٤].

وانظر بقية مباحث الخلافة في تفسير سورة (قريش).

---

(١) حديث السقيفة أخرجه بتمامه: أحمد (١ / ٥٥)، والبخاري (١٢ / ١٧٤ / ٦٨٣٠)، وأخرجه مختصرًا مقتصرًا فيه على قصة الرحم مسلم (٣ / ١٣١٧ / ١٦٩١)، وأبو داود (٤ / ٥٧٢-٥٧٣ / ٤٤١٨)، والنسائي في الكبرى (٤ / ٢٧٣-٢٧٤ / ٧١٥٧).

(٢) شرح البخاري (٨ / ٢١٠و٢١٢).

(٣) فتح الباري (١٣ / ١٤٩).

(٤) فتح الباري (٦ / ٦٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ ومن الذين أمر رسول اللَّه ﷺ بمسألتهم ذلك فقال بعضهم: الذي أمر بمسألتهم ذلك رسول اللَّه ﷺ مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل..

وقال آخرون: بل الذين أمر بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جمعوا له ليلة أسري به ببيت المقدس..

وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني به: سل مؤمني أهل الكتابين.

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يقال: سل الرسل، فيكون معناه: سل المؤمنين بهم وبكتابهم؟ قيل: جاز ذلك من أجل أن المؤمنين بهم وبكتبهم أهل بلاغ عنهم ما أتوهم به عن ربهم، فالخبر عنهم وعما جاؤوا به من ربهم إذا صحَّ بمعنى خبرهم، والمسألة عما جاؤوا به بمعنى مسألتهم إذا كان المسئول من أهل العلم بهم والصدق عليهم، وذلك نظير أمر اللَّه -جل ثناؤه- إيانا برد ما تنازعنا فيه إلى اللَّه وإلى الرسول، يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1] ومعلوم أن معنى ذلك: فردوه إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، لأن الرد إلى ذلك رد إلى اللَّه والرسول. وكذلك قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ إنما معناه: فاسأل كتب الذين أرسلنا من قبلك من الرسل، فإنك تعلم صحة ذلك من قبلنا، فاستغنى بذكر الرسل من ذكر الكتب، إذ كان معلومًا ما معناه.

وقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ يقول: أمرناهم بعبادة الآلهة من

---

(١) النساء: الآية (٥٩).

دون اللَّه فيما جاءوهم به، أو أتوهم بالأمر بذلك من عندنا»(١).

قال الرازي: «واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد ﷺ ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام، فبيّن تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد ﷺ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره»(٢).

قال السعدي: «﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحدا من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع اللَّه، مع أن كل الرسل من أولهم إلى آخرهم يدعون إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٣) وكل رسول بعثه اللَّه يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(٤)، فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل»(٥).

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا اللَّه، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(٦)، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾(٩)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾(١٠) الآية. إلى غير ذلك من الآيات»(١١).

---

(١) جامع البيان (٢٥/ ٧٧-٧٨).
(٢) التفسير الكبير (٢٧/ ٢١٦-٢١٧).
(٣) النحل: الآية (٣٦).
(٤) الأعراف: الآية (٥٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٥٠-٦٥١).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٧) الأعراف: الآية (٥٩).
(٨) الأعراف: الآية (٦٥).
(٩) الأعراف: الآية (٧٣).
(١٠) الأعراف: الآية (٨٥).
(١١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٤-٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ملئه: أشراف القوم، وقيل القوم يجتمعون على رأي فيملؤون القلوب هيبة، ثم أطلق على كل الجماعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أرسلنا يا محمد موسى بحججنا إلى فرعون وأشراف قومه، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك، فقال لهم موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قلت أنت لقومك من قريش. إني رسول الله إليكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يقول: فلما جاء موسى فرعون وملأه بحججنا وأدلتنا على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه مما جاءهم به موسى من الآيات والعبر يضحكون؛ كما أن قومك مما جئتهم به من الآيات والعبر يسخرون، وهذا تسلية من الله ﷻ نبيه ﷺ عما كان يلقى من مشركي قومه، وإعلام منه له، أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله، وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك كسنته في المتمردين عليه قبلهم، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام، وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه»[1].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٩).

المقام تقرير الكلام الذي تقدم، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرًا عديم المال والجاه، فبيّن اللَّه تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال: إني غني كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولًا من عند اللَّه إلى الملك الكبير الغني، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] وقد أوردها بعينها فرعون على موسى، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم.

والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين: أحدهما: أن الكفار والجهال أبدًا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة، فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها. والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورًا باطلًا، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرًا للقصة البتة، وهذا من نفائس الأبحاث، واللَّه أعلم»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها»[3].

قال ابن عاشور: «قد ذكر اللَّه في أول السورة قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ

---

(١) الزخرف: الآية (٣١).
(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٢٩).

مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾[1]. وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم ﷺ مع قومه، وما تفرع على ذلك من أحوال أهل الشرك، فلما تقضّى أُتبع بتنظير حال الرسول ﷺ مع طغاة قومه واستهزائهم بحال موسى مع فرعون ومَلَئِهِ، فإنَّ للمُثل والنظائر شأنًا في إبراز الحقائق، وتصوير الحالين تصويرًا يفضي إلى ترقب ما كان لإحدى الحالتين من عواقبَ أن تلحق أهلَ الحالة الأخرى، فإن فرعون وملأه تلقَوا موسى بالإسراف في الكُفر وبالاستهزاء به وباستضعافه إذ لم يكن ذا بذخة، ولا محلّى بحلية الثراء، وكانت مناسبة قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[2] الآية هيَّأتْ المقام لضرب المثَل بحال بعض الرّسل الذين جاءوا بشريعة عظمى قبل الإسلام.

والمقصود من هذه القصة هو قوله فيها: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[3]، فإن المراد بالآخرين: المكذبون صناديدُ قريش.

ومن المقصود منها بالخصوص هنا: قولُه: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: عظماء قومه، فإن ذلك شبيه بحال أبي جهل وأضرابه، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ لأن حالهم في ذلك مشابه لحال قريش الذي أشار إليه قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾، وقولُه بعد ذلك: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾[4] لأنهم أشبهوا بذلك حال أبي جهل ونحوه في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ إلاّ أن كلمة سادة قريش كانت أقرب إلى الأدب من كلمة فرعون؛ لأن هؤلاء كان رسولهم من قومهم فلم يتركوا جانب الحياء بالمرة، وفرعون كان رسوله غريبًا عنهم.

وقولُه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[5] لأنه مشابه لما تضمنه قول صناديد قريش ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فإن عظمة ذيْنِك الرجلين كانت بوفرة المال، ولذلك لم يُذكر مثله في غير هذه القصة من قصص بعثة موسى ﷺ، وقولُهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[6] وهو مُضاهٍ لقوله في قريش: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ

---

(١) الزخرف: الآيات (٦-٨).
(٢) الزخرف: الآية (٤٥).
(٣) الزخرف: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٤) الزخرف: الآية (٥٢).
(٥) الزخرف: الآية (٥٣).
(٦) الزخرف: الآية (٤٩).

كَٰفِرُونَ﴾[١]، وقولُه: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[٢] الدالُّ على أن اللَّه أهلكهم كلَّهم، وذلك إنذار بما حصل من استئصال صناديد قريش يوم بدر»[٣].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٣٠).

(٢) الزخرف: الآية (٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٢٣و٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما نري فرعون وملأه آية؛ أي: حجة لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولنا موسى ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يقول: إلا التي نريه من ذلك أعظم في الحجة عليهم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات، وأدل على صحة ما يأمره به موسى من توحيد اللَّه.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ يقول: وأنزلنا بهم العذاب، وذلك كأخذه -تعالى ذكره- إياهم بالسنين، ونقص من الثمرات، وبالجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ليرجعوا عن كفرهم باللَّه إلى توحيده وطاعته، والتوبة مما هم عليه مقيمون من معاصيهم»[١].

قال السعدي: «أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام، ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم»[٢].

قال ابن عاشور: «ومعنى ﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يحتمل أن يراد به أن كل آية تأتي تكون أعظم من التي قبلها، فيكون هنالك صفة محذوفة لدلالة المقام، أي من أختها السابقة، كقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣]، أي كل سفينة صحيحة، وهذا يستلزم أن تكون الآيات مترتبة في العظم بحسب تأخر أوقات ظهورها لأن الإتيان

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٢).
(٣) الكهف: الآية (٧٩).

بآية بعد أخرى ناشئ عن عدم الارتداع من الآية السابقة . .

فالمعنى : وما نريهم من آية إلَّا وهي آية جليلة الدلالة على صدق الرسول ﷺ تكاد تنسيهم الآية الأخرى»[1] .

قال الشنقيطي : «قوله تعالى : ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لم يبين هنا نوع العذاب الذي أخذهم به ، ولكنه أوضحه في (الأعراف) في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[3] الآية»[4] .

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) الأعراف : الآيتان (١٣٢و١٣٣).

(٣) الأعراف : الآية (١٣٠).

(٤) أضواء البيان (٧ / ٢٥٥).

قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

★ غريب الآية:

ينكثون : ينقضون . يقال : نكث العهد والحبل : نقضه .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : وقال فرعون وملؤه لموسى : ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ وعنوا بقولهم : ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده الذي عهد إليك أنا إن آمنا بك واتبعناك كُشف عنا الرِّجز . . إن قال لنا قائل : وما وجه قيلهم : ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ، وكيف سموه ساحرا وهم يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب؟ قيل : إن الساحر كان عندهم معناه : العالم، ولم يكن السحر عندهم ذما ، وإنما دعوه بهذا الاسم، لأن معناه عندهم كان : يا أيها العالم .

وقوله : ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ يقول : قالوا : إنا لمتبعوك فمصدّقوك فيما جئتنا به، وموحدو الله فمبصرو سبيل الرشاد»[1] .

وقال أيضًا : «وقوله : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ إننا لمهتدون يقول -تعالى ذكره- : فلما رفعنا عنهم العذاب الذي أنزلنا بهم، الذي وعدوا أنهم إن كشف عنهم اهتدوا لسبيل الحق، إذا هم بعد كشفنا ذلك عنهم ينكثون العهد الذي عاهدونا يقول : يغدرون ويصرّون على ضلالهم، ويتمادون في غيهم»[2] .

قال الرازي : «فإن قيل : كيف سموه بالساحر مع قولهم : ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر : ساحر، لأنهم

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٧٩و٨٠) .

(٢) جامع البيان (٢٥ / ٨٠) .

كانوا يستعظمون السحر، وكما يقال في زماننا في العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر. الثاني: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ في زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾[1] أي: نزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه. الثالث: أن قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وقد كانوا عازمين على خلافه، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾ فتسميتهم إياه بالسحر لا ينافي قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ثم بيّن تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد»[2].

قال السعدي: «﴿وَقَالُواْ﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما خصك اللّه به، وفضلك به من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف اللّه عنا ذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[3]»[4].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أوضحه في الأعراف بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥﴾. والرجز المذكور في الأعراف هو بعينه العذاب المذكور في آية الزخرف هذه»[5].

---

(١) الحجر: الآية (٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٩).

(٣) الأعراف: الآيات (١٣٣-١٣٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٢و٦٥٣).

(٥) أضواء البيان (٧ / ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ من القبط، ف﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعنى بقوله: ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾: من بين يدي في الجنان..

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تبصرون أيها القوم ما أنا فيه من النعيم والخير، وما فيه موسى من الفقر وعيّ اللسان، افتخر بملكه مصر عدوّ اللَّه، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجا من اللَّه له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجًا على جهلة قومه بأن موسى ﷺ لو كان محقًا فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحرا، لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك جهلا باللَّه واغترارًا منه بإملائه إياه»[1].

قال الرازي: «ولما حكى اللَّه تعالى معاملة فرعون مع موسى، حكى أيضًا معاملة فرعون معه فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني الأنهار التي فصلوها من النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

(١) جامع البيان (٢٥ / ٨٠و٨١).
(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢١٩).

وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ . . ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؛ أي: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾[1]»[2].

* * *

(١) النازعات: الآيات (٢٣-٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

★ غريب الآية:

مهين: حقير ضعيف.

يبين: يفصح الكلام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقوله -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم، أم هذا الذي هو مهين، لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟»[1].

قال السعدي: «يعني -قبحه الله- بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجيه عند اللَّه؛ أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر، فأينا خير؟ ومع هذا فإنه ﴿لَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلا عليه الكلام»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٣و٦٥٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أسورة: جمع سوار، وهو ما تجعله المرأة في معصمها من الحلي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ يقول: فهلا ألقي على موسى إن كان صادقًا أنه رسول رب العالمين أسورة من ذهب، وهو جمع سوار، وهو القلب الذي يجعل في اليد..

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يقول: أو هلا إن كان صادقًا جاء معه الملائكة مقترنين قد اقترن بعضهم ببعض، فتتابعوا يشهدون له بأنه لله رسول إليهم»[١].

قال الرازي: «المراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحدًا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة، -ثم ذكر اختلاف القراء في حرف أسورة وقال-: قال الزجاج معناه: يمشون معه فيدلون على صحة نبوته»[٢].

قال القرطبي: «والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب. فأوهم قومه أن رسل اللَّه ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يعلم أن رسل اللَّه إنما أيدوا بالجنود السماوية، وكل عاقل يعلم أن حفظ اللَّه موسى مع تفرده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٨٢و٨٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢٠).

أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانا -في قول مقاتل- أو دليلًا على صدقه -في قول الكلبي- وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف، وقد كان في الجائز أن يكذب مع مجيء الملائكة كما كذب مع ظهور الآيات. وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى، لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم»[١].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٠و١٠١).

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾

★غريب الآية:

استخف قومه: استجهلهم. وقيل: استفزهم بالقول فأطاعوه على التكذيب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاستخفّ فرعون خلقا من قومه من القبط، بقوله الذي أخبر اللَّه -تبارك وتعالى- عنه أنه قال لهم، فقبلوا ذلك منه فأطاعوه، وكذّبوا موسى، قال الله: وإنما أطاعوا فاستجابوا لما دعاهم إليه عدوّ اللَّه من تصديقه، وتكذيب موسى، لأنهم كانوا قوما عن طاعة اللَّه خارجين بخذلانه إياهم، وطبعه على قلوبهم»[1].

قال السعدي: «أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلا على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل على أن فرعون محق، في كون ملك مصر له، وأنهارها تجري من تحته؟ وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية أمه له بأساور من ذهب، ولكن فرعون لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ فبسبب فسقهم، قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر»[2].

قال المراغي: «ذكر أن هذه الخدع قد انطلت عليهم، وسحرت ألبابهم، لغفلتهم وضعف عقولهم، فاعترفوا بربوبيته وكذبوا بنبوة موسى فقال: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ أي: فاستخف أحلامهم بقوله وكيده،

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٨٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٤).

وبما أبداه من عظمة الملك والرياسة، وجعلها مناطا للعلم والنبوة، وأنه لو كانت هناك نبوة لكان أولى بها، فأطاعوه فيما أمرهم؛ لأنهم كانوا قوما ذوي ضلال وغي، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة الفاسق الغوي»[١].

قال ابن عاشور: «فتفرع عن نداء فرعون قومَه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئِه فعجَّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا الآيات. فالخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخِف الشيء بعد التثاقل.

والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدّقوا موسى في نفوسهم لمّا رأوا آياته نزولًا ورفعًا. والمراد بـ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون..

والمعنى: أنهم إنما خَفُّوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر؛ لأنهم كانوا يؤلِّهُون فرعون، فلما حصل لهم تردّد في شأنه ببعثة موسى ﷺ لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب»[٢].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٥ / ١٠٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٣٣و٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾

★ **غريب الآية:**

آسفونا: أغضبونا. من الأسف، وهو الغضب والحزن معًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وقوم فرعون لم يهلكهم بكفرهم السابق بموسى حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحكم بغيهم وعنادهم، فحينئذ أهلكوا، وكذلك قوم لوط، لما أراد هلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف، فقصدوهم بالفاحشة، ونالوا من لوط وتواعدوه، وكذلك سائر الأمم إذا أراد اللَّه هلاكها أحدث لها بغيا وعدوانا يأخذها على أثره، وهذه عادته مع عباده عموما وخصوصا، فيعصيه العبد وهو يحلم عنه ولا يعاجله، حتى إذا أراد أخذه قيض له عملا يأخذه به مضافا إلى أعماله الأولى، فيظن الظان أنه أخذه بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك، وكان قبل ذلك لم يحق عليهم القول بأعماله الأولى، حيث عمل ما يقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم يحكم به أحكم الحاكمين، ولم يمض الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب عليه أمضى حكمه عليه وأنفذه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله، ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم، إذ كان بصدد أن يزول بإيمانهم، فلما أيس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم فحلت العقوبة»[1].

قال ابن عثيمين: «﴿ءَاسَفُونَا﴾ يعني أغضبونا وأسخطونا، و(لما) هنا شرطية، فعل الشرط فيها: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ وجوابه: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إن

---

(١) شفاء العليل (١ / ١٤٤).

المراد بالسخط والغضب الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات اللَّه يتصف بها هو نفسه، فيقولون: غضبه أي: انتقامه، أو إرادة انتقامه، فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن اللَّه، وهو الانتقام، أو بالإرادة لأنهم يقرون بها، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة تليق به.

ونحن نقول لهم: بل السخط والغضب غير الانتقام؛ والانتقام نتيجة الغضب والسخط، كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضا، فاللَّه سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

وإذا قالوا: إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله ﷻ، فإننا نجيبهم بما سبق في صفة الرضى؛ لأن الباب واحد. ونقول: بل العقل يدل على السخط والغضب؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلا على الرضى، ولا على انتفاء الغضب والسخط.

ونقول: هذه الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ ترد عليكم؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب؛ لأن الشرط غير المشروط.

مسألة: بقي أن يقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ نحن نعرف أن الأسف هو الحزن والندم على شيء مضى على النادم لا يستطيع رفعه، فهل يوصف اللَّه بالحزن والندم؟

الجواب: لا، ونجيب عن الآية بأن الأسف في اللغة له معنيان: المعنى الأول: الأسف بمعنى الحزن، مثل قوله تعالى عن يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾[1] ويطلق الأسف على الغضب، فيقال: أسف عليه يأسف؛ بمعنى غضب عليه.

والمعنى الأول: ممتنع بالنسبة لله ﷻ. والثاني: مثبت لله؛ لأن اللَّه تعالى وصف به نفسه، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ وفي الآية من صفات اللَّه الغضب والانتقام»[2].

---

(١) يوسف: الآية (٨٤).

(٢) شرح الواسطية (١ / ٢٧٠و٢٧١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في استدراج اللَّه للعبد وأخذه له بالعقوبة

* عن عقبة بن عامر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا رأيت اللَّه ﷻ يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥﴾[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: ««استدراج» أي: أخذ بتدريج واستنزال من درجة إلى أخرى، فكلما فعل معصية قابلها بنعمة، وأنساه الاستغفار، فيدنيه من العذاب قليلًا قليلًا ثم يصبه عليه صبًّا.

قال إمام الحرمين: «إذا سمعت بحال الكفار وخلودهم في النار فلا تأمن على نفسك، فإن الأمر على خطر، فلا تدري ماذا يكون وما سبق لك في الغيب، ولا تغتر بصفاء الأوقات، فإن تحتها غوامض الآفات..

والاستدراج الأخذ بالتدريج لا مباغتة. والمراد هنا تقريب اللَّه العبد إلى العقوبة شيئًا فشيئًا، واستدراجه تعالى للعبد أنه كلما جدد ذنبًا جدد له نعمة، وأنساه الاستغفار، فيزداد أشرًا وبطرًا، فيندرج في المعاصي بسبب تواتر النعم عليه، ظانًّا أن تواترها تقريب من اللَّه، وإنما هو خذلان وتبعيد»[2].

* * *

---

(١) أخرجه: الروياني في مسنده (١ / ١٩٥ / ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠ / ٣٢٨٣-٣٢٨٤)، وأخرجه أحمد (٤ / ١٤٥)، والطبراني (١٧ / ٣٣٠-٣٣١ / ٩١٣-٩١٤)، والبيهقي في الشعب (٤ / ١٢٨ / ٤٥٤٠)، إلا أن فيه: ثم تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾: الآية (٤٤) من سورة (الأنعام).

(٢) الفيض (١ / ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

* **غريب الآية:**

سلفا: السلف: المتقدم. يقال: سَلَفَ يسْلفُ سَلَفًا؛ أي: تقدم ومضى، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون.

مثلا: عظة وعبرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فجعلنا هؤلاء الذين أغرقناهم من قوم فرعون في البحر مقدمة يتقدمون إلى النار كفار قومك يا محمد من قريش، وكفار قومك لهم بالأثر.. وقوله: ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ يقول: وعبرة يتعظ بهم من بعدهم من الأمم، فينتهوا عن الكفر بالله»[1].

قال ابن عاشور: «أي: جعلناهم عبرة للآخرين يعلمون أنهم إن عملوا مثل عملهم أصابهم مثلُ ما أصابهم. ويجوز أن يكون المثل هنا بمعنى الحديث العجيب الشأن الذي يسير بين النّاس مسيرَ الأمثالِ؛ أي: جعلناهم للآخرين حديثًا يتحدثون به وَيَعِظُهُمْ به محدّثهم.

ومعنى الآخرين: النّاس الذين هم آخر مماثل لهم في حين هذا الكلام، فتعين أنهم المشركون المكذبون للرّسول ﷺ، فإن هؤلاء هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرّسول. ومعنى الكلام: فجعلناهم سلَفًا لكم ومثلًا لكم فاتّعظوا بذلك»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يصدون: يصيحون.

جدلا: الجدل يحتمل أن يكون من الفتل، وهو شد الحبل بغيره، فكأنه يجمع أطراف الكلام ليقوى على بيان المراد، ويحتمل من الجدالة وهي الأرض، كأنه يلقي صاحبه إذا غلبه بأرض الغلبة، كما يلقي المصارع صاحبه إذا غلبه بالجدالة، ويحتمل أن يكون من الأجدل، وهو طائر يغلب غيره، فيعود إلى ما تقدم.

خصمون: الخصم: الشديد الخصومة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر أنواعًا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة، وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة؛ فأولها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾[1]. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[2]. وثالثها: قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[3]. ورابعها: قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[4]. وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها. ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلًا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه، والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا كلها محتملة.

---

(١) الزخرف: الآية (١٥).
(٢) الزخرف: الآية (١٩).
(٣) الزخرف: الآية (٢٠).
(٤) الزخرف: الآية (٣١).

فالأول: أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة.

الثاني: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] قال عبد اللَّه بن الزبعري: هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «**بل لجميع الأمم**» فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرًا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، واليهود يعبدون عزيرًا، والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت النبي ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2] ونزلت هذه الآية أيضًا[3]، والمعنى: ولما ضرب عبد اللَّه بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلًا، وجادل رسول اللَّه بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ أي: من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحًا وجدلًا وضحكًا بسبب ما رأوا من إسكات رسول اللَّه، فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وقالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيرًا من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون.

الوجه الثالث في التأويل: وهو أن النبي ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهًا لأنفسهم، قال كفار مكة: إن محمدًا يريد أن يجعل لنا إلهًا كما جعل النصارى المسيح إلهًا لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني آلهتنا خير أم محمد، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدًا يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى؛ لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه،

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٨). (٢) الأنبياء: الآية (١٠١).

(٣) أخرجه: الطبراني (١٢ / ١٥٣ / ١٢٧٣٩)، من طريق أبي رزين عن ابن عباس، وذكره الهيثمي في المجمع (٧ / ٦٩)، وقال: «فيه عاصم بن بهدلة وقد وثق، وضعفه جماعة». وأخرجه الحاكم (٢ / ٣٨٥-٣٨٦) من طريق عكرمة عن ابن عباس وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وانظر صحيح السيرة النبوية للشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ١٩٧-١٩٨).

وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته، فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى، ثم إنه تعالى بيّن أنا لم نقل: إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن، بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبدًا أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية..

ثم قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مبالغون في الخصومة، وذلك لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا يتناول الملائكة وعيسى، وبيانه من وجوه الأول: أن كلمة ما لا تتناول العقلاء البتة. والثاني: أن كلمة ما ليست صريحة في الاستغراق، بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليه، فيقال: إنكم وكل ما تعبدون من دون اللَّه، أو إنكم وبعض ما تبعدون من دون اللَّه. الثالث: أن قوله: إنكم وكل ما تعبدون من دون اللَّه أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة. الرابع: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مقدم على العام»[1].

وقال أيضًا: «القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل»[3].

قال الشنقيطي: «قال جمهور المفسرين هو عبد اللَّه بن الزبعري السهمي قبل إسلامه؛ أي: ولما ضرب ابن الزبعري المذكور عيسى ابن مريم مثلًا فاجأك قومك بالضجيج والصياح والضحك، فرحًا منهم وزعمًا منهم أن ابن الزبعري خصمك،

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢٣). (٢) غافر: الآية (٤).
(٣) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢١-٢٢٣).

أو فاجأك صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل.

والظاهر أن لفظة من هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني من السببية، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[1]؛ أي: بسبب خطيئاتهم أغرقوا. ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم باللَّه لمن ضربه مات.

وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعري عيسى مثلًا أن اللَّه لما أنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾[2]، قال ابن الزبعري: إن محمدًا ﷺ يقول: إن كل معبود من دون اللَّه في النار وأننا وأصنامنا جميعًا في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون اللَّه، فإن كان ابن مريم مع النصارى الذين عبدوه في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه. وقالوا مثل ذلك في عزير والملائكة، لأن عزيرًا عبده اليهود، والملائكة عبدهم بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلًا، يعني أنه على ما يزعم أن محمدًا ﷺ قاله، من أن كل معبود وعابده في النار، يقتضي أن يكون عيسى مثلًا لأصنامهم، في كون الجميع في النار، مع أن النبي ﷺ يثني على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد اللَّه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبعري أن كلام النبي ﷺ لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في دخول النار مع أنه ﷺ يعترف بأن عيسى رسول اللَّه وأنه ليس في النار، دل ذلك على بطلان كلامه عنده.

وعند ذلك أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[3] الآية، وأنزل اللَّه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الآية.

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي: ما ضربوا عيسى مثلًا إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل. وقيل: إن جدلًا حال وإتيان

---

(١) نوح: الآية (٢٥). (٢) الأنبياء: الآية (٩٨).
(٣) الأنبياء: الآيات (١٠١-١٠٣).

المصدر المنكر حالًا كثير، وقد أوضحنا توجيهه مرارًا. والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق.

قال جماعة من العلماء، والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تذرعوا بها إلى الجدل، لا تدل البتة على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات.

والآية المذكورة إنما عبر اللَّه فيها بلفظة «ما» التي هي في الموضع العربي لغير العقلاء؛ لأنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يقل (ومن) تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيرًا ولا الملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية.

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي، الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلًا إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعري يرجع إلى أمرين: أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، وأن ورقاء بن زهير ضرب بسيف بني عبس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضريبة ولم يقطع.

والشاعر يهجو بني عبس بذلك. والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله.

والأمر الثاني: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبعري عيسى مثلًا، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمالئين عليه. وبهذين الأمرين

المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾[1] وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[2] وبين صيغة الإفراد في قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[3].

وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ هو عامة قريش.

والذين قالوا: إن كفار قريش لما سمعوا النبي ﷺ يذكر عيسى، وسمعوا قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[4]. قالوا للنبي ﷺ: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى. وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلًا للنبي ﷺ في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى. وعلى هذا القول فمعنى قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[5] الآية. وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي ﷺ كثيرًا قبل الهجرة كما هو معلوم. وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[6].

ولا شك أن كفار قريش متيقنون في جميع المدة التي أقامها ﷺ في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له. فادعاؤهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟

التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ راجع إلى عيسى، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى. قيل:

---

(١) الأعراف: الآية (٧٧).
(٢) الشمس: الآية (١٤).
(٣) القمر: الآية (٢٩).
(٤) آل عمران: الآية (٥٩).
(٥) آل عمران: الآية (٦٤).
(٦) آل عمران: الآية (٨٠).

لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى. وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون اللَّه، ولم يكن ذلك سببًا لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم. والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا؛ أي: في زعمك، وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. وعيسى عبده النصارى من دون اللَّه، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله من أنا وآلهتنا في النار ليس بحق أيضًا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: لُدٌّ، مبالغون في الخصومة بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[1] أي: شديدي الخصومة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾[2]، لأن الفعل بفتح فكسر كخصم من صيغ المبالغة كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الآية إنما بينته الآيات التي ذكرنا ببيان سببه. ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها ببيان سببها. فعلى القول الأول أنهم ضربوا عيسى مثلًا لأصنامهم في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ لأنها لما نزلت قالوا: إن عيسى عبد من دون اللَّه كآلهتهم، فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء. وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفًا.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلًا لمحمد ﷺ، في أن عيسى قد عبد، وأنه ﷺ يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل.

وأما الآيات التي بينت قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ فبيانها له واضح على كلا القولين. والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

---

(١) مريم: الآية (٩٧). (٢) البقرة: الآية (٢٠٤).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢٥٦-٢٦٢).

قال السعدي: «أي: نهى عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يلجون في خصومتهم لك ويصيحون، ويزعمون أنهم غلبوا في حجتهم وأفلحوا. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعني: عيسى حيث نهى عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾[1] ووجه حجتهم الظالمة أنهم قد قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد اللَّه المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبين معبوداتنا في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض. ولم قلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ وهذا اللفظ بزعمهم يعم الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها. هذا أقصى ما يقرون به هذه الشبهة التي فرحوا بها، واستبشروا وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي ولله الحمد من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية اللَّه بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عباد الأصنام؛ لأن العبادة حق لله تعالى لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق. فأي شبهة في التسوية بين عبادة عيسى وغيره، وليس في تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقربا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المشركين

* عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري قال: قال ابن عباس: «لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها، ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غدًا، فلما راح الغد، قلت: يا ابن عباس! ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٢٥٥-٢٥٧)

لم يفطنوا لها، فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول اللَّه ﷺ قال لقريش: **يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون اللَّه فيه خير**، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى بن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد! ألست تزعم أن عيسى كان نبيًّا، وعبدًا من عباد اللَّه صالحًا، فلئن كنت صادقًا، فإن آلهتهم لكما تقولون، قال: فأنزل اللَّه ﷻ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال: قلت: ما (يصدون)؟ قال: يضجون ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[1] قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة»[2].

* عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الآية[3].

★ غريب الحديثين:

يضجون: بكسر الضاد المعجمة، من أضج أو ضج، إذا صاح والأول أنسب، فإن الثاني يستعمل في صياح المغلوب الذي أصابه مشقة وجزع، والأول بخلافه.

الجدل: الجدل يحتمل أن يكون من الفتل، وهو شد الحبل بغيره، فكأنه يجمع أطراف الكلام ليقوى على بيان المراد، ويحتمل من الجدالة وهي الأرض، كأنه يلقي صاحبه إذا غلبه بأرض الغلبة، كما يلقي المصارع صاحبه إذا غلبه بالجدالة، ويحتمل أن يكون من الأجدل، وهو طائر يغلب غيره، فيعود إلى ما تقدم.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «والمعنى: ما ضل قوم مهديون كائنين على حال من الأحوال إلا على إيتاء الجدل، يعني: من ترك سبيل الهدى وركب متن الضلالة عارفا بذلك لا بد أن يسلك طريق العناد واللجاج، ولا يتماشى له ذلك إلا بالجدل، فإن قلت: كيف

---

(١) الزخرف: الآية (٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (١ / ٣١٧-٣١٨)، والطبراني (١٢ / ١٥٣-١٥٤ / ١٢٧٤٠)، وأخرجه مختصرا ابن حبان (١٥ / ٢٢٨ / ٦٨١٧)، والحاكم (٢ / ٤٤٨)وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٠٤): «رواه أحمد والطبراني بنحوه.. وفيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره وهو سيئ الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح» وحسن إسناده الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (٣٢٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥ / ٢٥٢) واللفظ له، والترمذي (٥ / ٣٥٣ / ٣٢٥٣) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١ / ١٩ / ٤٨)، والحاكم (٢ / ٤٤٧-٤٤٨) وصححه ووافقه الذهبي.

طابق هذا المعنى الآية حتى استشهد بها؟ قلت: من حيث إنهم عرفوا الحق بالبراهين الساطعة ثم عاندوا وانتهزوا مجالا للطعن، فلما تمكنوا مما التمسوه جادلوا الحق بالباطل، وكذا دأب الفرق الزائغة من الزنادقة وغيرها.

قال القاضي: «المراد بهذا الجدل العناد والمراء، والتعصب في ترويج مذهبهم، وآراء مشايخهم، من غير أن يكون لهم نصرة على ما هو الحق، وذلك محرم، أما المناظرة لإظهار الحق، واستكشاف الحال، واستعلام ما ليس بمعلوم عنده، أو تعليم غيره ما هو عنده فرض على الكفاية خارج عما نطق به الحديث»[1].

* * *

(١) شرح الطيبي (٢ / ٢٤٧و٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ عائد إلى عيسى أيضًا لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله هنا: ﴿عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ لم يبين هنا شيئًا من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في (المائدة)، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] وفي (آل عمران) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فما عيسى إلا عبد من عبادنا، أنعمنا عليه بالتوفيق والإيمان، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يقول: وجعلناه آية لبني إسرائيل، وحجة لنا عليهم بإرسالناه إليهم بالدعاء إلينا، وليس هو كما تقول النصارى من أنه ابن اللَّه تعالى، تعالى اللَّه عن ذلك»[4].

قال ابن عاشور: «لما ذُكر ما يشير إلى قصة جدال ابن الزبعري في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وكان سبب جداله هو أن عيسى قد عُبِد من دون اللَّه لم يترك الكلام ينقضي دون أن يردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة، إظهارًا لخطر رأي الذين ادعوا إلهيته وعبدوه، وهم النصارى حرصًا على الاستدلال للحق.

---

(١) المائدة: الآية (١١٠).

(٢) آل عمران: الآيتان (٤٥-٤٦).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢٦٢-٢٦٣).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ٨٩).

وقد قُصِر عيسى على العبودية على طريقة قصر القلب للرد على الذين زعموه إلها؛ أي: ما هو إلا عبد لا إله؛ لأن الإلهية تنافي العبودية. ثم كان قوله: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ إشارة إلى أنه قد فُضل بنعمة الرسالة؛ أي: فليست له خصوصيةُ مزيةٍ على بقية الرسل، وليس تكوينه بدون أب إلاّ إرهاصًا.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فهو إبطال لشبهة الذين ألّهوه بتوهمهم أن كونه خُلِق بكلمة من اللَّه يفيد أنه جزء من اللَّه، فهو حقيق بالإلهية؛ أي: كان خلقه في بطن أمه دون أن يَقرَبَها ذكر ليكون عبرة عجيبة في بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب، وبعُد عهدهم بإرسال الرّسل، فبعث اللَّه عيسى مجدّدًا للإيمان بينهم، ومبرهِنًا بمعجزاته على عظم قدرة اللَّه، ومعيدًا لتشريف اللَّه بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سببًا لقوة الإيمان فيهم، ومُظهرًا لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به، ولعناد الذين منعهم الدفع عن حرمتهم من الاعتراف بمعجزاته، فناصبوه العداء، وسَعَوْا للتنكيل به وقتلِه، فعصمه اللَّه منهم ورفعَه من بينهم، فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون. فالمثَل هنا بمعنى العِبرة كالذي في قوله آنفًا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾[1].

وفي قوله: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إشارة إلى أن عيسى لم يُبعث إلا إلى بني إسرائيل، وأنه لم يَدْعُ غير بني إسرائيل إلى اتّباع دينه، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في عصور الكفر والشرك فإنما تقلدوا دعوته لأنها تنقذهم من ظلمات الشرك والوثنية والتعطيل»[2].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٤٠و٢٤١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

⋆ غريب الآية:

يخلفون: من خلف فلان فلانًا: قام بالأمر عنه إما معه، وإما بعده، والخلافة النيابة عن الغير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو نشاء معشر بني آدم أهلكناكم، فأفنينا جميعكم، وجعلنا بدلا منكم في الأرض ملائكة يخلفونكم فيها يعبدونني، وذلك نحو قوله -تعالى ذكره-: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾[1] وكما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾[2]»[3].

قال ابن عاشور: «لما أشارت الآية السابقة إلى إبطال ضلالة الذين زعموا عيسى عليه السلام ابنًا لله تعالى، من قَصره على كونه عبدًا لله أنعم اللَّه عليه بالرسالة وأنه عبرة لبني إسرائيل، عُقب ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة، وهي ضلالة بعض المشركين في ادعاء بنوة الملائكة لله تعالى المتقدم حكايتها في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[4] الآيات فأشير إلى أن الملائكة عباد لله تعالى جعَل مكانهم العوالم العليا، وأنه لو شاء لجعلهم من سكان الأرض بدلًا عن الناس؛ أي: أن كونهم من أهل العوالم العليا لم يكن واجبًا لهم بالذات، وما هو إلا وضعٌ بجعل من اللَّه تعالى كما جعل للأرض سكانًا، ولو شاء اللَّه لعكس فجعل الملائكة في الأرض بدلًا عن الناس، فليس تشريف اللَّه إياهم بسكنى العوالم العليا بموجب بُنوتهم لله، ولا بمقتضٍ لهم إلهية، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا

---

(١) النساء: الآية (١٣٣). (٢) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٣) جامع البيان (٢٥ / ٨٩).

(٤) الزخرف: الآية (١٥).

تمييزُه بالتكوّن من دون أب مقتضيًا له إلهية، وإنما هو بجعل اللَّه وخلقه»[1].

قال السعدي: «أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة اللَّه بكم أن أرسل إليكم رسلا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٤١و٢٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

لا تمترن: لا تشكون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وما المعنيّ بها، ومن ذكر ما هي، فقال بعضهم: هي من ذكر عيسى، وهي عائدة عليه. وقالوا: معنى الكلام: وإن عيسى ظهوره علم يعلم به مجيء الساعة، لأن ظهوره من أشراطها، ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا، وإقبال الآخرة.. وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ يقول: فلا تشكن فيها وفي مجيئها أيها الناس»[2].

قال الشنقيطي: «التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي ﷺ. ومعنى قوله: ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان، حيا علم للساعة؛ أي: علامة لقرب مجيئها؛ لأنه من أشراطها الدالة على قربها.

وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف. أحدهما: أن نزول عيسى المذكور، لما كان علامة لقربها، كانت تلك العلامة سببًا لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب. وإطلاق المسبب وإرادة السبب أسلوب عربي معروف في القرآن وفي كلام العرب. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[3].

---

(١) الزخرف: الآية (٦١).
(٢) جامع البيان (٢٥/ ٩٠-٩١).
(٣) غافر: الآية (١٣).

فالرزق مسبب عن المطر والمطر سببه، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب. ومعلوم أن البلاغيين، ومن وافقهم يزعمون أن مثل ذلك من نوع ما يسمونه المجاز المرسل، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم.

والثاني من الأمرين أن غاية ما في ذلك أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وإنه لذو علم للساعة؛ أي: وإنه لصاحب إعلام الناس بقرب مجيئها، لكونه علامة لذلك، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كثير في القرآن وفي كلام العرب، وإليه أشار في الخلاصة بقوله:

وما يلي المضاف يأت خلفا ... عنه في الإعراب إذا ما حذفا

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك: زيد كرم، وعمرو عدل؛ أي: ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[1]، وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

ونعتوا بمصدر كثيرًا ... فالتزموا الإفراد والتذكيرا

أما دلالة القرآن الكريم على هذا القول الصحيح، ففي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[2] أي: ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك صريح في أن عيسى حي وقت نزول آية النساء هذه، وأنه لا يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب. ومعلوم أنهم لا يؤمنون به إلا بعد نزوله إلى الأرض.

فإن قيل: قد ذهبت جماعة من المفسرين من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى الكتابي؛ أي: إلا ليؤمنن به الكتابي قبل موت الكتابي.

فالجواب أن يكون الضمير راجعًا إلى عيسى يجب المصير إليه، دون القول الآخر؛ لأنه أرجح منه من أربعة أوجه: الأول: أنه هو ظاهر القرآن المتبادر منه، وعليه تنسجم الضمائر بعضها مع بعض.

---

(١) الطلاق: الآية (٢).

(٢) النساء: الآية (١٥٩).

والقول الآخر بخلاف ذلك. وإيضاح هذا أن اللَّه تعالى قال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي عيسى، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: عيسى، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: عيسى، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: عيسى ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: عيسى، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: عيسى، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: عيسى، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[2] أي: عيسى، ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي: عيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: عيسى، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[3] أي: يكون هو؛ أي: عيسى عليهم شهيدًا. فهذا السياق القرآني الذي ترى ظاهر ظهورًا لا ينبغي العدول عنه، في أن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى عيسى.

الوجه الثاني: من مرجحات هذا القول، أنه على هذا القول الصحيح، فمفسر الضمير ملفوظ مصرح به، في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ .

وأما على القول الآخر فمفسر الضمير ليس مذكورًا في الآية أصلًا، بل هو مقدر تقديره: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته؛ أي: موت أحد أهل الكتاب المقدر. ومما لا شك فيه أن ما لا يحتاج إلى تقدير أرجح وأولى مما يحتاج إلى تقدير.

الوجه الثالث: من مرجحات هذا القول الصحيح، أنه تشهد له السنة النبوية المتواترة؛ لأن النبي ﷺ قد تواترت عنه الأحاديث بأن عيسى حي الآن، وأنه سينزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا. ولا ينكر تواتر السنة بذلك إلا مكابر.

قال ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر هذا القول الصحيح ونسبه إلى جماعة من المفسرين ما نصه: وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء اللَّه تعالى اهـ.

وقوله: (بالدليل القاطع) يعني السنة المتواترة؛ لأنها قطعية وهو صادق في ذلك. وقال ابن كثير في تفسير آية الزخرف هذه ما نصه: وقد تواترت الأحاديث عن

---

(١) النساء: الآية (١٥٧). (٢) النساء: الآية (١٥٨).
(٣) النساء: الآية (١٥٩).

رسول اللَّه ﷺ، «أنه أخبر بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إِمَامًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا» اهـ منه.

وهو صادق في تواتر الأحاديث بذلك. وأما القول بأن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى الكتاب فهو خلاف ظاهر القرآن، ولم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة.

الوجه الرابع: هو أن القول الأول الصحيح واضح لا إشكال فيه، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص، بخلاف القول الآخر، فهو مشكل لا يكاد يصدق إلا مع تخصيص، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس وغيره، ظاهرة البعد والسقوط؛ لأنه على القول بأن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى عيسى فلا إشكال ولا خفاء، ولا حاجة إلى تأويل ولا إلى تخصيص.

وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جدًّا بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذي يسقط من عال إلى أسفل، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل، والذي يموت في نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص. ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة.

وما يذكر عن ابن عباس من أنه سئل عن الذي يقطع رأسه من أهل الكتاب فقال إن رأسه يتكلم بالإيمان بعيسى، وأن الذي يهوي من عال إلى أسفل يؤمن به وهو يهوي، لا يخفى بعده وسقوطه، وأنه لا دليل البتة عليه كما ترى.

وبهذا كله تعلم أن الضمير في قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ راجع إلى عيسى، وأن تلك الآية من سورة (النساء) تبين قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ كما ذكرنا»[1].

وقال أيضًا: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكن في قيام الساعة فإنه لا شك فيه. وقد قدمنا الآيات الموضحة له مرارًا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[2] وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى

(١) أضواء البيان (٧ / ٢٦٣-٢٦٧).

(٢) الحج: الآية (٧).

ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[(١)] وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[(٢)] وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[(٣)] إلى غير ذلك من الآيات»[(٤)].

وقال السعدي: «أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو، وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: «نزول عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم مبحث نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وما ورد في ذلك عند قوله تعالى من سورة (النساء): ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[(٧)].

* * *

---

(١) الشورى: الآية (٧).

(٢) الأنعام: الآية (١٢).

(٣) آل عمران: الآية (٢٥).

(٤) أضواء البيان (٧ / ٢٧٥).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٧).

(٦) أخرجه: ابن حبان الإحسان (١٥ / ٢٢٨ / ٦٨١٧)، والحاكم (٢ / ٢٥٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه موقوفا: ابن جرير (٢٥ / ٩٠)، وابن أبي شيبة (٦ / ٣٣٩ / ٣١٨٧٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وقد تقدم مطولا.

(٧) النساء: الآية (١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأطيعون فاعملوا بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ يقول: اتباعكم إياي أيها الناس في أمري ونهيي صراط مستقيم، يقول: طريق لا اعوجاج فيه، بل هو قويم.

وقوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولا يعدلنكم الشيطان عن طاعتي فيما آمركم وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: إن الشيطان لكم عدوّ يدعوكم إلى ما فيه هلاككم، ويصدّكم عن قصد السبيل، ليوردكم المهالك، مبين قد أبان لكم عداوته، بامتناعه من السجود لأبيكم آدم، وإدلائه بالغرور حتى أخرجه من الجنة حسدا وبغيا»[1].

قال السعدي: «﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ موصل إلى الله ﷻ.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ عما أمركم الله به، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك»[2].

قال ابن عاشور: «يجوز أن يكون ضمير المتكلم عائدًا إلى الله تعالى؛ أي: اتبعوا ما أرسلتُ إليكم من كلامي وَرَسُولِي، جريًا على غالب الضمائر من أول السورة كما تقدم، فالمراد باتّباع الله: اتباع أمره ونهيه وإرشادِه الوارد على لسان رسول الله ﷺ، فاتّباع الله تمثيل لامتثالهم ما دعاهم إليه بأن شبه حال الممتثلين أمر

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٧-٦٥٨).

اللَّه بحال السالكين صراطًا دلّهم عليه دليل . ويكون هذا كقوله في سورة (الشورى) : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[١] ويجوز أن يكون عائدًا إلى النبي ﷺ بتقدير : وقُل اتبعون، ومثله في القرآن كثير»[٢].

وقال أيضًا : «لما أُبلغت أسماعُهم أفانينَ المواعظ والأوامر والنواهي، وجرى في خلال ذلك تحذيرهم من الإصرار على الإعراض عن القرآن، وإعلامُهم بأن ذلك يفضي بهم إلى مقارنة الشيطان، وأخذَ ذلك حظه من البيان، انتقل الكلام إلى نهيهم عن أن يحصل صدّ الشيطان إياهم عن هذا الدّين والقرآن الذي دُعوا إلى اتّباعه بقوله : ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تنبيهًا على أن الصدود عن هذا الدّين من وسوسة الشيطان، وتذكيرًا بعداوة الشيطان للإنسان عداوة قوية لا يفارقها الدفع بالناس إلى مساوئ الأعمال ليوقعهم في العذاب تشفّيًا لعداوته»[٣].

* * *

(١) الشورى: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٤٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٤٤-٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبينات، يعني بالواضحات من الأدلة. وقيل: عُني بالبيِّنات: الإنجيل.. وقوله: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ قيل: عني بالحكمة في هذا الموضع النبوة.. وقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يقول: ولأبين لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة.. لأن عيسى إنما قال لهم: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ لأنه قد كان بينهم اختلاف كثير في أسباب دينهم ودنياهم، فقال لهم: أبين لكم بعض ذلك، وهو أمر دينهم دون ما هم فيه مختلفون من أمر دنياهم، فلذلك خص ما أخبرهم أنه يبينه لهم..

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ يقول: فاتقوا ربكم أيها الناس بطاعته، وخافوه باجتناب معاصيه، وأطيعون فيما أمرتكم به من اتقاء اللّه واتباع أمره، وقبول نصيحتي لكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ يقول: إن اللّه الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهة وإخلاص الطاعة له، ربي وربكم جميعًا، فاعبدوه وحده، لا تشركوا معه في عبادته شيئا، فإنه لا يصلح، ولا ينبغي أن يُعبد شيء سواه.

وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يقول: هذا الذي أمرتكم به من اتقاء اللّه وطاعتي، وإفراد اللّه بالألوهة، هو الطريق المستقيم، وهو دين اللّه الذي لا يقبل من أحد من عباده غيره»[1].

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٢-٩٣).

قال السعدي: «﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك من الآيات. قال لبني إسرائيل: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملا ومتمما لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا اللَّه وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعوني.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن اللَّه هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة اللَّه وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد اللَّه، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن اللَّه أو ثالث ثلاثة» والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى اللَّه وإلى جنته»[1].

قال ابن عاشور: «وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أن الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقًا بها من قبل، فإن عيسى بُعث إلى قوم لم يكونوا يدينون بالشرك؛ إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحّدونَ، فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فِرق وصدقه فريق، ثم لم يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك..

وفي إيقاع جملة: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ بيانًا لجملة: ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إيماء إلى أنه بادَأهم بهذا القول؛ لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئ الدعوة تنافي عقائدهم، أي لم يَدْعُهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلَف فيه، ولم يدْعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة، ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب.

وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيبٌ لهم في وعْي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٥٨-٦٥٩).

بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكفّ عن القبيح وهي هنا النبوءة. . والتبيين: تجلية المعاني الخفيّة لِغموض أو سوء تأويل، والمراد ما بيّنه عيسى في الإنجيل وغيره مما اختلفت فيه أفهام اليهود من الأحكام المتعلقة بفهم التوراة، أو بتعيين الأحكام للحوادث الطارئة. ولم يذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية سورة (آل عمران): ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[1] لأن ذلك قد قاله في مقام آخر.

والمقصود حكاية ما قاله لهم مما ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب، فهم كذبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة؛ أي: كذبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات، وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكًا. وإنما قال: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ، إمّا لأن اللَّه أعلمه بأن المصلحة لم تتعلق ببيان كل ما اختلفوا فيه، بل يقتصر على البعض ثم يُكَمّل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يبيّن جميع ما يَحتاج إلى البيان. وإما لأنّ ما أُوحي إليه من البيان غيرُ شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه، وهو ينتظر بيانه من بعدُ تدريجًا في التشريع كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام.

وقيل: المراد بـ ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ما كان الاختلاف فيه راجعًا إلى أحكام الدّين، دون ما كان من الاختلاف في أمور الدنيا. وفي قوله: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ تهيئة لهم لقبول ما سيبيّن لهم حينئذٍ أو من بعدُ.

وهذه الآية تدل على جواز تأخير البيان فيما له ظاهر وفي ما يرجع إلى البيان بالنسخ، والمسألة من أصول الفقه.

وفرع على إجمال فاتحة كلامه قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . وهذا كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه، فإن التقوى مخافة اللَّه. وقد جاء في الأثر «رأس الحكمة مخافةُ الله»[2] وطاعة الرّسول تَشمل معنى ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي

(١) آل عمران: الآية (٥٠).

(٢) أخرجه: البيهقي في الشعب (١ / ٤٧٠ / ٧٤٢-٧٤٣-٧٤٤)، موقوفا على عبد اللّه بن مسعود ﷺ، قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤ / ٦٩ / ٣) رواه أبو بكر بن بلال الفقيه في مكارم الأخلاق=

﴿تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ فإذا أطاعوه عملوا بما يبين لهم فيحصل المقصود من البيان وهو العمل. وأجمعُ منه قول النبي ﷺ لسفيان الثقفي وقد سأله أن يقول له في الإسلام قولًا لا يسْأل عنه أحدًا غيره: «قُلْ آمنتُ باللَّه ثم استَقِم»[1] لأنه أليق بكلمة جامعة في شريعةٍ لا يُترقب بعدها مجيء شريعة أخرى، بخلاف قول عيسى عليه السلام ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فإنه محدود بمدة وجوده بينهم.

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ تعليل لجملة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأنه إذا ثبت تفرده بالربوبية توجه الأمر بعبادته إذ لا يَخاف اللَّه إلا مَن اعترف بربوبيته وانفرادِه بها.

وضمير الفصل أفاد القصر، أي اللَّه ربّي لا غيره. وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحِّدين، لكن قد ظهرت بدعةٌ في بعض فرقهم الذين قالوا: عزيرُ ابنُ اللَّه..

وتقديم نفسه على قومه في قوله: ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ لقصد سدّ ذرائع الغلوّ في تقديس عيسى، وذلك من معجزاته؛ لأن اللَّه علم أنه ستغلو فيه فِرق من أتباعه فيزعمون بنوَّتَه من اللَّه على الحقيقة، ويضلّون بكلمات الإنجيل التي يَقول فيها عيسى: أبي، مريدًا به اللَّه تعالى. وفرع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته بقوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ فإن المنفرد بالإلهية حقيق بأن يعبد.

والإشارة بـ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إلى مضمون قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، أي هذا طريق الوصول إلى الفوز عن بصيرة ودون تردد، كما أن الصراط المستقيم لا ينبهم السير فيه على السائر»[2].

* * *

= والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا»، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع رقم (٦٨١١).

(١) أخرجه: أحمد (٣ / ٤١٣)، ومسلم (١ / ٦٥ / ٣٨)، والترمذي (٤ / ٥٢٤-٥٢٥ / ٢٤١٠)، والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٥٨ / ١١٤٨٩)، وابن ماجه (٢ / ١٣١٤ / ٣٩٧٢) من حديث سفيان بن عبد اللَّه الثقفي.

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٤٦-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في المعنيين بالأحزاب الذين ذكرهم الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني بذلك الجماعة التي تناظرت في أمر عيسى واختلفت فيه.. وقال آخرون: بل هم اليهود والنصارى.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: فاختلف الفرق المختلفون في عيسى ابن مريم من بين من دعاهم عيسى إلى ما دعاهم إليه من اتقاء الله والعمل بطاعته، وهم اليهود والنصارى، ومن اختلف فيه من النصارى، لأن جميعهم كانوا أحزابا متشتتين مختلفي الأهواء، مع بيانه لهم أمر نفسه، وقوله لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦٤﴾.

وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فالوادي السائل من القيح والصديد في جهنم للذين كفروا بالله، الذين قالوا في عيسى ابن مريم بخلاف ما وصف عيسى به نفسه في هذه الآية ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ يقول: من عذاب يوم مؤلم، ووصف اليوم بالإيلام، إذ كان العذاب الذي يؤلمهم فيه، وذلك يوم القيامة»[1].

قال الشنقيطي: «قوله هنا: ﴿ظَلَمُواْ﴾ أي: كفروا بدليل قوله في مريم في القصة بعينها: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[2]. وقوله: ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ يوضحه قوله هنا: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾.

وقد قدمنا مرارًا الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[3] وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٣-٩٤).
(٢) مريم: الآية (٣٧).
(٣) لقمان: الآية (١٣).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٤).

ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[2] أي: بشرك»[3].

قال البقاعي: «ولما كان الطريق الواضح القديم موجبًا للاجتماع عليه، والوفاق عند سلوكه، بين أنهم سببوا عنه بهذا الوعظ غير ما يليق بهما بقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾ وبين أنهم أكثروا الاختلاف بقوله: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: إنهم لم يكونوا فرقتين فقط، بل فرقًا كثيرة. ولما كانت العادة أن يكون الخلاف بين أمتين وقبيلتين ونحو ذلك، وكان اختلاف الفرقة الواحدة عجبًا، بين أنهم من أهل القسم فقال: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلافًا ناشئًا ابتدأ من بين بني إسرائيل الذين جعلناهم مثلًا لهم وقال لهم: قد جئتكم بالحكمة، فسبب عن اختلافهم قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ وكان أن يقال لهم، ولكنه ذكر الوصف الموجب للويل تعميمًا وتعليقًا للحكم به.

ولما كان في سياق الحكمة، وهو وضع الشيء في أتقن مواضعه، جعل الوصف الظلم الذي أدى إليه الاختلاف فقال: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وضعوا الشيء في غير موضعه مضادة لما أتاهم ﷺ به من الحكمة ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، وإذا كان اليوم مؤلمًا فما الظن بعذابه»[4].

* * *

(١) يونس: الآية (١٠٦).

(٢) الأنعام: الآية (٨٢).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢٧٦).

(٤) نظم الدرر (١٧ / ٤٧٤-٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي، و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى ينتظرون؛ أي: ما ينتظر الكفار إلا الساعة؛ أي: القيامة أن تأتيهم بغتة؛ أي: في حال كونها مباغتة لهم؛ أي: مفاجئة لهم، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ؛ أي: بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها..

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحًا في آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى في (الأعراف): ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةًۗ﴾[1]. وقوله تعالى في القتال: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةًۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾[3] الآية. فالمراد بالصيحة: القيامة.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾ الآية، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة، وعدم شعور بإتيانها، إلى غير ذلك من الآيات. والعلم عند الله تعالى»[4].

قال ابن جرير: «يقول: هل ينظر هؤلاء الأحزاب المختلفون في عيسى ابن مريم، القائلون فيه الباطل من القول، إلا الساعة التي فيها تقوم القيامة فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يقول: وهم لا يعلمون بمجيئها»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؟ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين لها، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٢) محمد: الآية (١٨).
(٣) يس: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٤) أضواء البيان (٧ / ٢٧٦-٢٧٧).
(٥) جامع البيان (٢٥ / ٩٤).

يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم»[١].

قال ابن عاشور: «استئناف بياني بتنزيل سامع قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مَنزلةَ من يطلب البيان فيسأل: متى يحلّ هذا اليوم الأليم؟ وما هو هذا الويل؟ فوردت جملة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ جوابًا عن الشقّ الأول من السؤال، وسيجيء الجواب عن الشق الثاني في قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾[٢] الآيات.

وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم، والمعنى: أن هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعُد، فلا يريبكم عدم تعجيله قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[٣]، وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد ﴿بَغْتَةً﴾ فإن الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرَى وقتُ حلوله»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قيام الساعة بغتة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه. ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٣٦-٢٣٧).
(٢) الزخرف: الآية (٧٤).
(٣) يونس: الآية (٥٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥١).
(٥) أخرجه: البخاري (١١ / ٤٢٨ / ٦٥٠٦)، بهذا اللفظ، وأخرج طرفه الأول: أحمد (٢ / ٢٣١)، والبخاري (٨ / ٣٧٧ / ٤٦٣٥-٤٦٣٦)، ومسلم (١ / ١٣٧ / ١٥٧)، وأبو داود (٤ / ٤٩٢ / ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦ / ٣٤٣-٣٤٤ / ١١١٧٧)، وابن ماجه (٢ / ١٣٥٢ / ٤٠٦٨)، وأخرج طرفه الأخير: مسلم (٤ / ٢٢٧٠ / ٢٩٥٤).

★ **غريب الحديث:**

لقحته: بكسر اللام وسكون القاف بعدها مهملة: الناقة ذات اللبن.

يليط حوضه: بضم أوله، ويقال ألاط حوضه إذا مدره؛ أي: جمع حجارة فصيرها كالحوض، ثم سد ما بينها من الفرج بالمدر ونحوه لينحبس الماء، هذا أصله، وقد يكون للحوض خروق فيسدها بالمدر قبل أن يملأه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «والمعنى أن الساعة تأخذ الناس بغتة، تأتيهم في أشغالهم فلا تمهلهم أن يتموها»[1].

قال الحافظ: «وفي كل ذلك إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[2]»[3].

وقال العيني: «وهذا كله إخبار عن الساعة أنها تأتي فجأة، وأسرع من دفع اللقمة في الفم»[4].

قال الحافظ: «الحكمة في تقدم أشراط الساعة: إيقاظ الغافلين، وحثهم على التوبة والاستعداد»[5].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (١١ / ٣٤٢٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٣) فتح الباري (١١ / ٤٣٤).

(٤) عمدة القاري (١٥ / ٦٨١).

(٥) فتح الباري (١١ / ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأخلاء: واحدها: خليل، وهو الصديق الحميم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كل صداقة وصحابة لغير اللَّه فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله ﷻ، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1]»[2].

قال الرازي: «الأخلاء في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني في الآخرة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضًا على الإيمان والتقوى، فإن خلتهم لا تصير عداوة.

وللحكماء في تفسير هذه الآية طريق حسن، قالوا: إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر، فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضررًا حصل البغض والنفرة، إذا عرفت هذا فنقول: تلك الخيرات التي كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة، إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل، أو لا تكون كذلك، فإن كان الواقع هو القسم الأول، وجب أن تبدل تلك المحبة بالنفرة؛ لأن تلك المحبة إنما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة، فإذا زال ذلك الاعتقاد، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والألم، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة؛ لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول، أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة، خيرات باقية أبدية، غير قابلة

---

(١) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٣٧).

للتبدل والتغير، كانت تلك المحبة أيضًا محبة باقية آمنة من التغير.

إذا عرفت هذا الأصل فنقول: الذين حصلت بينهم محبة ومودة في الدنيا، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها، فهذه المطالب لا تبقى في القيامة، بل يصير طلب الدنيا سببًا لحصول الآلام والآفات في يوم القيامة، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة في القيامة، أما إن كان الموجب لحصول المحبة في الدنيا الاشتراك في محبة اللَّه وفي خدمته وطاعته، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير، فلا جرم كانت هذه المحبة باقية في القيامة، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالمخالة إذا كانت على غير مصلحة الاثنين كانت عاقبتها عداوة، وإنما تكون على مصلحتها إذا كانت في ذات اللَّه، فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه فهذا التراضي لا اعتبار به؛ بل يعود تباغضا وتعاديا وتلاعنا، وكل منهما يقول للآخر: لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا، فهلاكي كان مني ومنك. والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادي والتلاعن، فلو كان أحدهما ظالما للآخر فيه لنهى عن ذلك، ويقول كل منهما للآخر: أنت لأجل غرضك أوقعتني في هذا كالزانيين كل منهما يقول للآخر لأجل غرضك فعلت معي هذا، ولو امتنعت لم أفعل أنا هذا، لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه فتعادلا»[2].

قال محمد المكي الناصري: «أشار كتاب اللَّه في هذا السياق إلى ما يقوم بين أهل الأهواء والضلالات من صداقة مدخولة، وخلة مشبوهة، أساسها التضامن ضد أهل الحق وأهله، والتعاون على الإثم والعدوان، مبينا أن هذه الصداقة مهما طالت فمآلها إلى عداوة صريحة، وكراهة بالغة، بحيث تنفصم عراها لأول احتكاك يقع بينهم من أجل المغانم أو المغارم، فلا يلبث بعضهم أن يتبرأ من بعض، وتتجلى هذه القطيعة بينهم على أشدها يوم القيامة، حيث لا ينفع أحد منهم الآخر،

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ١٢٩).

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ على غرار قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل وهو يخاطب قومه الضالين: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾[1] أما الصحبة في اللّه من أجل التعاون على البر والتقوى، والتزام الحق والصدق دون مداراة ولا مداهنة، فهي نافعة في الدنيا، وأثرها ممتد إلى الآخرة، بفضل اللّه وكرمه، وذاك ما يشير إليه قوله تعالى هنا بصيغة الاستثناء: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾»[2].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥ / ٤٨٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

*** غريب الآية:**

تحبرون: تسرون وتنعمون، من الحبرة، وهي: السرور والنعمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «في هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكر عليه. ومعنى الكلام: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضاي عنكم، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا فإن الذي قدمتم عليه خير لكم مما فارقتموه منها. وذُكر أن الناس ينادون هذا النداء يوم القيامة، فيطمع فيها من ليس من أهلها حتى يسمع قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فييأس منها عند ذلك..

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: يا عبادي الذين آمنوا وهم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم، وكانوا مسلمين، يقول: وكانوا أهل خضوع لله بقلوبهم، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم على دين إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، حنفاء لا يهود ولا نصارى، ولا أهل أوثان.

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يقول -جل ثناؤه-: ادخلوا الجنة أنتم أيها المؤمنون وأزواجكم مغبوطين بكرامة الله، مسرورين بما أعطاكم اليوم ربكم»[1].

قال السعدي: «إن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي:

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٤و٩٥).

لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات اللّٰه، وذلك شامل للتصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات ما لا تعبر الألسن عن وصفه»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة. فذكر منها هنا الإيمان بآيات اللّٰه والإسلام، وذكر بعضًا منها في غير هذا الموضع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة (يونس): ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2].

ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا اللّٰه، وذلك في قوله في (فصلت): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾[3] الآية: وقوله تعالى في (الأحقاف): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات.

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل.

والحزن: الغم من أمر ماض. وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر. وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف. قال بعض العلماء: ومنه قوله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٠).

(٢) يونس: الآيتان (٦٢و٦٣).

(٣) فصلت: الآية (٣٠).

(٤) الأحقاف: الآية (١٣).

تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[١].

قال معناه: إلا أن يعلما. ومنه قول أبي محجن الثقفي:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تَدْفِنَنِّي في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف: أي: أعلم؛ لأنه لا يشك في أنه لا يشربها بعد موته.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾[٢]. ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل..

قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ فيه لعلماء التفسير وجهان:

أحدهما: أن المراد بأزواجهم: نظراؤهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله، واقتصر على هذا القول ابن كثير.

والثاني: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة؛ لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول. ولذا يكثر في القرآن ذكر إكرام أهل الجنة، بكونهم مع نسائهم دون الامتنان عليهم، بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾[٣].

وقال كثير من أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية هو افتضاض الأبكار. وقال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ إلى قوله:

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٩).

(٢) الذاريات: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٣) يس: الآيتان (٥٥و٥٦).

(٤) الدخان: الآية (٥٤).

(٥) الواقعة: الآيتان (٢٢و٢٣).

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾[١]، وقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨﴾[٢] وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

* * *

(١) الرحمن: الآيات (٧٠-٧٢).

(٢) الصافات: الآية (٤٨).

(٣) ص: الآية (٥٢).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٢٧٧-٢٨١).

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾

★ **غريب الآية:**

صحاف: واحدها صحفة، مثل القصعة، قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيْفَة تشبع الرجل.

وأكواب: واحدها: كوب، وهو كوز لا عروة له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يطاف على هؤلاء الذين آمنوا بآياته في الدنيا إذا دخلوا الجنة في الآخرة بصحاف من ذهب وهي جمع للكثير من الصحفة، والصحفة القصعة»[1].

قال القرطبي: «أي: لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب. ولم يذكر الأطعمة والأشربة، لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء. وذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب، كقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «أي: تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب، وشرابهم بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٦).

(٢) الأحزاب: الآية (٣٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١١١و١١٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٠و٦٦١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نعيم أهل الجنة

* عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة**»(١).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «أي: أن الكفار إنما يحصل لهم ذلك في الدنيا، وأما الآخرة فمالهم فيها من نصيب، وأما المسلمون فلهم في الجنة الحرير والذهب، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(٢).

قال ابن بطال: «قال المهلب: هو مثل قوله ﷺ في الحرير «**إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة**»(٣) وهم الكفار، لأنه لما كان الحرير من لباسهم في الدنيا، وآثروه على ما أعده اللَّه في الآخرة لأوليائه، وأحبوا العاجلة، ذمهم النبي بذلك، ونهى المسلمين أن يتشبهوا بالكفار المؤثرين الدنيا على الآخرة، ولئلا يدخلوا تحت قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾(٤)»(٥).

قال القرطبي: «هذا الحديث دليل على تحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الأكل والشرب، ويلحق بهما ما في معناهما مثل التطيب والتكحل وما شابه ذلك، وبتحريم ذلك قال جمهور العلماء سلفا وخلفا، وروي عن بعض السلف إباحة ذلك، وهو خلاف شاذ مطرح للأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا الباب.

ثم اختلف العلماء في تعليل المنع، فقيل: إن التحريم راجع إلى عينهما، وهذا يشهد له قوله ﷺ «**هي لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة**» وقيل: ذلك معلل بكونهما

---

(١) أخرجه: أحمد (٥ / ٣٩٧-٤٠٤)، والبخاري (٩ / ٦٩٢ / ٥٤٢٦)، ومسلم (٣ / ١٦٣٧ / ٢٠٦٧)، وأبو داود (٤ / ١١٢ / ٣٧٢٣)، والترمذي (٤ / ٢٦٤-٢٦٥ / ١٨٧٨)، والنسائي (٨ / ٥٨٥-٥٨٦ / ٥٣١٦)، وابن ماجه (٢ / ١١٣٠ / ٣٤١٤).

(٢) شرح مسلم (١٤ / ٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٩)، والبخاري (٢ / ٥٥٨ / ٩٤٨)، ومسلم (٣ / ١٦٣٨ / ٢٠٦٨)، وأبو داود (٤ / ٣٢٠ / ٤٠٤٠)، والنسائي (٨ / ٥٨٤-٥٨٥ / ٥٣١٤)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الأحقاف: الآية (٢٠).

(٥) شرح البخاري (٦ / ٨٢).

رؤوس الأثمان، وقيم المتلفات، فإذا اتخذ منهما الأواني قَلَّتْ في أيدي الناس، فيجحف ذلك بهم، وهذا كما حرم فيهما ربا الفضل، وقد حسن الغزالي هذا المعنى، فقال: إنهما في الوجود كالحكام الذين حقهم أن يتصرفوا في الأقطار ليظهروا العدل، فلو منعوا من التصرف والخروج للناس لأخل ذلك بهم، ولم يحصل عدل في الوجود»[1].

قال الحافظ: «قال الإسماعيلي: ليس المراد بقوله: «**في الدنيا**» إباحة استعمالهم إياه، وإنما المعنى بقوله لهم: أي هم الذين يستعملونه مخالفة لزي المسلمين، وكذا قوله: «**ولكم في الآخرة**» أي: تستعملونه مكافأة لكم على تركه في الدنيا، ويمنعه أولئك جزاء لهم على معصيتهم باستعماله. قلت: ويحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الذي يتعاطى ذلك في الدنيا، لا يتعاطاه في الآخرة، كما تقدم في شرب الخمر»[2].

* * *

(١) المفهم (٥ / ٣٤٥).
(٢) فتح الباري (١٠ / ١١٧).

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة فيها كل مشتهى وكل مستلذ، جاء مبسوطًا موضحة أنواعه في آيات كثيرة من كتاب اللَّه، وجاء مجملا أيضًا إجمالًا شاملًا لكل شيء من النعيم. أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾(١).

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن أن من ذلك النعيم المذكور في الآية المشارب، والمآكل والمناكح، والفرش والسرر، والأواني، وأنواع الحلي والملابس، والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المآكل فقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾(٢)، وقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾(٤) وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾(٥) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾(٦). وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾(٧) الآية، وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾(٨). وقال

---

(١) السجدة: الآية (١٧).
(٢) الزخرف: الآية (٧٣).
(٣) الواقعة: الآية (٢١).
(٤) الواقعة: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٥) البقرة: الآية (٢٥).
(٦) الإنسان: الآيتان (٥و٦).
(٧) الإنسان: الآيتان (١٧و١٨).
(٨) الواقعة: الآيات (١٧-١٩).

تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾[1] وقال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة (النحل).

وأما المناكح فقد قدمنا بعض الآيات الدالة عليها قريبًا. وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[4] الآية. ويكفي ما قدمنا من ذلك قريبًا.

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾[6] وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾[7]. والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب. وقوله تعالى: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[8]. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣﴾[9]. وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾[11] الآية. وقال تعالى في سورة (الإنسان) في صفة هؤلاء الغلمان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[12]، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾[13].

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جدًّا ولنكتف منها بما ذكرنا. وقوله تعالى في هذه الآية

---

(١) الصافات: الآيات (٤٥-٤٧).
(٢) محمد: الآية (١٥).
(٣) الحاقة: الآية (٢٤).
(٤) البقرة: الآية (٢٥).
(٥) الرحمن: الآية (٥٤).
(٦) يس: الآية (٥٦).
(٧) الواقعة: الآيتان (١٥و١٦).
(٨) الحجر: الآية (٤٧).
(٩) الغاشية: الآية (١٣).
(١٠) الرحمن: الآية (٧٦).
(١١) الواقعة: الآية (١٧).
(١٢) الإنسان: الآية (١٩).
(١٣) الإنسان: الآية (٢٠).

الكريمة: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، قد قدمنا الآيات الموضحة؛ لأن خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] أي غير مقطوع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[3]»[4].

قال البقاعي: «ولما رغب فيها بهذه المغيبات، أجمل بما لا يتمالك معه عاقل عن المبادرة إلى الدخول فيما يخصها فقال: ﴿وَفِيهَا﴾ أي الجنة. ولما كانت اللذة محصورة في المشتهى قال تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة وغيرها جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا، ولما كان ما يخص المبصرات من ذلك أعظم، خصها فقال: ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ من الأشياء المبصرة التي أعلاها النظر إلى وجهه الكريم تعالى، جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق.

ولما كان ذلك لا يكمل طيبه إلا بالدوام، قال عائدًا إلى الخطاب لأنه أشرف وألذ مبشر لجميع المقبلين على الكتاب، والملتفت إليهم بالترغيب في هذا الثواب، بشارة لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام بما قدمه في أول السورة وأثنائها من بلوغ قومه نهاية العقل والعلم الموصلين إلى أحسن العمل الموجب للسعادة: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لبقائها وبقاء كل ما فيها، فلا كلفة عليكم أصلًا من خوف من زوال ولا حزن من فوات»[5].

قال السعدي: «﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب. فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، وما تلذه العيون من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾[6].

---

(١) هود: الآية (١٠٨).
(٢) ص: الآية (٥٤).
(٣) النحل: الآية (٩٦).
(٤) أضواء البيان (٧ / ٢٨٢-٢٨٤).
(٥) نظم الدرر (١٧ / ٤٧٩).
(٦) يس: الآية (٥٧).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حكم التوالد في الجنة

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة، كما يشتهي»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الترمذي: «وقد اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، هكذا روي عن طاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي. وقال محمد: قال إسحاق بن إبراهيم في حديث النبي ﷺ: إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة واحدة كما يشتهي ولكن لا يشتهي. قال محمد: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: **«إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد»**»[٣].

قال ابن القيم: «قد اختلف الناس هل تلد نساء أهل الجنة على قولين. فقالت طائفة: لا يكون فيها حبل ولا ولادة، واحتجت هذه الطائفة بهذا الحديث[٤]، وبحديث آخر أظنه في المسند وفيه: **«غير أن لا مني ولا منية»**[٥]، وأثبتت طائفة من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣ / ٩)، الترمذي (٤ / ٥٩٩-٦٠٠ / ٢٥٦٣) وقال: حسن غريب ابن ماجه (٢ / ١٤٥٢ / ٤٣٣٨)، وابن حبان (الإحسان ١٦ / ٤١٧ / ٧٤٠٤) وصححه.

(٣) سنن الترمذي (٤ / ٦٠٠).

(٤) أي: بحديث أبي رزين لقيط بن عامر أخرجه: عبد اللَّه بن الإمام أحمد في زوائد المسند (٤ / ١٣-١٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١ / ٢٨٦-٢٨٩ / ٦٣٦)، والطبراني (١٩ / ٢١١-٢١٤ / ٤٧٧)، وابن خزيمة في التوحيد (١ / ٤٦٠-٤٧٠ / ٢٧١)، والحاكم (٤ / ٥٦٠-٥٦١)، وقال: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي فقال: «يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري ضعيف»، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠ / ٣٣٨-٣٤٠) وقال: «رواه عبد اللَّه والطبراني بنحوه، وأحد طريقي عبد اللَّه إسنادها متصل ورجالها ثقات، والإسناد الآخر وإسناد الطبراني مرسل»، وحسن سنده الحافظ في الإصابة، وضعف إسناده الشيخ الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (١ / ٢٨٩).

(٥) أخرجه: الطبراني (٨ / ٩٦ / ٧٤٧٩)، وفي مسند الشاميين (٢ / ٤٢٣-٤٢٤ / ١٦١٩)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠ / ٤١٦-٤١٧) وقال: «رواها كلها الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها وثقوا على ضعف في بعضهم».

السلف الولادة في الجنة، واحتجت بما رواه الترمذي في جامعه من حديث أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي**». قال الترمذي: حسن غريب، ورواه ابن ماجه[1]. قالت الطائفة الأولى: هذا لا يدل على وقوع الولادة في الجنة، فإنه علقه بالشرط فقال: «**إذا اشتهى**» ولكنه لا يشتهي، وهذا تأويل إسحاق بن راهويه حكاه البخاري عنه، قالوا: والجنة دار جزاء على الأعمال، وهؤلاء ليسوا من أهل الجزاء، قالوا: والجنة دار خلود لا موت فيها، فلو توالد فيها أهلها على الدوام والأبد لما وسعتهم، وإنما وسعتهم الدنيا بالموت.

وأجابت الطائفة الأخرى عن ذلك كله وقالت: «**إذا**» إنما تكون لمحقق الوقوع لا المشكوك فيه، وقد صح أنه سبحانه ينشئ للجنة خلقا يسكنهم إياها بلا عمل منهم، قالوا: وأطفال المسلمين أيضًا فيها بغير عمل، وأما حديث سعتها، فلو رزق كل واحد منهم عشرة آلاف من الولد وسعتهم، فإن أدناهم من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام»[2].

وقال أيضًا: «وتأويل إسحاق فيه نظر، فإنه قال: «**إذا اشتهى المؤمن الولد**» و«**إذا**» للمتحقق الوقوع، ولو أريد ما ذكره من المعنى لقال: لو اشتهى المؤمن الولد لكان حمله في ساعة فإن ما لا يكون أحق بأداة «**لو**» كما أن المتحقق الوقوع أحق بأداة «**إذا**»»[3].

وقال: «قال نفاة الإيلاد فهذا حديث صريح في انتفاء الولادة، وقوله: «**إذا اشتهى**» معلق بالشرط ولا يلزم من التعليق وقوع المعلق، ولا المعلق به، و«**إذا**» وإن كانت ظاهرة في المحقق فقد تستعمل لمجرد التعليق، الأعم من المحقق وغيره، قالوا: وفي هذا الموضع يتعين ذلك لوجوه:

أحدها: حديث أبي رزين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[4] وهن اللاتي طهرن من الحيض والنفاس والأذى، قال سفيان: أنبأنا ابن أبي نجيح عن مجاهد: مطهرة من

---

(١) هو حديث الباب.

(٢) زاد المعاد (٣ / ٦٨٤و٦٨٥).

(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٢٠).

(٤) البقرة: الآية (٢٥).

الحيض والغائط والبول، والنخام والبصاق والمني والولد. وقال أبو معاوية حدثنا ابن جريج عن عطاء: ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الولد والحيض والغائط والبول.

الثالث: قوله: «غير أنه لا مني ولا منية»، وقد تقدم، والولد إنما يخلق من ماء الرجل، فإذا لم يكن هناك مني ولا مذي ولا نفخ في الفرج، لم يكن هناك إيلاد.

الرابع: أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «**يبقى في الجنة فضل، فينشئ الله لها خلقًا يسكنهم إياها**»[1]، ولو كان في جنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم، وكانوا أحق بهم من غيرهم.

الخامس: أن الله سبحانه جعل الحمل والولادة مع الحيض والمني، فلو كانت النساء يحبلن في الجنة، لم ينقطع عنهن الحيض، والإنزال.

السادس: أن الله سبحانه وتعالى قدر التناسل في الدنيا؛ لأنه قدر الموت، وأخرجهم إلى هذه الدار قرنًا بعد قرن، وجعل لهم أمدًا ينتهون إليه، فلولا التناسل لبطل النوع الإنساني، ولهذا الملائكة لا تتناسل فإنهم لا يموتون كما تموت الإنس والجن، فإذا كان يوم القيامة أخرج الله سبحانه وتعالى الناس كلهم من الأرض، وأنشأهم للبقاء لا للموت، فلا يحتاجون إلى تناسل يحفظ النوع الإنساني، إذ هو منشأ للبقاء والدوام فلا أهل الجنة يتناسلون ولا أهل النار.

السابع: أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[2] فأخبر سبحانه أنه يكرمهم بإلحاق ذرياتهم الذين كانوا لهم بهم في الدنيا، ولو كان ينشأ لهم في الجنة ذرية أخرى لذكرهم كما ذكر ذرياتهم الذين كانوا في الدنيا؛ لأن قرة أعينهم كانت تكون بهم، كما هي بذرياتهم من أهل الدنيا.

الثامن: أنه إما أن يقال: باستمرار التناسل فيها لا إلى غاية، أو إلى غاية ثم تنقطع، وكلاهما مما لا سبيل إلى القول به لاستلزام الأول اجتماع أشخاص لا تتناهى، واستلزام الثاني انقطاع نوع من لذة أهل الجنة وسرورهم وهو محال، ولا يمكن أن يقال بتناسل يموت معه نسل ويخلفه نسل، إذ لا موت هناك.

التاسع: أن الجنة لا ينموا فيها الإنسان كما ينموا في الدنيا، فلا ولدان أهلها

---

(١) أخرجه: أحمد (٣ / ١٣٤)، ومسلم (٤ / ٢١٨٨ / ٢٨٤٨[٣٨]) من حديث أنس ﷺ.

(٢) الطور: الآية (٢١).

ينمون ويكبرون، ولا الرجال ينمون كما تقدم، بل هؤلاء ولدان صغار لا يتغيرون، وهؤلاء أبناء ثلاث وثلاثين لا يتغيرون، فلو كان في الجنة ولادة لكان المولود ينموا ضرورة حتى يصير رجلا، ومعلوم أن من مات من الأطفال يردون أبناء ثلاث وثلاثين من غير نمو، يوضحه.

الوجه العاشر: أن اللَّه سبحانه وتعالى ينشئ أهل الجنة نشأة الملائكة أو أكمل من نشأتهم بحيث لا يبولون، ولا يتغوطون ولا ينامون ويلهمون التسبيح، ولا يهرمون على تطاول الأحقاب، ولا تنمو أبدانهم، بل القدر الذي جعلوا عليه لازم لهم أبدًا، واللَّه أعلم. فهذا ما في المسألة.

فأما قول بعضهم: إن القدرة صالحة والكل ممكن، وقول آخرين إن الجنة دار المكلفين التي يستحقونها بالعمل، وأمثال هذه المباحث فرخيصة، وهي في كتب الناس، وباللَّه التوفيق. قال الحاكم قال الأستاذ أبو سهل: أهل الزيغ ينكرون هذا الحديث، يعني حديث الولادة في الجنة، وقد روى فيه غير إسناد، وسئل النبي عن ذلك، فقال: يكون ذلك على نحو مما روينا واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وليس بالمستحيل أن يشتهي المؤمن الممكن من شهواته، المصفى المقرب المسلط على لذاته قرة عين، وثمرة فؤاد من الذين أنعم اللَّه عليهم بأزواج مطهرة.

فإن قيل: ففي الحديث أنهن لا يحضن ولا ينفسن، فأين يكون الولد؟ قلت: الحيض سبب الولادة الممتد مدة بالحمل على الكثرة والوضع عليه، كما أن جميع بلاد الدنيا من المشارب والمطاعم والملابس على ما عرف من التعب والنصب وما يعقبه كل منهما مما يحذر منه، ويخاف من عواقبه، وهذه خمرة الدنيا المحرمة المستولية على كل بلية قد أعدها اللَّه تعالى لأهل الجنة منزوعة البلية موفرة اللذة، فلم لا يجوز أن يكون على مثله الولد. انتهى كلامه.

قلت: النافون للولادة في الجنة لم ينفوها لزيغ قلوبهم، ولكن لحديث أبي رزين غير «أن لا توالد»[1] وقد حكينا من قول عطاء وغيره: أنهن مطهرات من الحيض والولد، وقد حكى الترمذي عن أهل العلم من السلف والخلف في ذلك قولين، وقد

---

(١) تقدم تخريجه.

حكى قول اسحق بإنكاره، وقال أبو أمامة في حديثه: «**غير أن لا مني ولا منية**»، والجنة ليست دار تناسل؛ بل دار بقاء وخلد، لا يموت من فيها فيقوم نسله مقامه، وحديث أبي سعيد الخدري هذا أجود أسانيده إسناد الترمذي، وقد حكم بغرابته، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه، فتارة يروى عنه، «**إذا اشتهى الولد**»، وتارة أنه «**ليشتهي الولد**»، وتارة أن الرجل من أهل الجنة ليولد له فاللَّه أعلم.

فإن كان رسول اللَّه قد قاله فهو الحق الذي لا شك فيه، وهذه الألفاظ لا تنافي بينها ولا تناقض، وحديث أبي رزين: «**غير أن لا توالد**» إذ ذاك نفى للتوالد المعهود في الدنيا، ولا ينفي ولادة حمل الولد فيها ووضعه وسنه وشبابه في ساعة واحدة، فهذا ما انتهى إليه علمنا القاصر في هذه المسألة. وقد أتينا فيها بما لعلك لا تجده في غير هذا الكتاب. واللَّه أعلم»[1].

وجملة ما اعتمده النافون للولادة في الجنة حديثي أبي أمامة وأبي رزين، وقد تقدم بيان ضعفهما، وكذلك تفسير إسحاق لحديث الباب.

قال الشيخ الألباني: «وقول إسحاق ليس من الحديث، ثم هو مما لا دليل عليه في السنة الصحيحة، وظاهر الحديث يرده»[2].

* * *

---

(١) حادي الأرواح (ص: ٢٢٤-٢٢٦).

(٢) التعليق على المشكاة (٣ / ١٥٧١).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يقال لهم: وهذه الجنة التي أورثكموها اللَّه عن أهل النار الذين أدخلهم جهنم بما كنتم في الدنيا تعملون من الخيرات.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يقول: لكم في الجنة ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من كلّ نوع ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يقول: من الفاكهة تأكلون ما اشتهيتم»[(١)].

قال ابن كثير: «ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة اللَّه إياكم، فإنه لا يدخل أحدًا عمله الجنة، ولكن بفضل من اللَّه ورحمته، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات.. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، واللَّه تعالى أعلم»[(٢)].

قال الشنقيطي: «قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة ونحوها من الآيات الدالة على أن العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[(٥)].

وبينا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع قوله ﷺ:

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٧و٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٣٩).

(٣) الأعراف: الآية (٤٣).

(٤) مريم: الآية (٦٣).

(٥) السجدة: الآية (١٧).

«**لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل**»[١].

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله اللَّه برحمة منه وفضل. وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله اللَّه. واللَّه يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]»[٣].

قال الرازي: «واعلم أنه تعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب أولًا، ثم إلى العالمين ثانيًا، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة، فلهذا السبب تفضل اللَّه تعالى عليهم بهذه المعاني مرة بعد أخرى، تكميلًا لرغبتهم وتقوية لدواعيهم»[٤].

قال صديق حسن خان: «فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشريف، والمخاطب كل واحد من أهل الجنة، فلذلك أفرد الكاف، ولم يقل: وتلكم الذي هو مقتضى أورثتموها إيذانا بأن كل واحد مقصود بذاته»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإيمان هو العمل، ووراثة أهل الجنة منازل أهل النار في الجنة

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان باللَّه ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل اللَّه. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور**»[٦].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) أخرجه: أحمد (٢ / ٣٤٤)، والبخاري (١١ / ٣٥٥ / ٦٤٦٣)، ومسلم (٤ / ٢١٦٩ / ٢٨١٦)، وابن ماجه (٢ / ١٤٠٥ / ٤٢٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) المائدة: الآية (٢٧).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢٨٤).

(٤) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢٦).

(٥) فتح البيان (١٢ / ٣٧٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٢ / ٢٦٨)، والبخاري (١ / ١٠٥ / ٢٦)، ومسلم (١ / ٨٨ / ٨٣)، والترمذي (٤ / ١٥٩ / ١٦٥٨)، والنسائي (٥ / ١١٨ / ٢٦٢٣).

حجة في أن العمل تنال به درجات الجنة، وأن الإيمان قول وعمل، ويشهد لذلك قوله ﷺ حين سئل عن أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله». ثم ذكر الأعمال معه في جواب السائل.

فإن قيل: أليس قد تقدم قولكم إن الإيمان هو التصديق؟ قيل: التصديق هو أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يقال له: مؤمنا مطلقا؛ لأن اللّٰه تعالى فرض على عباده فرائض وشرع شرائع، لا يقبل تصديق من جحدها، ولم يرض من عباده المؤمنين بالتصديق والإقرار دون العمل؛ لما تقدم بيانه في غير موضع من هذا الكتاب، هذا مذهب جماعة أهل السنة، أن الإيمان قول وعمل، قال أبو عبيد: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى، وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم»[1].

قال الحافظ: «وقد نقل جماعة من المفسرين أن قوله هنا: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ معناه تؤمنون.. وقوله في الحديث: «إيمان بالله» في جواب أي العمل أفضل؟ دال على أن الاعتقاد والنطق من جملة الأعمال، فإن قيل الحديث يدل على أن الجهاد والحج ليسا من الإيمان لما تقتضيه «ثم» من المغايرة والترتيب، فالجواب: أن المراد بالإيمان هنا التصديق، هذه حقيقته، والإيمان كما تقدم يطلق على الأعمال البدنيه؛ لأنها من مكملاته»[2].

قال الحافظ ابن رجب: «وأما حديث أبي هريرة فهو يدل على أن الإيمان باللّٰه ورسوله عمل؛ لأنه جعله أفضل الأعمال، والإيمان باللّٰه ورسوله الظاهر أنه إنما يراد به الشهادتان، مع التصديق بهما»[3].

وقال أيضًا: «ومعلوم أن الجنة إنما يستحق دخولها بالتصديق بالقلب مع شهادة اللسان وبهما يخرج من يخرج من أهل النار فيدخل الجنة»[4].

قال العيني: فيه الدلالة على نيل الدرجات بالأعمال، ومنها الدلالة على أن

---

(١) شرح البخاري (١ / ٧٨و٧٩).
(٢) فتح الباري (١ / ١٠٥و١٠٦).
(٣) فتح الباري (١ / ١٢٢).
(٤) فتح الباري (١ / ١٢١)

الإيمان قول وعمل»[١].

وقال أيضًا: «إن الإيمان لما كان هو السبب في دخول العبد الجنة والله ﷻ أخبر بأن الجنة هي التي أورثوها بأعمالهم حيث قال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فدل ذلك على أن الإيمان هو العمل»[٢].

*** عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩﴾[٣]»[٤].**

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قد جاءت أحاديث دالة على أن لكل مسلم مذنبا كان أو غير مذنب منزلين: منزلا من الجنة، ومنزلا من النار، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩﴾ أي: يرث المؤمنون منازل الكفار، ويجعل الكفار في منازلهم في النار على ما يأتي بيانه، وهو مقتضى حديث أنس عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره»[٥] الحديث وقد تقدم، إلا أن هذه الوراثة تختلف، فمنهم من يرث ولا حساب، ومنهم من يرث بحسابه وبمناقشته، وبعد الخروج من النار»[٦].

* * *

---

(١) عمدة القاري (١ / ٢٨٤).

(٢) عمدة القاري (١ / ٢٧٧).

(٣) المؤمنون: الآية (١٠).

(٤) أخرجه: ابن ماجه (٢ / ١٤٥٣ / ٤٣٤١)، قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين»، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١١ / ٥٤٠)، وانظر الصحيحة رقم (٢٢٧٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣ / ١٢٦)، والبخاري (٣ / ٢٦٤ / ١٣٣٨)، ومسلم (٤ / ٢٢٠٠-٢٢٠١ / ٢٨٧٠)، وأبو داود (٣ / ٥٥٥-٥٥٦ / ٣٢٣١) مختصرًا، والنسائي (٤ / ٤٠٣ / ٢٠٥٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) التذكرة (٢ / ١٩١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا يفتر: لا يخفف.

مبلسون: آيسون من كل خير في ندم وحيرة، وقيل: سكت وتحسر، ومنه أبلس فلان إذا انقطع في الحجة وسكت عن الجواب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم الذين اجترموا في الدنيا الكفر بالله، فاجترموا به في الآخرة. ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ يقول: هم فيه ماكثون.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ يقول: لا يخفف عنهم العذاب وأصل الفتور: الضعف ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يقول: وهم في عذاب جهنم مبلسون، والهاء في فيه من ذكر العذاب. ويذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: «وَهُمْ فِيهَا مُبْلِسُونَ» والمعنى: وهم في جهنم مبلسون، والمبلس في هذا الموضع: هو الآيس من النجاة الذي قد قنط فاستسلم للعذاب والبلاء..

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أيها الناس أنا فعلنا بهم من التعذيب بعذاب جهنم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعبادتهم في الدنيا غير من كان عليهم عبادته، وكفرهم بالله، وجحودهم توحيده»[1].

قال السعدي: «﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ فيه، لا

(١) جامع البيان (٢٥ / ٩٨).

يخرجون منه أبدا .

و﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة، لا بإزالته، ولا بتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[1] وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾، فالله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم»[2].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد»[3].

* * *

(١) المؤمنون: الآيتان (١٠٧و١٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٣٩-٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «اللام في قوله: ﴿لِيَقْضِ﴾ لام الدعاء، والظاهر أن المعنى أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار أن يدعو اللَّه لهم بالموت.

والدليل على ذلك أمران: الأول: أنهم لو أرادوا دعاء اللَّه بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا يا مالك، ولما خاطبوه في قولهم: ﴿رَبُّكَ﴾.

والثاني: أن اللَّه بين في سورة المؤمن أن أهل النار، يطلبون خزنة النار، أن يدعو اللَّه لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾[(1)]. وقوله: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[(2)] أي: أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية. وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت، ولا تغني هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فقد دلت عليه آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾[(3)]، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾[(4)]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ

---

(١) غافر: الآية (٤٩).
(٢) القصص: الآية (١٥).
(٣) طه: الآية (٧٤).
(٤) الأعلى: الآيات (١١-١٣).

﴿فَيَمُوتُوا﴾[1] الآية. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[2] الآية.

وأما كون النار لا تغني عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[3]، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقد دلت عليه آيات كثيرة جدًّا كقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾[7] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[9] على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون منها فقد جاء موضحًا في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في (البقرة): ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[10]، وقوله تعالى في (المائدة): ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾[11]، وقوله تعالى في (الحج): ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[12] الآية، وقوله تعالى في (السجدة): ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[13]، وقوله تعالى في (الجاثية): ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[14] إلى غير ذلك من الآيات»[15].

قال الرازي: «اختلفوا في أن قولهم: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ على أي وجه طلبوا؟ فقال بعضهم على التمني، وقال آخرون على وجه الاستغاثة، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، وقيل: لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب. ثم إنه تعالى بيّن أن

---

(١) فاطر: الآية (٣٦).
(٢) إبراهيم: الآية (١٧).
(٣) الإسراء: الآية (٩٧).
(٤) فاطر: الآية (٣٦).
(٥) النحل: الآية (٨٥).
(٦) النبأ: الآية (٣٠).
(٧) الزخرف: الآية (٧٥).
(٨) الفرقان: الآية (٦٥).
(٩) الفرقان: الآية (٧٧).
(١٠) البقرة: الآية (١٦٧).
(١١) المائدة: الآية (٣٧).
(١٢) الحج: الآية (٢٢).
(١٣) السجدة: الآية (٢٠).
(١٤) الجاثية: الآية (٣٥).
(١٥) أضواء البيان (٧/ ٢٨٥-٢٨٦).

مالكًا يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وليس في القرآن متى أجابهم، هل أجابهم في الحال أو بمدة طويلة، وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافًا بهم وزيادة في غمهم، فعن عبد اللَّه بن عمر بعد أربعين سنة، وعن غيره بعد مائة سنة، وعن ابن عباس بعد ألف سنة، واللَّه أعلم بذلك المقدار.

ثم بيّن تعالى أن مالكًا لما أجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق»[1].

قال ابن كثير: «﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾[3] فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك قال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة ثم قال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم؛ أي: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة»[4].

قال السعدي: «﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. فقال لهم مالك خازن النار -حين طلبوا منه أن يدعو اللَّه لهم أن يقضي عليهم-: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون منها أبدا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غما إلى غمهم.

---

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٢٨).
(٢) فاطر: الآية (٣٦).
(٣) الأعلى: الآيات (١١-١٣).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٠).

ثم وبخهم بما فعلوا فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه لفزتم وسعدتم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن يعلى بن أمية قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ على المنبر: «﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ﴾»[٢].

* عن ابن عباس في قوله ﷿: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: «مكث عنهم ألف سنة، ثم قال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾»[٣].

★ **فوائد الحديثين:**

قال المباركفوري: «أي: يقول الكفار لمالك خازن النار ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: بالموت، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، يقولون هذا لشدة ما بهم فيجابون بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ أي: خالدون. واستدل به على مشروعية القراءة في الخطبة»[٤].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٢-٦٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤ / ٢٢٣)، والبخاري (٨ / ٧٣٠ / ٤٨١٩) واللفظ له، ومسلم (٢ / ٥٩٤ / ٨٧١)، وأبو داود (٤ / ٢٩٠ / ٣٩٩٢)، والترمذي (٢ / ٣٨٢ / ٥٠٨) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٥٤ / ١١٤٧٩).

(٣) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٢٥ / ٩٩)، وعبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٢)، والحاكم (٢ / ٤٤٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) تحفة الأحوذي (٣ / ٢١).

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أبرموا : أحكموا ، من أبرمت الحبل : إذا فتلته فتلًا محكمًا ، والمعنى ههنا : كادوا كيدا ومكروا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- : أم أبرم هؤلاء المشركون من قريش أمرا فأحكموه ، يكيدون به الحقّ الذي جئناهم به ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ، ويذلهم من النكال . . وقوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ يقول : أم يظنّ هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم ، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم ، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا .

وقوله : ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- : بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم ، وأخفوه عن الناس من سرّ كلامهم ، وحفظتنا لديهم ، يعني عندهم يكتبون ما نطقوا به من منطق ، وتكلموا به من كلامهم»[1] .

قال ابن كثير : «﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم . وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2] ، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى ، ورد وبال ذلك عليهم ؛ ولهذا قال : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي : سرهم وعلانيتهم ، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي : نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضًا يكتبون أعمالهم ،

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٠٠).
(٢) النمل : الآية (٥٠).

صغيرها وكبيرها»[١].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ أي: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾ أي: كادوا كيدًا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي: محكمون أمرا، ومدبرون تدبيرا يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قيضه اللّه من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[٢].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به؛ أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد اللّه عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، سيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا»[٣].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٠).

(٢) الأنبياء: الآية (١٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٣-٦٦٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما جرى ذكر الذين ظلموا بادعاء بنوة الملائكة في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] عقب قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾[2]، وعَقِب قوله قبله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[3].

وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أُعد للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان، أمر اللَّه رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولَد، جمعًا بين الرد على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة، والذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات اللَّه مثل اللاتِ والعُزَّى، فأمره بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: قل لهم جدَلا وإفحامًا، ولقِّنه كلامًا يدل على أنه ما كان يعزب عنه أن اللَّه ليس له ولد ولا يخطر بباله أن لله ابنًا. والذين يقول لهم هذا المقول هم المشركون الزاعمون ذلك، فهذا غرض الآية على الإجمال لأنها افتتحت بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ مع علم السامعين أن النبي ﷺ لا يروج عنده ذلك. ونظم الآية دقيق ومُعضِل، وتحته معانٍ جمّة»[4].

قال السعدي: «أي: قل ياأيها الرسول الكريم للذين جعلوا لله ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوا أحد. ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادًا للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيا، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقا إليه وتكميلا له، وكل

---

(١) الزخرف: الآية (٦٥).
(٢) الزخرف: الآية (٥٧).
(٣) الزخرف: الآية (١٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٦٣-٢٦٤).

شر فهم أول الناس تركا له وإنكارا له وبعدا منه، فلو كان للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد اللَّه، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا -لو كان حقًّا- لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلًا ونقلًا.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون»[1].

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في معنى (إن) في هذه الآية. فقالت جماعة من أهل العلم إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا: إنها شرطية، اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾. فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولدًا.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد. وقالت جماعة آخرون: إن لفظة (إن) في الآية نافية. والمعنى ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ثلاثة أوجه: الأول وهو أقربها: أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والثاني: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له. والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس، وعابد أيضًا سماعًا، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم ... وأعبد أن أهجو كليبًا بدارم

فقوله: وأعبد يعني آنف وأستنكف.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٤-٦٦٥).

ومنه أيضًا قول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة: أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت، فولدت لستة أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقادًا منه أنها كانت حاملًا قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي رضي الله عنه: إن اللَّه يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1]، ويقول -جل وعلا-: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[2] فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر. فما عبد عثمان رضي الله عنه، أن بعث إليها، لترد ولا ترجم. ومحل الشاهد من القصة، فوالله: ما عبد عثمان أي: ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة: أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء..

والحاصل أن كون معنى إن في الآية الكريمة هو النفي لا إشكال فيه، ولا محذور ولا إيهام، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن.

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلا يصح له معنى، غير محذور في اللغة، وليس له في كتاب اللَّه نظير، لإجماع أهل اللسان العربي على اختلاف المعنى في التعليق بإن، والتعليق بلو»[3].

وقال رحمه الله: «لما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ الآية نزه نفسه تنزيها تاما عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبينا أن رب السموات والأرض، ورب العرش جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

---

(١) الأحقاف: الآية (١٥). (٢) لقمان: الآية (١٤).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٢٨٧-٣٠٧).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، جاء مثله موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3] وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات»[5].

* * *

(١) المؤمنون: الآيتان (٩١-٩٢).

(٢) الإسراء: الآيتان (٤٢-٤٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٢).

(٤) النساء: الآية (١٧١).

(٥) أضواء البيان (٧ / ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يخوضوا: الخوض: الدخول في الحديث، وأصله الدخول في الماء. يقال: فلان يخوض: أي: يتكلم بما لا ينبغي، وغلب عليه الرديء من الكلام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فذر يا محمد هؤلاء المفترين على اللَّه، الواصفيه بأن له ولدًا يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وذلك يوم يصليهم اللَّه بفريتهم عليه جهنم وهو يوم القيامة»[1].

قال ابن عاشور: «اعتراض بِتَفْرِيعٍ عَن تنزيه اللَّه عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء، وهذا تأييس من إجداء الحجة فيهم، وأن الأوْلى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحِين يومٌ يلقون فيه العذاب الموعود. وهذا متحقق في أيمة الكفر الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا متصدين لمحاجّة النبي ﷺ ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والنضر بن عبد الدار، ممن قُتلوا يوم بدر»[2].

قال الرازي: «المقصود منه التهديد، يعني قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرياسة، فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وعدوا فيه بما وعدوا»[3].

قال السعدي: «أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٠٣-١٠٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٦٦).
(٣) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٣٢).

الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي له الألوهة في السماء معبود، وفي الأرض معبود، كما هو في السماء معبود، ولا شيء سواه تصلح عبادته، يقول -تعالى ذكره-: فأفردوا لمن هذه صفته العبادة، ولا تشركوا به شيئًا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السموات والأرض، فأهل السموات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[2] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[3].

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فإنه فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئا إلا لحكمة، ولا شرع شيئا إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٠٤).

(٢) الإسراء: الآية (٤٤).

(٣) الرعد: الآية (١٥).

(٤) الأنعام: الآية (٣).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وتبارك الذي له سلطان السموات السبع والأرض، وما بينهما من الأشياء كلها، جار على جميع ذلك حكمه، ماض فيهم قضاؤه. يقول: فكيف يكون له شريكًا من كان في سلطانه، وحكمه فيه نافذ. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يقول: وعنده علم الساعة التي تقوم فيها القيامة، ويُحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: وإليه أيها الناس تردّون من بعد مماتكم، فتصيرون إليه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[1].

قال ابن كثير: «أي: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضًا وإبرامًا، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلاً بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر»[2].

قال السعدي: «تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ قدم الظرف ليفيد الحصر؛ أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: في

---

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٠٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٢).

الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئًا، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٦-٦٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولا يملك عيسى وعزير والملائكة الذين يعبدهم هؤلاء المشركون بالساعة الشفاعة عند اللَّه لأحد إلا من شهد بالحق فوحد اللَّه وأطاعه بتوحيد علم منه وصحة بما جاءت به رسله، وقال آخرون: عني بذلك: ولا تملك الآلهة التي يدعوها المشركون، ويعبدونها من دون اللَّه الشفاعة إلا عيسى وعزير وذووهما والملائكة الذين شهدوا بالحق فأقروا به، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون اللَّه الشفاعة عنده لأحد، إلا من شهد بالحقّ، وشهادته بالحقّ: هو إقراره بتوحيد اللَّه، يعني بذلك: إلا من آمن باللَّه، وهم يعلمون حقيقة توحيده، ولم يخصص بأن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد من دون اللَّه، فذلك على جميع من كانت تعبد قريش من دون اللَّه يوم نزلت هذه الآية وغيرهم، وقد كان فيهم من يعبد من دون اللَّه الآلهة، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة وغيرهم، فجميع أولئك داخلون في قوله: ولا يملك الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون اللَّه الشفاعة عند اللَّه. ثم استثنى -جل ثناؤه- بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الذين يشهدون شهادة الحقّ فيوحدون اللَّه، ويخلصون له الوحدانية، على علم منهم ويقين بذلك، أنهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] فأثبت -جل ثناؤه- للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه»[2].

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٠٤-١٠٥) بتصرف.

قال ابن عاشور: «لما أنبأهم أن لله ملكَ السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أن ما يعبدونه من دون اللَّه لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا إبطالًا لزعمهم أنهم شفعاؤهم عند اللَّه. ولما كان من جملة من عُبدوا دون اللَّه الملائكة استثناهم بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: فهم يشفعون، وهذا في معنى قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾[1] ثم قال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾.. ووصف الشفعاء بأنهم شَهِدوا بالحق وهم يعلمون؛ أي: وهم يعلمون حال من يستحق الشفاعة. فقد علم أنهم لا يشفعون للذين خالف حالهم حال من يشهد لله بالحق»[2].

قال السعدي: «أي: كل من دعي من دون اللَّه، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن اللَّه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما يشهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهي الشهادة للّه تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب اللَّه، الحائزون لثوابه»[3].

قال شيخ الإسلام: «والمقصود هنا: أن قوله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ قد تم الكلام هنا. فلا يملك أحد من المعبودين من دون اللَّه الشفاعة البتة. ثم استثنى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، فهذا استثناء منقطع. والمنقطع يكون في المعنى المشترك بين المذكورين. فلما نفى ملكهم الشفاعة بقيت الشفاعة بلا مالك لها. كأنه قد قيل: فإذا لم يملكوها هل يشفعون في أحد؟ فقال: نعم ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. وهذا يتناول الشافع والمشفوع له. فلا يشفع إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. فالملائكة والأنبياء والصالحون -وإن كانوا لا يملكون الشفاعة- لكن إذا أذن الرب لهم شفعوا. وهم لا يؤذن لهم إلا في الشفاعة للمؤمنين الذين يشهدون أن لا إله إلا اللَّه. فيشهدون بالحق وهم يعلمون. لا يشفعون لمن

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٧٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٧-٦٦٨).

قال هذه الكلمة تقليدًا للآباء والشيوخ. كما جاء الحديث الصحيح: «إن الرجل يسأل في قبره؟ ما تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: هو عبد اللَّه ورسوله. جاءنا بالبينات والهدى. وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري. سمعت الناس يقولون شيئا فقلته»[1] فلهذا قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقد تقدم قول ابن عباس: يعني من قال: (لا إله إلا الله) يعني: خالصًا من قلبه. والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون في أهل (لا إله إلا الله»)[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (٣/ ٢٦٤/ ١٣٣٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠)، وأبو داود مختصرًا (٣/ ٥٥٥-٥٥٦/ ٣٢٣١)، والنسائي (٤/ ٤٠٣/ ٢٠٥٠)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٠٩-٤١٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يؤفكون: من الإفك، أصله: صرف الشيء عما يحق أن يكون عليه، والمعنى: يصرفون عن عبادة اللَّه وحده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين باللَّه من قومك: من خلقهم؟ ليقولنّ: اللَّه خلقنا.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فأي وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم، ويحرمون إصابة الحقّ في عبادته.. فتأويل الكلام إذن: وقال محمد قيله شاكيًا إلى ربه -تبارك وتعالى- قومه الذين كذّبوه، وما يلقى منهم: يا ربّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك، قوم لا يؤمنون»[1].

قال ابن كثير: «أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين باللَّه العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: وقال: محمد: قيله؛ أي: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٠٦).

﴿ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾[(١)][(٢)].

قال الشنقيطي: «والتحقيق أن الضمير في ﴿قِيلِهِۦ﴾ للنبي ﷺ والدليل على ذلك أن قوله بعد: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ خطاب له ﷺ بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في ﴿قِيلِهِۦ﴾ لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شكواه ﷺ إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾[(٣)]، وعن نوح قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾[(٤)] إلى آخر الآيات»[(٥)].

قال السعدي: «أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه اللّه وحده لا شريك له.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة اللّه والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعنده علم قيله؛ أي: الرسول ﷺ، شاكيًا لربه تكذيب قومه، متحزنا على ذلك، متحسرًا على عدم إيمانهم، فاللّه تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون»[(٦)].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٣٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٢-٢٤٣).
(٣) الدخان: الآية (٢٢).
(٤) نوح: الآيتان (٥و٦).
(٥) أضواء البيان (٧ / ٣١٣).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٨).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تضمنت ثلاثة أمور:

الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الأول: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[2]. والصفح الإعراض عن المؤاخذة بالذنب. قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو. قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضًا عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين. ومعلوم أنه ﷺ سيدهم كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[4]. وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[5] قال له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[6]. ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسافهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا.

---

(١) الحجر: الآية (٨٥).

(٢) الأحزاب: الآية (٤٨).

(٣) الفرقان: الآية (٦٣).

(٤) القصص: الآية (٥٥).

(٥) مريم: الآية (٤٦).

(٦) مريم: الآية (٤٧).

وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة قد جاء موضحًا في آيات كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2]، وقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ. والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة، والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند اللَّه تعالى»[6].

قال ابن كثير: «﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب واللَّه أعلم»[7].

قال السعدي: «أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: خطابا بمقتضى جهلهم ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[8] فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم ﷺ إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل. فصلوات اللّه وسلامه على من خصه اللّه بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

---

(١) ص: الآية (٨٨).
(٢) الأنعام: الآية (٦٧).
(٣) النبأ: الآيتان (٤و٥).
(٤) التكاثر: الآيتان (٣و٤).
(٥) التكاثر: الآيتان (٦-٧).
(٦) أضواء البيان (٧ / ٣١٣-٣١٥).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٣).
(٨) الفرقان: الآية (٦٣).

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم»[١].

قلت: هذه السورة فريدة من نوعها، ذكرت القضايا العقدية التي ابتلي بها كفار قريش، وهي نابعة من جهلهم وطيشهم وحمقهم، لا يستندون فيها إلى عقل ولا إلى فطرة، فضلا عن أن ينقلوا ذلك عن كتاب سماوي أو يسندوه إلى قول نبي أو فعله. فرد اللَّه عليهم ردًا واضحًا وأفحمهم، ونوع -تبارك وتعالى- ذلك في آياته. فعقيدتهم في الملائكة عقيدة باطلة؛ فالملائكة هم عباد مكرمون لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فكيف يكونون بنات الله؟! فهذا إن دل على شيء؛ فإنما يدل على التخبط. وهكذا أفعالهم الشركية كلها تخبط وشرك وسفه.

والمشركون في كل زمان لا يستندون في شركهم إلى مستند. فعباد القبور والأموات من أكبر حمقهم وسفاهتهم أنهم دفنوا ميتهم ويعلمون أن الهوام والحشرات تأكل أجزاء جسده، ومع ذلك يشيدون له البنيان ويخصصون له الحرم، ويشدون له الرحال، ويذبحون له عند قبره، وينذرون له النذر، يطوفون به ويصلون له وعنده، ويستغيثون به ويستعينون به في الملمات والشدائد، ويقسمون باسمه، ويصرفون له من العبادات ما لم يكن يصرفه عباد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فحمق المشركين وسفاهتهم في كل زمان لا نهاية له، كما ذكر اللَّه عن مشركي قريش في هذه السورة. ومن ذلك سفاهتهم في اختيار النبوة والرسالة وزعمهم أن الذي يستحق أن تنزل عليه يجب أن يكون من عظماء القوم سواء في مكة أو خارجها! فهم يحسبون أن النبوة والرسالة هي الثراء والمال والجاه، ولا يعلمون أنها اصطفاء واختيار، فعقولهم منكوسة، وأفهامهم مركوسة، فهذا الفهم السقيم تطابق عليه المشركون في كل زمان ومكان، فهم يحتقرون الدعاة إلى اللَّه سواء الأنبياء منهم أو خلفاؤهم وورثتهم. فهم يعتزون بمالهم وجاههم، ولا يعتبرون أن المال والجاه هو أمر طارئ وعرض زائل. وذات الإنسان وعقله وفهمه لا علاقة له بهذه الأمور. والنبوة والرسالة اختيار من اللَّه واصطفاء لا دخل لها في هذه الافتراضات المتعسفة. فالدعاة إلى اللَّه -تبارك وتعالى- يتميزون بصدقهم وأمانتهم، وحبهم للخير لعموم الناس، ولا يتبجحون بمال ولا بجاه «أنا النبي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٦٦٩).

لا كذب، **أنا ابن عبد المطلب**»[(١)]، فهو نبي اللَّه وصِدِّيقه، وهو كغيره من البشر ابن ذكر وأنثى.

وخلاصة الكلام؛ فإن السورة فيها أصول وقواعد للتوحيد والنبوة، وذم لقرناء السوء، وبيان لجزاء المعرضين عن كتب اللَّه ورسالته، وأنهم قرناء الشياطين، لا يصدر منهم إلا ما يضر الأمة، واللَّه المستعان.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨١)، والبخاري (٦/ ١٣٠-١٣١/ ٢٩٣٠)، ومسلم (٣/ ١٤٠٠/ ١٧٧٦)، والترمذي (٤/ ١٧٢-١٧٣/ ١٦٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩١/ ٨٦٣٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

* * *